الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن والسنة

سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي

الجزء العاشر
الأنعام - الأعراف

الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

٢

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الجزء العاشر

تتمة سورة الأنعام - سورة الأعراف

شبكة كتب الشيعة

سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي

shiabooks.net
mktba.net < رابط بديل

٦

تتمة

سُورَةُ الأَنعَامِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ
فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ
فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا
رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾
فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ
يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ
قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن
يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾
وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ
يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ
وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ
دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ
وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ
وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ

﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ
وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ
وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ
هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ
بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى
اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ
لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

هذه أربعة عشر آية هي بجملتها تتناول موضوعاً متصل الفقرات في بناء العقيدة، تعريفاً شاملاً عريفاً عريقاً بالألوهية الحقّة الحقيقية وحق العبودية الصالحة وما بينهما من صِلات، تعالجها هذه الآيات في أسلوب قصصي.

وهذا الدرس البالغ لقمته، فيه عرض لموكب الإيمان الرسالي منذ نوح إلى خاتم المرسلين محمد ﷺ طالعاً في مطلعه مشهدٌ رائع للحجة الإبراهيمية الراسمة لحكم الفطرة السليمة، تحرِّياً عن رب العالمين، هو بظاهره تعلم في سيرة التعليم إذ كان موحداً منذ بزوغه، لم يكفر به - ولن - طرفة عين:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾:

هنا «أبيه آزر» ولا ثانية لها في القرآن إلّا «أبيه» دون ﴿آزَرَ﴾[1] والقصد منه غير والده كما هو المتأكد من آيات عدة، فقد بدأ قومه ومنهم آزر

(١) كما في ٩: ١١٤ و١٩: ٤٢ و٢١: ٥٢ و٢٦: ٧٠ و٣٧: ٨٥ و٤٣: ٢٦ و٦٠: ٤.

المسمى بـ«أبيه» بالتنديد على عبادة الأصنام ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ورغم الحظر عن الاستغفار للمشركين يعده الاستغفار حين يتلمح من كلامه معه أنه في حالة التحري: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾[1] ولقد أنجز له وعده قبل أن يتبيَّن له أنه عدو لله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[2] إذ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾[3].

ذلك، فقد تبرأ منه حتى آخر عمره وإنجاز أمره، ولكنه نسمعه حين يرفع القواعد من البيت هو وإسماعيل يدعو لوالديه: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[4].

إذاً فوالده هنا غير أبيه هناك، فهو عمه دون والده، ولا جده من أمه لأنه أيضاً والده، وإلّا لكان نقضاً لعصمة الجليل والخليل حيث أنبأ: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[5] وقضية طليق التبرؤ ألا يستغفر لآزر، فلما استغفر لوالديه في آخر عمره ونهاية أمره وقد تبيَّن أن آزر عدو لله نتأكد أن والده غير المعني بأبيه[6].

(١) سورة مريم، الآيتان: ٤٦، ٤٧.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٨٦.
(٣) سورة التوبة، الآيتان: ١١٣، ١١٤.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٤١.
(٥) سورة التوبة، الآية: ١١٤.
(٦) راجع لتفصيل المبحث إلى آية التوبة (١١٤) والممتحنة (٤) ج ٢٨ : ٢٧٥ وإبراهيم (٤١) ج ١٣ ومريم (١٦ : ٣٣٣) تجد قولاً فصلاً حول أن آزر لم يكن والده عليه السلام، ووجه التعبير بالأب عن غير الوالد في آيات عدة.

و﴿. . . أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ منكرة، هي من صنع المصنوعين، تتخذها ﴿ءَالِهَةً﴾ كما الله، إشراكاً لها بالله، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ﴾ التابعين لك ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يُبيّن ضلاله لأصحاب الفِطر والعقول.

هنا ﴿أَصْنَامًا﴾ منحوتة بأيديهم وما أشبه من المصنوع، تنكير لنكير الأصنام، تنكيراً فطرياً وعقلياً بل وحسياً لاتخاذها آلهة، فهو استفهام انكاري بأشَده، منقطع النظير بأشُدِّه، يستأصل الأصنام وأضرابها عن كافة شؤون الألوهية.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ٧٥﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ البعيدة المدى، العميقة الصدى لملكوت الأصنام وما شابهها من السماوات والأرض ﴿نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. . .﴾ حيث استطاع أن يتغلب في كلّ حقول الحجاج مع أبيه ومع قومه ومع نمرود الطاغية ليكون ﴿. . . وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ ونتيجة لهذه الإرادة الربانية ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ. . .﴾.

أجل، وكلما زادت رؤية ملكوت الكون وكيانه تعلقاً بالله، زاد الرائي يقيناً أكثر بالله، فلأن التعلق بالله درجات، فملكوته أيضاً في أنفس معتقديها درجات، كلَّما كان السلب أقوى وأعمق كان الإيجاب - على ضوئه - أعمق وأقوى، بل ولا نصيب للخلق في معرفة الله إلّا مجالات السلب، فـ «لا إله» تنفي الألوهية عن كلّ الكائنات بحذافيرها، ثم «إلا الله» تثبت حق الألوهية له تعالى، ولكن ما هو وما هي صفاته وأفعاله؟ لا نصيب له هنا إلّا السلب، موجود يعني ليس بمعدوم، عالم يعني ليس بجاهل وهكذا الأمر. . فـ ﴿. . . سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ١٦٠﴾[1].

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٥٩، ١٦٠.

وهنا تساؤلات عدة حول هذه الآية، منها ما هي الملكوت، وأخرى ألم يكن إبراهيم قبل هذه الرؤية من الموقنين بالله، وإذاً فكيف كان يؤنب أباه وقومه بشركهم أنهم في ضلال مبين، وثالثة بماذا يعطف العاطف في ﴿وَلِيَكُونَ. . .﴾ ولا معطوف عليه ظاهراً يعطف عليه؟.

قد يكون المعطوف عليه «ليحتج على المشركين» كأصل في حجاجه ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ الأولين في تلك الإراءة الملكوتية، إيقاناً فوق إيقان فإيماناً فوق إيمان، حيث الإيقان فالإيمان درجات حسب درجات رؤية الملكوت، فما أريه إبراهيم من الملكوت له جانبان اثنان ثانيهما وهو الأعمق ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ والأوّل وهو الممكن تفهمه لمتحري الحق فقر الكائنات كلها إلى ربها، ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ الرساليين وهم أفضل الرسل والنبيين، لا كلّ الموقنين بل الموقنين القمة كإبراهيم عليه السلام.

ذلك، ولرؤية الملكوت خلقياً - وهي مفروضة على كلّ السالكين إلى الله - درجات، رؤية الفطرة، ورؤية العقلية الإنسانية على ضوء الفطرة والرؤية الحسية والعلمية، ورؤية بالوحي يكملها كلها، كما ولكلّ درجات، فليست رؤية الملكوت - إذاً - نسقاً واحداً وشكلاً فارداً، ومن ثم رؤية خالقية ربانية علمياً وقيومياً خاصة بالله.

والنظرتان الأوليان إلى ملكوت السماوات والأرض هما المفروضتان على كافة المكلفين، ذوي الفطر والعقول، والأبصار والبصائر، وقد يندد بمن لا ينظر بها إلى الملكوت: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ. . .﴾[1] وهذه هي الملكوت العامة التي يجب النظر إليها بعين الفطرة والعقلية الإنسانية، بعين البصر ثم البصيرة.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

وهذه الرؤية لا تتجاوز علماً مّا بماهية الكون من تعلقه بالله، فلا إله إلّا الله، ثم هناك رؤية علمية وقيومية تختص بالله وهي رؤية أخص الخاص: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١) ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾(٢).

هذه وتلك ملكوتان بينهما بون كبير، ثم بينهما وسيطة تختص بإراءة الوحي، وهي رؤية الخاص، كرؤية إبراهيم ملكوت السماوات والأرض(٣) فإيقانه أيضاً هو المناسب لرؤيته، إيقان بعصمة ربانية ليس كسائر الإيقان الحاصل بفطرة وعقلية إنسانية مهما بلغت ما بلغت من قممها، فإنها ليست لتصل إلى عصمة طليقة تحصل بإرادة الله، المعبَّر عنها ببرهان الرب:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾(٤) اللهم إلّا كنموذج تصديقاً لرؤية الملكوت(٥) وبقدر ما يتقي العبد ربه يُرزق رؤية للملكوت،

---

(١) سورة يس، الآية: ٨٣.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

(٣) نور الثقلين ١: ٧٣٢ عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كشط له عن الأرض ومن عليها وعن السماء ومن فيها والملك الذي يحملها والعرش ومن عليه وفعل ذلك كله برسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام وفيه عن كتاب الاحتجاج حديث طويل عن النبي صلى الله عليه وآله يقول فيه: يا أبا جهل أما علمت قصة إبراهيم الخليل عليه السلام لما رفع في الملكوت وذلك قول ربي ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ...﴾ [الأنعام: ٧٥] قوى الله بصره لما رفعه دون السماء حتى أبصر الأرض ومن عليها ظاهرين ومستترين».

(٤) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

(٥) نور الثقلين ١: ٧٣٠ في كتاب المناقب لابن شهرآشوب جابر بن يزيد قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ...﴾ [الأنعام: ٧٥] فرفع أبو جعفر عليه السلام بيده وقال: ارفع رأسك فرفعته فوجدت السقف متفرقاً ورمق ناظري في ثلمة حتى رأيت نوراً حار عنه بصري فقال: هكذا رأى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، وانظر إلى الأرض ثم ارفع رأسك فلما رفعته رأيت السقف كما كان ثم أخذ بيدي وأخرجني من الدار وألبسني=

ولكنها على أية حال ليست إلّا دون العصمة الرسولية والرسالية في هذه الرؤية، وكما يروى عن النبي ﷺ قوله: «طوبى للمساكين بالصبر وهم الذين يرون ملكوت السماوات والأرض»[١] وقال ﷺ: «لولا تكثير في كلامكم وتمريج في قلوبكم لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع» وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «لولا أن الشياطين يحمون حول قلوب بني آدم لرأوا ملكوت السماوات والأرض».

وهنا في إرادة إبراهيم ملكوت السماوات والأرض نتائج عدة رسولية ورسالية، أهمها المذكور هنا: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ فإنه المحور الأساس في بناء الرسالة رسولياً ورسالياً.

وهذه الإراءة لإبراهيم - هنا - الخاصة بمعرفة الله كما تناسب محتده، تثنى في أخرى هي الإيقان بحقيقة المعاد: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ...﴾[٣] وقد كان موقناً أنه تَحيي الموتى، ولكنه هنا يتطلب الإيقان بـ ﴿كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ إيقاناً معرفياً بفعل الرب على قدر دون كلّ الأقدار الخاصة بالله فإبراهيم الخليل كان عارفاً ربه الجليل «من قبل» وعلّه منذ ولاده:

= ثوباً وقال: غمض عينيك ساعة ثم قال: أنت في الظلمات التي رأى ذو القرنين ففتحت عيني فلم أر شيئاً ثم تخطى خطاً فقال: أنت على رأس عين الحياة للخضر ثم خرجنا من ذلك العالم حتى تجاوزنا خمسة فقال: هذا ملكوت الأرض قال غمض عينيك وأخذ بيدي فإذا نحن بالدار التي كنا فيها وخلع عني ما كان ألبسنيه فقلت جعلت فداك كم ذهب من اليوم؟ فقال: ثلاث ساعة.

(١) نور الثقلين ١ : ٧٣٣ عن الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال النبي ﷺ...

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾(١) والحجة التالية عرض لموقف الفطرة والعقلية السليمة بمعرض قومه المشركين، نبهة لهم لعلَّم يذّكّرون.

أجل ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ﴾ إراءَة متواصلة لا انقطاع لها، ولأنها أصل العصمة الربانية لإبراهيم الخليل، فلا تعني ﴿نُرِىٓ﴾ إراءَة لاحقة، ولا - فقط - حكاية حال ماضية، بل هي إرادة استمرارية طول عمره ولا سيما في طائل أمره الرسالي، إراءة تحلق على كيانات العصمة رسلاً وأئمة يخلفونهم، ولا سيما محمد ﷺ والمعصومون من عترته عليهم السلام (٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بما فيهما من أصنام وأوثان وطواغيت وسواها من الكائنات، فإن رؤية حق الخلق وحاقّه رؤية لحق فعل الخالق قَدرَها، مهما كانت الرؤية الطليقة خاصة بالله، فلا يعرف نفسه كما هو إلّا هو، ثم من يعرِّفه نفسه بما يُريه من ملكوت خلقه، فإن ملكوته نفسه لا ترى إلّا لنفسه، وكما يروى عن أوّل العارفين والعابدين: «ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك».

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٥١، ٥٢.

(٢) المصدر في الخرائج والجرائح عن ابن مسكان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ . . .﴾ [الأنعام: ٧٥] قال: كشط الله لإبراهيم السماوات حتى نظر إلى ما فوق الأرض وكشطت له الأرض حتى رأى ما تحت نجومها (تخومها) وما فوق الهوى، وفعل بمحمد ﷺ مثل ذلك وإني لأرى صاحبكم والأئمة من بعده فعل بهم مثل ذلك، وسأله أبو بصير هل رأى محمد ﷺ ملكوت السماوات والأرض كما رأى ذلك إبراهيم عليه السلام؟ قال: نعم وصاحبكم والأئمة من بعده».

وفيه عن كتاب الخصال عن يزداد بن إبراهيم عمن حدثنا من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول قال أمير المؤمنين عليه السلام والله لقد أعطاني الله تبارك وتعالى تسعة أشياء لم يعطها أحداً قبلي خلا النبي ﷺ: «فتحت لي السبل وعلمت الأسباب وأجري لي السحاب وعلمت المنايا والبلايا وفصل الخطاب ولقد نظرت في الملكوت بإذن ربي جل جلاله فما غاب عني ما كان قبلي وما يأتي بعدي». . . .

صحيح أن رؤية الفطرة الأصيلة، غير المحجوبة، هي أصل الرؤية، ثم رؤية العقل الذي يتبنّاه هي فصل الرؤية عن إجمالها، ولكنها مع رؤية العلم والحس لا تكفي عصمة طليقة في أصل الرؤية وفصلها، اللّهم إلّا قدر ما كلف العباد بما وهبوا من طاقات للمعرفة، و«لولا أن الشياطين...».

فإبراهيم الخليل هو من أولئك المعصومين الأكارم الذين أراهم الله ملكوت الكائنات بأسرها كما يمكن لمخلوق، مهما كانت هذه الإرادة أيضاً درجات، من علم اليقين إلى عين اليقين وإلى حق اليقين، كما ولكلٍّ درجات.

ولأن صور الرؤية الملكوتية للكون والمكون درجات، فقد رأى محمد ﷺ ربه في أحسن صورة[1] رؤية معرفية بقلبه وكما رأى من آيات ربه الكبرى ببصره وبصيرته في معراجه ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾[2].

ولأن ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ﴾ تحمل إراءَة دائمة لإبراهيم وهذه الحجة طرف من أطرافها فليست ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ تصديقاً ولا شكّاً فإنهما ينافيان الإيقان دون العصمة فكيف يجتمعان مع إيقان العصمة؟، كما وأن ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ

---

(١) في الدر المنثور أخرج أحمد وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الرحمن بن عائش الخضرمي عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: رأيت ربي في أحسن صورة فقال: فيم يختصم الملاء الأعلى يا محمد! قلت: أنت اعلم أي رب فوضع يده بين كتفيَّ فوجدت بردها بين ثديي قال فعلمت ما في السماوات والأرض ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ...﴾ [الأنعام: ٧٥].
أقول: «صورة» هنا هي كما تناسب رؤية الرب وهي الصورة العليا المعرفية، ويده تعالى هي يد الإراءة للملكوت، فأين صورة من صورة وإراءة من إراءة؟

(٢) سورة النجم، الآيات: ١٣-١٨.

إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[1] دليل أنها من إراءة الملكوت، ولم تكن حجة على نفسه، لسابق توحيده وسابغة.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾:

موقف حاسم جازم من مواقف حجاجه على المشركين في حفلة سماوية، فلئن قضي على ألوهية آلهة السماء - التي هي الأصيلة عند عبدتها، وأصنام الأرض ليست إلّا ممثلة لها، كما هي تمثل إله السماوات والأرض - فهو القضاء بأحرى على آلهة الأرض.

ذلك وكما له موقف آخر في حفلة أرضية مع آلهة الأرض ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[2]، وكذلك مواقف أخرى تثبيتاً لوحدة الإله ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

في ذلك الحجاج نرى حسماً لألوهية النجم والقمر والشمس، مما يدل على أن الخليل يُحاج هنا عبدة الأجرام السماوية؛ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ وهو أوّل ظاهرة من الكواكب بداية الليل، فهي الزهرة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ على الإنكار والاستخبار»[3] لا التصديق والإخبار أو سؤال الإنكار،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٥٨.

(٣) نور الثقلين ١: ٧٣٥ في عيون الأخبار في باب ذكر مجلس الرضا عليه السلام عند المأمون في عصمة الأنبياء وبسند متصل عن علي بن الجهم قال حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله أليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: فأخبرني عن قول الله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦] فقال الرضا عليه السلام: إن إبراهيم صلى الله عليه وقع على ثلاثة اصناف صنف يعبد الزهرة وصنف يعبد القمر وصنف يعبد الشمس وذلك حين خرج من السرب الذي أخفى فيه ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦] رأى الزهرة قال هذا ربي على الإنكار والاستخبار، فلما أفل الكوكب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] لأن الأفول =

بل على المجاراة في الحجة التي توغل الخصم في الحجة، كيف وقد أُري ملكوت السماوات والأرض، ورمى أباه آزر وقومه المشركين من قبل بضلال مبين، ومن بعد ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ دون «برئت» أو مما تشركِ، ثم ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ دون «ولا أشرك» ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ...﴾ إنه غاب في نفسه وغاب عن الخلق.

فمن ذا الذي يرعى مربوبية إذا كان الرب يغيب، لا - إنه ليس رباً حيث الرب لا يغيب، وإنه منطق الفطرة بعيداً عن الجدليات المنطقية والفلسفية المصطلحة، منطق يفهمه كلّ ذي فطرة سليمة.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧﴾:

وهذا هو شأن المتحري عن ربه الذي عرفه بفطرته وعقليته أنه الوجود الطليق الذي لم يزل ولا يزال فلا أفول له ولا أية حركة، فلإنه يعرف ربه يسأله ملتمساً في تحريه ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين ضلوا عن ربهم في التيه، ضلالاً عن ميثاق الفطرة(١).

= من صفات المحدث لا من صفات القديم ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ [الأنعام: ٧٧] على الإنكار والاستخبار فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، يقول: لو لم يهدني ربي لكنت من القوم الضالين فلما أصبح رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر من الزهرة والقمر على الإنكار والاستخبار والإقرار فلما أفلت قال للأصناف الثلاثة من عبدة الزهرة والقمر والشمس ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩] وإنما أراد إبراهيم بما قال أن يبين لهم بطلان دينهم ويثبت عندهم أن العبادة لا تحق لمن كان بصفة الزهرة والقمر والشمس وإنما تحق العبادة لخالقها وخالق السماوات والأرض وكان ما احتج به على قومه ألهمه الله وآتاه كما قال الله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ٨٣] فقال المأمون: «لله درك يا الحسن».

(١) نور الثقلين ١ : ٧٣٦ في تفسير العياشي عن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام في قول إبراهيم =

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

فلأن هذا أكبر فعلّه لا يأفل كما أفل صاحباه ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ ثم لم يجد أكبر منها فاستأصل - إذاً - في ذلك الحجاج ربوبية أجرام السماء ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أنتم بالله ولست أنا منكم.

وعلّ ﴿هَٰذَا﴾ هنا بدل «هذه» رعاية لـ ﴿رَبِّي﴾ ورعاية لهم تماشياً منهم في ربوبية الشمس فقد عنى ﴿هَٰذَا﴾ الكائن النير ﴿رَبِّي﴾.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾:

﴿إِنِّي﴾ متأكداً دون ارتياب ﴿وَجَّهْتُ﴾ منذ عرفت نفسي لا فحسب من الآن ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ بكلّ وجوهه واتجاهاته ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ حيث المحدودية والأفول دليل الانفطار، والفطرة المتحرية عن الله لا يصدق محدوداً آفلاً أنه هو الله، فكما الفطرة تتحرى عن الفاطر غير المنفطر، كذلك الخلق المنفطر دليل على الفاطر غير المنفطر، تجاوباً بين كتابي الآفاق والأنفس في توحيد الله.

وهنا ﴿فَطَرَ﴾ لمحة لامعة إلى قضية دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأنها تحكم بانفطار الآفلين، فانفطار المنفطرين دليل فطر الفاطر وما أحسنه دليلاً! فقد فطر الله الإنسان على معرفته، وفطر الكائنات دليلاً على ربوبيته، وهي كلها آياته: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ...﴾[1].

= صلوات الله عليه: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧] أي: ناسياً للميثاق ورواه مثله عنه عليه السلام مسعدة.

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

فإبراهيم الخليل يصوِّر هنا في حجاجه صورة التحري عن ربه في مظهر الشاكِّ بديلاً عمن كانوا يعبدون هذه الإجرام، فـ ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ هي من مقالتهم وهو ينقلها لينقلهم منها إلى الذي فطر السماوات والأرض.

فمهما كانت ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ إشراكاً ممن يعتقده، «فلم يكن من إبراهيم شرك وإنما كان في طلب ربه وهو من غيره شرك»(١) «وإنه من فكر من الناس في مثل ذلك فإنه بمنزلته»(٢).

فالشك المتحري عن يقين هو شكٌّ مقدَّس فيعتبر من الإيمان، والشك المدنس هو الجامد الجاحد دون أي تحرٍ إلّا تجرياً على الحق المرام.

ثم إن هذه الطريقة هي أقرب إلى الدعوة والإنصاف في الحجاج، وأبعد عن الشغب والاعتساف، وليس كذباً محرماً لأنه في مقام الإصلاح والإفصاح عن الحق المرام، ثم وقصد الاستنكار وإن لم يظهر يخرجه عن الكذب إلى التورية حيث ورَّى بصورة الإخبار والقصد هو الاستنكار.

ثم وهذه الأفولات الثلاث كانت براهين على بطلان ثالوث الربوبية للنجم والقمر والشمس بحكم الفطرة الحكيمة الحاكمة في كلٍّ قليل وجليل.

فلأن الفطرة تحب الكمال المطلق حباً في حقل الربوبية، ولا تجد مطلوبها في هذه الكائنات، فليكن مطلوبه خارجاً عن عالم الحس والحيطة العقلية.

فإبراهيم المتحري عن ربه في مجالة الحوار، لمَّا لا يجده في كوكب

---

(١) نور الثقلين ١ : ٧٣٧ من تفسير القمي وسئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول إبراهيم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] أشرك في قوله: هذا ربي؟ فقال: لا. بل من قال هذا اليوم فهو مشرك، ولم يكن...

(٢) المصدر ٧٣٨ في تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام قال في إبراهيم عليه السلام إذا رأى كوكباً قال: إنما كان طالباً لربه ولم يبلغ كفراً وأنه من فكر...

يلمع ولا في قمر يطلع، ولا في شمس تسطع، فبأحرى لا يجده فيما دون هذه المشرقات مهما شرّق وغرّب، فهو واجده في فطرته أنه لا حدَّ له ولا أفول، فليس هو ما لَه حد وأفول.

وهكذا يلقي إبراهيم عصاه في حران بين عبدة الأصنام عساه يجد آذاناً مصغية وعقولاً ناضجة غير معقولة بطوع الهوى، فاختار لرشدهم حجاج التجاوب بين الفطرة والعقل والإحساس، ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ وستره ظلامه «رأى» كوكباً «مما كانوا يعبدون»، فجاراهم في زعمهم دون مجابهة علنية، حاكياً مقالهم ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ كأنه صلوات الله عليه منهم ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: ناسياً للميثاق طريق في الحوار طريف حكيم، ومنهج في الحجاج قويم، وهذه أدعى إلى إنصاتهم لمقالته فإنها مقالتهم، ثم كرَّ على المقالة من طريق خفي ينبئ عن سداد رأيه ونفاذ بصيرته، فلما أفل هذا الكوكب تحت الأفق فتفقَّده فلم يجده، وبحث عنه فلم يره قال ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ فكيف يكون الإله آفلاً غافلاً عن خلقه، فذاتية الأفول دليل على ذاتية الحاجة والحدوث، والفطرة الإنسانية تتطلب إلهاً لا يأفل ولا يغفل، بل هو إله لا أزلي أبدي لا أوّل له ولا آخر وهو الأول والآخر.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ وهو أسطع نوراً من ذلك الكوكب ومن كلِّ كواكب السماء، وأكبر منه حجماً ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ تدرجاً في تحريه إلى الحق المُرام وهو الكمال المطلق ومطلق الكمال، استدراجاً لهم واستهواء لقلوبهم تمشياً بأقدام الفطرة في تحريها ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ هذا الأنور والأكبر كما الأصغر ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ عما فطرهم عليه من معرفة اللّامحدود، تبياناً أن الله هو مصدر الهدى ومانح التوفيق لها عن الردى ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ يتألق نورها وينبعث منها شعاعها وقد كست الأفق

جمالاً وملأت الأرض زينة ودلالاً ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ فلأنه أكبر قد لا يأفل والفطرة متحرية عن الكبير الذي لا يصغر ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾ كسائر الآفلين حكم على جماعة عبدة الكواكب وأمثالها من الآفلين - وكلّ الكائنات آفلة مهما اختلفت المظاهر - حكم عليهم بالإشراك وبراءته عنه ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾ بكلّ وجوهه الفطرية والعقلية والقلبية «للذي» فطرهن و﴿فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ﴾ معرضاً عما سواه ومسلماً إياه ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

أجل و﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ - ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ثم ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ ومن قبل ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي﴾ وفي أخرى ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[1] هي عساكر من البراهين على أنه لم يكن يعتقد ما كان يكرره: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ فإنما كان مجاراةً في حجاجه بالتي هي أحسن حتى يجرهم إلى ما هو عليه.

ذلك، وليست الربوبية المنكورة لغير الله ربوبية الخالقية حيث المشركون لا يعتقدون في خالقية ما يشركونه بالله، فإنما يعتقدونه في ربوبيات تتفرع عن ربوبية الله، أم إن الله خالق والربوبية مخولة إلى بعض خلقه.

وإبراهيم عليه السلام في هذه الحجة يستأصل الربوبية بأصلها وفصلها عما سوى الله، أن الرب الآفل كيف يكون رباً ودوام المربوبين لزامه دوام الربوبية وهو لا يناسب أفول الرب.

ذلك وكما يلمح له ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ لا «رب العالمين» حجاجاً مع هؤلاء الذين يربببون هذه الأشياء في حقول خاصة من الربوبيات، دون الربوبية المحلقة على كلّ شيء فإنهم لا يعتقدونها في غير الله مهما فصلوا عنه الربوبية، فإن لهم شركاء متشاكسين في مختلف الربوبيات.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٥١.

وفي رجعة أخرى إلى هذه الآيات نقول: أصل الحجة في إبطال ربوبية هذه الأجرام هو أفولها وصغرها بمعنى محدوديتها، والآفل غير محبوب للفطرة كإله مهما كان محبوباً في غير حقل الربوبية قضيةَ الضرورة المعيشية.

فذاتية الأفول ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً، المحلقة على كافة الكائنات هي التي تسلب عنها الربوبية، وتخلع عنها رداء الربانية: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾.

وأنها تجمع في نفسها خط المواصلة مع المشركين وأضرابهم وخط المفاصلة، مواصلة حيث خطت في كتاب الفطرة والعقلية السليمة والحس السليم والعلم السليم، ومفاصلة حيث تخلف المتخلفون عن ذلك الخط المواصل في حاضر العقيدة والعمل، فـ ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ نبهة لهم ككلّ تعرِّفهم خطأهم فيما هم عليه من الإشراك بالله.

يقول في الخطوة الأولى من حجاجه ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ والكوكب الآفل نموذج منهم، وجمع العاقل هنا ليجمع الآلهة العاقلة إلى غير العاقلة فتضم كلّ ما سوى الله ومَن سوى الله.

وفي الخطوة الثانية ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى﴾ فالهداية التامة هي حصيلة الاهتداء بالفطرة وسائر الآيات الآفاقية والأنفسية، ومدّ الهدى الربانية، فكما الضال عن هدي الفطرة في ضلال، كذلك المهتدي بها غير المؤيد بهدى الله، فهنا يقول إبراهيم عليه السلام حاكياً عن كتاب الفطرة، إنني أتحرى عن ربي جاداً كادّاً دون فتور فليهدني ربي بما اهتديت فـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾(١).

وفي الخطوة الثالثة زيادة ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ والفطرة ناحية في حبها منحى الأكبر فالأكبر، وهي في عمق حبها في حقل الربوبية تحب الكبير المتعالي

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

عن كلّ أفول، فلما لم يجد في الشمس بغيته من الحب الفطري للكمال اللّامحدود، وهي أعظم شارق في المنظر، فهناك البراءة التامة عن كلّ شارق وغارب، وكلّ متحرك ومتغير محكوم بعوامل، مسيرة تحت رحمة حوامل، فـ ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

فالتصرم زمانياً أفول، والتغير أفول، والحركة أفول والتركُّب أفول، فالكائنات كلها آفلة في مثلث كيانها، قبل تكوينها وبعد زوالها وهي حال كونها أفلة عن حق الوجود والوجود الحق إذ لا تملك لأنفسها شيئاً.

وفطرت الله التي فطر الناس عليها تتحرى عن الكمال المطلق ومطلق الكمال الذي ليس له حدّ ولا زوال ولا أي أفول.

وذاتية الأفول في الكائنات تحت رحمة مربعة الحالات زماناً وحركة وتغيراً وتركباً، هي برهان قاطع لا مرد له لفقرها عن بكرتها وأسرها تحت طائل القدرة الخارجة عنها بأسرها ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠﴾[(١)].

فحين نجد واقعاً من هذه الأربعة وإمكانية منها في كائن فهو - إذاً - محكوم بالإمكان والحدوث وكلّ أفول هو قضية الحدوث.

وليس ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ محصورة في حصار العقلية العامية، بل هي تحلِّق على كافة العقول ساذجة وناضجة، كما هو قضية الواجهة العامة للدعوات الرسالية، حيث تواجه كلّ العقول في كلّ الحقول.

وأحسن كلام وأجمله ما يشتمل على الحصص الثلاث، فحصة الخواص هنا عناية الإمكان من الأفول، وحصة الأوساط عناية مطلق الحركة الدالة على الإمكان والحدوث، وحصة العوام هو - فقط - الأفول الغروب.

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

ولا يرد على عامة «الأفول» أن الله الذي يُستدل لكونه وتوحيده بأفول الكائنات هو أيضاً آفل: «غائب» لا يرجى حضوره، حيث البون بيّن في هذا البين، فآفل الخلق هو ذاتي الأفول حتى عن نفسه، وهو متحول في أفوله، وليس أفوله إلّا من ذاته.

ولكن الله سبحانه ليس آفلاً بأيٍّ من هذه وسواها من أبعاد الأفول، فهو ظاهر لذاته وظاهر لخلقه بآياته، وما غيابه عن الخلق في كنهه إلّا لقصورهم دونه، فغيب الذات له سبحانه - خلافَ أفول غيره - دليل ألوهيته، وظهور ذوات الممكنات كأفولها هما دليل مألوهيتها.

فالأفول بعد الظهور كما الظهور عد الأفول هما دليل الحدوث قضية الحركة التي هي أبرز ملامح الحدوث، وأما الغائب في ذاته الظاهر بآياته فليس آفلاً بل هو الظاهر الباطن والباطن الظاهر «يا من هو اختفى لفرط نوره، الظاهر الباطن في ظهوره».

ذلك إضافة إلى محدوديتها الحاكمة كبرهان ثان على أفولها، ولا ينبئك مثل خبير.

وهذه الحجة الإبراهيمية تستأصل الربوبية أصلية وفرعية عن كافة الكائنات المخلوقة، فلا تحويل لشأن من شؤون الربوبية إليها ولا تخويل، ولا لعباد الله المخلصين إذ لا ولاية لهم تكوينية ولا تشريعية، بل هي - فقط - ولاية شرعية بإذن الله، فلا تأثير لهم في الكون إلّا بأمر الله ومشيئته.

وهذه من أنجح الحوار مع الناكرين أن يتبنى ما يعتقدونه حجر الأساس في الحوار ثم يقضى عليه بما ينقضه، ومن ثم حوار يتبنى ما يعتقده الطرفان، ثم حوار يتبنى فقط ما تعتقده أنت المحاور، فالثالثة ساقطة على أية حال، والأولى ناجحة على أية حال، والوسطى عوان بينهما.

ذلك لأنه ليس نجاح الحوار - فقط - في قوتها، بل وقبلها في

الحصول على جو الاستماع لها والإصغاء إليها، فالخطوة الأولى في ناجح الحوار محاولة المحاور لكامل إصغاء محاورة لقوله، ثم المحاولة في إتقان الحجة وإيضاح المحجة.

وهنا نسمع إبراهيم الخليل يبدأ بما يقوله خصمه ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ ثم ينقضه بنقصه وأفوله الذي لا يناسب ربوبيته، وكما حاج عبدة الأصنام الأرضية أن كسرها وجعل الفأس على كبيرها خلقاً لجو التساؤل بناءً على معتقدهم في ألوهيتها حيث أجاب عن ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَآ...﴾[1]؟ بـ ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[2].

وكما تماشى مع قولة نمرود: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ انتقالاً إلى حجة أظهر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ...﴾[3] دون أن يصر على الحجة الأولى ببيان أوضح إذ لم يجد في نمرود بحاشيته تلك الذكاء اللائقة لتفهم الحجة الأولى، حيث القصد من الحجاج إفهام الخصم فإفحامه كما يفهم بلا لجاج.

فالحجة مهما كانت بالغة، يجب أن يحتج بها بلغة يفهمها المحاج له، فلكلّ مقال مجال كما لكلّ مجال مقال، رعاية لكمال القول تجاوباً مع كمال المقول له.

وليست هذه الحجج حججاً عامية تقنع - فقط - العوام، بل هي حجج صارمة ناتجة من إراءة الملكوت، فمن الملكوت قضاء الفطرة السليمة ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ في حقل الربوبية، و﴿لَآ أُحِبُّ﴾ هذه لا خلاف فيه بين المحبين ولا تخلف عنه، فهو أقوى حجة بين الحجج، فحين تقل الحجج أو تكلّ يأتي دور حجة الفطرة التي لا نكير لها.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٥٩.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٦٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

لذلك يعتبر القرآن ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[١] إنها ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[٢] التي لا تفلت عنها مهما تلفت عنها كثير، فهي أقوى من كافة الحجج المنطقية والعقلية والعلمية والحسية أماهية من حجة.

ولا حجة لأية حجة إلّا ما تتبنى حكم الفطرة الكائنة عند الكلّ، والمقبولة لدى الكلّ، ولأن شرعة الله لا تختص بحقل الفلاسفة والعلماء العقليين والحسيين، فلتكن محتجة بأقوى الحجج وأعمها وأتمها وهي حجة الفطرة، مهما يزودها بسائر الحجج رعاية لمختلف القطاعات من المكلفين.

وإنما احتج بالأفول دون البزوغ وكلاهما مشتركان في ذاتية الحركة المستلزمة للحدوث؟ لأن دلالة الأفول أظهر ونصيب العوام من حجته أبهر، ثم و﴿لَآ أُحِبُّ﴾ لا يتعلق صُراحاً بالبزوغ، إنما هو الأفول فـ ﴿لَآ أُحِبُّ﴾ بصورة طليقة تجتث كلّ حب ليست إلّا لآفل أو ميت، دون بازغ أوحي، فمهما لم يتعلق بهما الحب المطلق، فقد يشملهما مطلق الحب وهو مدار الحياة المعيشية، كما أن الحب المطلق مدار الحياة الإيمانية، فعلى مدار حب الله وضوءه يحب المؤمن وسائل عيشته الإيمانية.

ثم الأفول - على أية حال - انتقال من قوة إلى ضعف، وعبدة الأجرام السماوية الذين كان يحتج عليهم إبراهيم، هم كانوا يرون قوة لها لنورها وبهورها وعظيم تأثيرها، فحين تأفل هذه الظاهرة الزاهرة فقد فلتت ألوهيتها المزعومة لديكم.

فإذا احتج بالبزوغ كانت حجة عليه من ناحية مهما كانت له من أخرى!.

ذلك، وأخيراً ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ...﴾ وهو وجه الفطرة كأصل، ثم

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

الوجوه التي تتبناه كوجه العقل والصدر واللّب والقلب والفؤاد، نفسياً، ووجوه الحس بدنياً وكما أمرنا ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ . . .﴾(١).

ولماذا ﴿لِلَّذِى﴾ دون «إلى الذي» كيلا تلمح «إلى» إلى غاية مكانية أماهية من غايات محدَّدة محدودة، فكما ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ لا «إلى الدين» كذلك ﴿لِلَّذِى فَطَرَ. . .﴾ وجه لزام للفاطر، تلازم المنفطر مع الفاطر.

فهناك توجيه لوجه الانفطار للفاطر، ووجه العبودية للمعبود، ووجه التربية للرب، فلا يبقى وجه للعبد إلّا وهو واجب التوجيه لله الواحد القهار.

وحصيلة البحث هنا أن مراتب الإيقان والإيمان بالله هي قضية مراتب رؤية الملكوت، فللرؤية الفطرية نصيبها من إيقان فإيمان، ثم للرؤية العقلية المستوحاة منها، ثم المزودة بالرؤية الحسية والعلمية، ثم برؤية الوحي العام، ومن ثم بإرادة خاصة ربانية للمخلَصين من عباده كمحمد ﷺ وإبراهيم وأضرابهما، لكلّ من هذه قضاياها من إيقان وإيمان.

فـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ على طول خط حياته الرسالية بما قبلها ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ القمة بإراءة الملكوت الربانية الخاصة الحائثة على المعرفة التوحيدية القمة السامقة.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

«و» بعد ذلك الحجاج القاطع القاصع ما ازدادوا إلّا اللجاج فالاعوجاج إذ ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ في الله بعدما جاءهم الهدى وتبين لهم الحق، ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾(٢).

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.

﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ أن أشرك به كما تشركون، وتخوفونني عما تشركون كما تخافون ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ ربي فأنى تؤفكون، أإفكاً آلهة دون الله تريدون؟.

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ﴾: إشراككم ولا ما تشركونه بالله، لا أخاف.. إلّا أن يشاء ربي شيئاً.. أخافه، فمن خاف الله أخاف الله منه كلّ شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كلّ شيء.

وهنا يخوفونه من غضب الآلهة فإنه عندهم السبب الأول لعبادتهم إياها، مهما كان لهم منها - كذلك - رجاء الرحمة.

ذلك، وكما الإنذار في الحقول الرسالية يحتل الموقع الأول الذي يعم من يؤمن إلى من لا يؤمن، حيث إن تأثير التبشير أقل بكثير من تأثير الإنذار.

وهنا الإجابة عن حجتهم تنحل إلى أمور:

١ - ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ فحصلت لي حجة الحق فيمن أعبده، فلا أخاف غيره.

٢ - ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ﴾ فهو الذي ينجيني عن المخاوف بسعة علمه وقدرته ورحمته للمؤمنين به.

٣ - ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ...﴾ فحتى إذا صحَّ الخوف عن الآلهة فكيف أترك الخوف عن إله الآلهة فقط دونها؟!.

هنا ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ هي أقوى الحجج، فإن من شؤون الربوبية هي هداية المربوبين ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ ربي بحجته، وليست عندكم حجة الهدى من آلهتكم، فنفس الهدى هنا والاستغناء بها عما سوى الله، هما حجتان مطويتان في ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ إضافة إلى أن الحاصل على بغيته بحجته ليس

ليتحرى بعدُ عن حق هو عارفه، فهذه حجج ثلاث مطوية في ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾، وقد تفرعت عليها الحجتان الأخريان فهي - إذاً - خمس حجج.

وهنا ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ﴾ من الخوف عما تشركون بالله، حجة سادسة، أن لو أراد الله أن أخاف الآلهة - ولن يرد - فذلك - إذاً - خوف بإرادته دون إرادتها، فيرجع حجة أخرى على ربوبيته دونهم!.

﴿وَسِعَ رَبِّي﴾ الذي رباني هكذا ورب العالمين كلاً على قدره ﴿كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ﴾ فعلمه محيط بكلّ شيء فلا تخفى عليه خافية ولا تدق عنه غامضة، فكلّ الأشياء عنده وامضة، فلا يصيبني أمر كما تزعمون، فربي هو الواسع علماً فهو يذود عني.

ف ﴿وَسِعَ رَبِّي﴾ تختلف عن سائر السعة، فإنها من سعة المحدود على المحدود، حيث تطلق على الأجسام وأشباهها التي فيها الضيق والاتساع والحدود والأقطار، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فإنما هي سعة ربوبية علمية كما هنا، وسعة في كافة مراحل القيومية كما في غيرها.

﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١﴾:

فهذه ضابطة عالمة عاقلة في كلّ الأعراف أن اتباع الحق لا يُخيف، واتباع الباطل مخيف يحيف، وأنتم الأغبياء تعاكسونها حيث ترجون أن أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله، وقد نزل سلطاناً على توحيده ولم ينزل أي سلطان على ما تشركون.

﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ﴾ واقعياً وفي أي من الحقول ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أن الحق أولى من الباطل اتباعاً وتخوفاً من تركه.

وهكذا تنجلي الفطرة وتتجلى في ضفة الإيمان ولا سيما المتأيدة بوحي الله بإراءتها ملكوت السماوات والأرض.

وهكذا تنحرف فتنجرف في ضفة الكفر المعاند، ومن الفاصل بينهما التحري عن الحق في الأولى والتجري على الحق في الثانية.

إن الفطرة حين تنحرف وتضل ثم تتمادى في ظلالها وتتسع الزاوية الهاوية وتبعد نقطة الانطلاق على ممشاها عن نقطة الابتداء ومحطة الانتهاء، إذاً يصعب عليها أن تتوب وتثوب إلى الحق المرام الذي هو قضيتها كما فطر الله.

هناك وجدان لله بكلّ الوجود والوجود كله، فكيف يخاف غير الله من وجد الله؟ وكيف لا يخاف من لم يجد الله؟ ماذا فقد من وجد الله وماذا وجد من فقد الله؟ «أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك.. عميت عين لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً»[1].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

وكما الإيمان درجات، كذلك الأمن الناتج عنه درجات أعلاها لـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسالاته ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾: عقيدي كإشراك بالله، فـ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[2] ولا عملي كأي عصيان، فإن ﴿بِظُلْمٍ﴾ تحلّق على كافة أنواع الظلم التي تُناحر عقيدة الإيمان أو عمل الإيمان.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الأكارم ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ كله ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ كامل الاهتداء.

وذلك الإيمان الآمن الطليق هو الحسنة الطليقة: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ وهم المتقون: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ

(١) من دعاء الإمام الحسين عليه السلام في عرفات يوم عرفة.
(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾(١): ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ...﴾(٢) ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾(٣).

أجل إن ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ﴾(٤) يؤمن هؤلاء المؤمنين المتقين عن كلّ بأس وبؤس يوم الدنيا ويوم الدين، ولأن الإيمان والتقوى وترك الظلم درجات، فكذلك الأمن الناتج عنه درجات، ولأن قضية الإيمان الآمِن تطبيق قضاياه ككلّ، في حق التوحيد والنبوة والمعاد وفروعها، وفي حق كافة المسؤوليات الإيمانية فردية وجماعية، فقد تشمل ﴿بِظُلۡمٍ﴾ كلّ انتقاص من أيٍّ من هذه البنود الإيمانية.

خلطاً «بشك»(٥) ككلّ، أو خلطاً لولاية الإيمان رسالة وخلافة(٦) أو خلطاً لعمل صالح بطالح، أو خلطاً لنية صالحة بغيرها، أم أي خلط خارج عن قضية الإيمان.

فـ «ليس كل من وقع عليه اسم الإيمان كان حقيقاً بالنجاة مما هلك به الغواة، ولو كان كذلك لنجت اليهود مع اعترافها بالتوحيد وإقرارها بالله ونجى سائر المقربين بالوحدانية من إبليس فمن دونه في الكفر...»(٧).

---

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٤٥، ٤٦.
(٢) سورة الدخان، الآية: ٥١
(٣) سورة الدخان، الآية: ٥٥.
(٤) سورة الحشر، الآية: ٢٣.
(٥) نور الثقلين ١: ٧٤٠ في أصول الكافي بإسناده إلى أبي بصير قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية ﴿... بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] قال: بشك.
(٦) فيه عن المصدر عنه عليه السلام في ﴿بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] قال: بما جاء به محمد من الولاية ولم يخلطوها بولاية فلان وفلان.
(٧) المصدر في الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه «وأما قوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [طه: ١١٢] وقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] فإن ذلك كله لا يغني إلّا مع الاهتداء وليس.. وقد بيّن الله ذلك بقوله: =

وتفسير ﴿بِظُلْمٍ﴾[(١)] أنه «بشرك» تعبير عن أنحس الظلم وأتعسه، أم يؤوّل بأي شرك جلي أو خفي، عقيدي أو عملي، وأما عبادة الأوثان فلا يخلط مع إيمان أياً كان، فإنما هو دون عبادة الأوثان: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[(٢)] والعبارة الصالحة لغاية الشرك هي الشرك نفسه، أم ولأقلٍّ تعبير «بالظلم» دون ﴿بِظُلْمٍ﴾ الشاملة لكلّ ظلم.

ذلك، أو أنه يعني من ﴿الْأَمْنُ﴾ مطلق الأمن، لا الأمن المطلق وقد تتحمله الآية تأويلاً، وقد يروى عن النبي ﷺ «إنما هو الشرك» إنه قال: «من ابتلي فصبر وأعطي فشكر وظُلِم فغفر وظَلم فاستغفر ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[(٣)] [(٤)].

إذاً فحين يُعنى من ﴿الْأَمْنُ﴾ الأمن المطلق فـ ﴿بِظُلْمٍ﴾ تعم كلّ ظلم، وهذا هو ظاهر التنزيل، وأمّا حين يعنى منه مطلق الأمن فـ ﴿بِظُلْمٍ﴾ تعني أظلم الظلم وهذا من باطن التأويل.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)﴾:

= ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] وبقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

(١) الدر المنثور عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على الناس فقالوا يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: أنه ليس الذي تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؟ إنما هو الشرك.

أقول: الشرك المرسوم وهو عبادة الأوثان خارج هنا عن «ظلم» مهما كان أظلم الظلم، حيث الإيمان وأن في أدنى درجاته لا يجتمع مع هذا الشرك.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٤) المصدر في الشعب عن سنجرة قال: قال رسول الله ﷺ: ... ثم سكت فقيل له يا رسول الله ﷺ ما له؟ قال: ﴿أُولَٰئِكَ...﴾ [الأنعام: ٨٢].

و﴿تِلْكَ﴾ البعيدة المدى، العميقة الصدى، الباهرة الهدى، من حجج التوحيد ﴿حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ على ضوء إراءته ملكوت السماوات والأرض، وتلك درجة لا ينالها إلّا من أخلصه الله مهما كانت درجات حيث ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾: فمن الدرجات التي أوتيها إبراهيم الخليل من ربه الجليل النبوءة ثم الرسالة ثم النبوّةَ ثم الإمامة، وقد أوتي معها رؤية ملكوت السماوات والأرض حجة لتوحيد الله، وملكوت إحياء الأموات اطمئناناً لقلبه بهذه المعرفة القمة وهي عين اليقين بحقيقة الإحياء، وإخماداً لنار نمرود، درجات سبع في أصولها وفيها مزيدٌ بتقاسيمها، ثم في الأخرى درجات اخرى هي أحرى بكونها درجات.

وقد تلمح جميعه ﴿حُجَّتُنَآ﴾ لجامعية الحجة الربانية التي أوتيها إبراهيم لما تحتاج إلى حجة من محجَّة.

١ - ولأن الرب لا يؤتي حجة لمربوبه النبي ذي الدرجات، فيها تشكك لتوحيده.

٢ - ومن ثم هي ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

٣ - ثم ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(١) قبل إلقاء الحجة.

٤ - و﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى﴾(٢) ضمن إلقاءها.

٥ - و﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾(٣) كحالة دائبة لإبراهيم.

٦ - ثم ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٧٨.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٧٩.

٧ - ومن قبل ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾[١].

هذه العساكر السبعة مجندةٌ لأن «هذا ربي» منه في حجاجه لم تكن إلّا مجاراةً على الإنكار والاستخبار، دون تصديق وإقرار ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾: ﴿حَكِيمٌ﴾ في حجته لا يتخللها شك وريبة، ولا تُغلب بأية حجة ﴿عَلِيمٌ﴾ بإلقائها في مواتية ظروفها.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

هنا يُذكر ثمانية عشر من الأنبياء[٢] من ذرية إبراهيم إلّا نوح، من أجداده، وهو نفسه حجر الأساس في ذلك التعريف العريف، وترك ثمانية، مِنهم مَن هم مِن جدوده وهم آدم وإدريس، أم سواهم كهود وصالح، ومنهم من هو إمام الأئمة في سلسلة الرسالات وهو محمد ﷺ.

وترى كيف لم يذكر إسماعيل كأول وَهْبة لإبراهيم وهو بِكر وَلَديه، وقد تأخر في الشطر الثالث من هذه الشطرات الثلاث الرسالية، وهو جد محمد خاتم النبيين ﷺ؟.

لقد ذكر إسماعيل اثني عشر مرة في القرآن، في ثلاث منها يذكر هو - فقط - مع إبراهيم دون إسحاق[٣] وفي خمس يتقدم على إسحاق مع

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٥١، ٥٢.
(٢) الدر المنثور ٣: ٢٨ عن قتادة وهم الأنبياء الذين قصَّ الله على نبيه الثمانية عشر الذين قال الله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].
(٣) كما في ٣: ١٢٥ و١٢٧ و١٣٣.

إبراهيم[١] وفي أربع يذكر دون إبراهيم وإسحاق عليه السلام[٢] وهنا مرة يتيمه يتقدم - بفصل أنبياء على إسماعيل - إذاً فليس في تأخير ذكره تأخيره عن متحده الرسولي، فمن الملاحَظ أن ترتيب المقامات الرسالية هنا غير وارد كما تأخر نوح أوّل أولي العزم عن إسحاق ويعقوب، وتأخر موسى وعيسى عمن تأخرا عنهم وهما أفضل منهم[٣].

فهنا الترتيب غير مراعى لا زمناً ولا رتبة، فإنما القصد عرض موكب رسالي بمختلف الدرجات والأزمنة، هم كلهم إلّا نوحٌ من الوهبة الربانية لإبراهيم عليه السلام، اللهم إلّا وهبة في سلسلة الجدود فإن «وهبنا» لا تختص بوهبة الذرية.

وقد تقدم إسحاق فيمن تقدم هنا كمرة يتيمة على إسماعيل حيث القصد ذكر الأنبياء الإسرائيليين من ولد إسحاق، فليتأخر إسماعيل إلى أخريات ذكرى النبيين هنا، ولأنه - فقط - جد آخر النبيين، كما ولم يذكر هنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه المحور الأساس في هذه الذكريات، فإنهم له تَقْدِمات، ثم ويخاطب ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[٤].

فذلك الترتيب - على غير ترتيب الحدّ الرسولي وزمنه - ترتيب قاصد لا يعني رتبة زمنية أم رسالية، فمن المقصود هنا - فيما قُصد - عرضُ موكب الأنبياء الإسرائيليين بمعرض الكتابيين حتى يأنسوا إلى ذكراهم، وعلّ في تقديم داود وسليمان ويوسف تذكيرهم بسابغ نعمة المُلك إلى نعمة

---

(١) كما في ٢: ١٣٦ و١٤٠ و٣: ٨٤ و٤: ١٦٣ و١٤: ٣٩.

(٢) في ١٩: ٥٤ و٢١: ٨٥ و٣٨: ٤٨ وهنا إسماعيل واليسع.

(٣) الدر المنثور ٣: ٢٨ عن قتادة وهم الأنبياء الذين قص الله على نبيه الثمانية عشر الذين قال الله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

الرسالة في الأنبياء الإسرائيليين، ومن ثم يذكر ﴿مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ كأصل الرسالة الإسرائيلية، ومن ثم ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ حسب الترتيب الرسالي بما كان الأوّلان تقدمة للأخير، ثم إسماعيل بن إبراهيم يتأخر حتى لا تحصل لهم حزازة وابتعاد، ويذكر من بعد اليسع ويونس ولوط وقد كان لوط نبياً مع إبراهيم وإسماعيل ابنه ثم اليسع ويونس بعدهما.

ذلك، وقد تنحل بهذه الآية بعض المسائل التي هي من معارك الآراء بين النافين والمثبتين أن ابن البنت يعتبر من ذرية والد البنت أم لا؟ فقد تقوّلت جماعة أنه لا، وهي قولة ناشئة من الجاهلية التي ما كانت تعتبر البنت من الذرية فضلاً عن ابنها، واستند لذلك إلى الشعر الجاهلي(١) والرواية الجاهلية القائلة أن أبناء البنات من الأدعياء فـ ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾(٢).

(١) هو بنونا بنو أبناءنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥.

(٣) وسائل الشيعة ٦ : ١٨٨ مرسل الكليني عن العبد الصالح في حديث طويل قال: ومن كانت أمه من بني هاشم وأبوه من سائر قريش فإن الصدقات تحل له وليس له من الخمس شيء فإن الله يقول: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ...﴾ [الأحزاب: ٥] أقول: ونحن نقول ادعوا هؤلاء المختلقين لمثل هذه الرواية لآبائهم، فكيف يعتبر أبناء البنات من الأدعياء؟

فهل الحسنان عليهما السلام من الأدعياء؟! فـ ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ...﴾ [الأحزاب: ٤] يقول صاحب الجواهر في ١٦ : ٩١ عن هذه المرسلة في كتب المحمدين الثلاثة يكفي اتفاقهم على روايته جبراً لإرساله فضلاً عن شهادة النظر في متنه والتأمل فيه وفيما اشتمل عليه من الأحكام المخالفة لمن جعل الله الرشد في خلافهم وعن عمل كافة الأصحاب عداه به - المرتضى - وإن ذكر في بعض الكتب مستنداً غيره الذين فيهم من لا يعمل بالقطعيات.

أقول: والموجود في أخبار الخمس هو الآل والذرية والعترة وذوي القرابة وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويقول في الجواهر بعد النقض والإبرام في استحقاق الخمس للمنتسبين بالأمهات إلى هاشم أو إلى الرسول «ومن هنا كان الاحتياط في ترك أخذه الخمس والزكاة وإن كان الأقوى في النظر ما عرفت - يعني عدم استحقاق الخمس لهذه المرسلة الغريبة - ثم يشنع على =

ولا ينقضي العجاب من هؤلاء الذين يستندون إلى مثل هذه الرواية المخالفة لنص القرآن والموافقة لسنة جاهلية، ولا سيما بشبه ضرورة إجماعية!.

هنا يعد عيسى عليه السلام في عداد ذرية إبراهيم وليس إلّا ابناً لحفيدته مريم عليها السلام، وهكذا يحتج أئمتنا عليهم السلام أنهم من ذرية محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكيف يكون عيسى ابن مريم عليهما السلام - على بُعده البعيد عن إبراهيم عليه السلام - من ذرية إبراهيم، وليس الأئمة منذ الحسنين عليهما السلام على قربهم إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم من ذريته[1]؟.

لقد ذكر مَن ذكر هنا وأشير إلى غيرهم بمثلث: ﴿وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾[2] بعد، واختص لكلّ شطرٍ من الشطرات الثلاث المذكورة مواصفة

= صاحب الحدائق بقوله: لكن المحدث المزبور قد بالغ في اختيار ذلك لاختلال طريقته مشدداً للإنكار على الأصحاب بتسجيع شنيع وخطاب فظيع حتى أنه تجاوز ما يجب عليه من الآداب مع حفظة السنة والكتاب.

أقول: وطبيعة الحال في نصاب الخمس يقتضي استيعابه لكلّ المتسبين إلى الرسول أو الهاشم باب أوام وبذلك يحتل أصحاب الخمس القسم العظيم، وإذا اختص بالمتسبين بالآباء فقد نسأل كيف يختص نصف الخمس من كلّ الإفادات بعشر الفقراء ثم الزكاة التي معدلها ٦/ ١٠٠ من تسعة من الأموال تقسم بين ٩٠/ ١٠٠ من الفقراء.

(١) في الدر المنثور ٣: ٢٨ - أخرج ابن أبي حاتم عن أبي حرب بن أبي الأسود قال أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم تجده في كتاب الله وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده، قال: ألست تقرأ سورة الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ . . . وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٤، ٨٥] قال: بلى، قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب؟ قال: صدقت.

وفي الدر المنثور ١: ٧٤٣ في عيون الأخبار في جواب موسى بن جعفر عليهما السلام عن سند آل هارون الرشيد عن معنى الذرية قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ . . . وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٤، ٨٥] من أبو عيسى يا أمير المؤمنين؟ قال: ليس لعيسى أب، فقلت: إنما ألحق بذراري الأنبياء عليهم السلام من طريق مريم عليها السلام وكذلك ألحقنا بذراري النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قبل أمنا فاطمة سلام الله عليها.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٧.

خاصة، فالأولى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وللثانية ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وللثالثة ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

هكذا يظهر في بادئ الأمر، ولكن الثلاث مشتركة في هذه الثلاثة، ف ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ دون «نجزيهم» يعمم الجزاء لكلّ النبيين، ثم ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تشمل معهم مَن قبلهم وكلاً من الصالحين المذكورين بعد وغير المذكورين، ثم ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يشمل كلّ الشطرات الثلاث ومَن سواهم من المفضلين.

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧)﴾:

وبعضا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، أيضاً هم من الموهوبين لإبراهيم عليه السلام اللّهم إلّا نوحاً ومن آبائه آدم وشيث وإدريس، ومن ذرياته الأنبياء الذين كانوا قبل إبراهيم، اللهمّ إلّا في سعة نطاق هذه الوهبة لتشمل الآباء إلى الذرية.

فلأن الأكثرية الساحقة من النبيين هم من ذرية إبراهيم فقد يصح ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ﴾ بل وكما تصح هذه الوهبة له في غير ذريته فإنهم من شدّات سلسلة النبوة الربانية في تاريخ الرسالات ككلٍّ، فإنها وهبة لكلّ منهم مساندة ومساعدة في هذه الدعوة الرسالية، ولا سيما إبراهيم عليه السلام لأنه عمود في موكب الرسالات إلّا خاتم المرسلين.

هنا ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تعم كافة الرسل عن بكرتهم، فإنها قضية كلّ رسالة ربانية.

وإنّما نكّر ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ دون تعريف، خلاف ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾(١) لأنه مشترَكٌ فيه بين كافة المهديين الرساليين، وهم درجات في ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

وأما ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فهنا «الاجتباء» تقدمة للهدي إلى صراط مستقيم، حيث الجباية هي الجمع الجيد الجادُّ، ومنه جباية الخراج، و﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[1].

وهنا مثلث من الاجتباء تعنيه ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾.

١ - اجتباء كلٍّ في نفسه ونفسياته أن جمع الله متفرقاته ومتشتتاته، إخلاصاً لفطرته وعقليته وحسِّه، إخلاصاً شخصياً.

٢ - ثم اجتباءه من بين نظراءه تفضيلاً فضيلاً.

٣ - ثم اجتباء الكلّ بين العالمين في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، موكب رسالي مجتبى بين العالمين من الجنة والناس ومَن سواهم من المكلفين أجمعين.

ومن ثم ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فلكلٍّ هدىً على حدِّه، وللكلّ هدىً رسالية هي قضية رسالته في أبعادها.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ التوحيد الحق دون أية مماراة ومجاراة أو أنصاف حلول بينه وبين الشرك ﴿ذَٰلِكَ﴾ فقط ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ﴾ الله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ الهدى فيشاء له الهدى[2] ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ على فرض الحال ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٧.

(٢) عن تفسير العياشي عن العباس بن هلال عن الرضا عليه السلام أن رجلاً أتى عبد الله بن الحسن فسأله عن الحج؟ فقال له: هذا جعفر بن محمد عليهما السلام قد نصب نفسه لهذا فاسأله فأقبل الرجل إلى جعفر عليه السلام فسأله فقال له: قد رأيتك واقفاً على باب عبد الله بن الحسن فما قال لك؟ قال: سألته فأمرني أن آتيك وقال: هذا جعفر بن محمد عليهما السلام قد نصب نفسه لهذا فقال جعفر عليه السلام نعم، أنا من الذين قال الله في كتابه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] سل عما شئت فسأله الرجل فأنبأه عن جميع مسائله.

حال توحيدهم، إذ لا فارق في إحباط الإشراك بين سابق سابغ سامق وسابق خانق ما حق، ولكن:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩)﴾:

أترى «هم» في ﴿آتَيْنَاهُمُ﴾ هم المذكورون هنا بأسمائهم؟ ومن غير المذكور منهم من هم أهم منهم محتداً كالرسول الأعظم محمد ﷺ!.

إنهم «هم» و﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ ومحمد ﷺ هو رأس الزاوية، فهم الموكب الرسالي العالي، الجامع بين مثلث ﴿الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ فليس كلّ رسول نبياً، ولا كلّ نبي له كتاب، فهم - إذاً - الرعيل الأعلى من الرسل الجامعين لهذه الميزات الثلاث: كتاب شرعة مهما كانت فرعية كسائر كتابات السماء غير ما لأولي العزم منهم، والحكم روحياً وزمنياً مهما صُدَّ الكثير منهم عن مظاهر الحكم الزمني، والنبوةِ وهي هنا الرفعة بين المرسلين.

ولقد جمع هذا المثلث في حقل النبوة الإسرائيلية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾(١) واختص من بينهم المسيح بقول فصل: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ...﴾(٢).

وأخص الخواص في هذا الحقل الثلاثي هو الرسول الأعظم محمد ﷺ وكما تدل عليه آيات كآية الميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧٩.

وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[١].

هؤلاء الرهط الكرام هم حقيقة حقة قديمة امتدت شجرتها، وموكب موصول تماسكت حلقاته، ودعوة واحدة حملها نبي بعد نبي، رسالة واحدة وأمة واحدة مهما اختلفت صور من طقوسها العملية عبادية وسواها.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ... فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾:

﴿بِهَا﴾ هنا تعني مثلث ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفرة الأنكاد من قوم لُدٍّ ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ إيماناً بها ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ وهم غيرهم من الناس، كالأنصار المدنيين، ومنهم من أسلم من الفرس وقد مدحهم رسول الله ﷺ فيمن مدح في مختلف المجالات، ومن أقواله فيهم: «رحم الله إخواني...» ومنهم - كأفضلهم - أصحاب المهدي عجَّل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه، وسائر المؤمنين به.

فالدولة المهدوية العالمية هي الموكَّلة بصورة مطبقة مطلقة بالإيمان والتطبيق لهذه الرسالة السامية، فهي بشارة للمؤمنين بها على طول الخط ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[٢].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

وترى الرسول إلى الرسل ورأس زاوية الرسالة والنبوة والإمامة كيف يؤمَر أن يقتدي بهؤلاء النبيين الذين هم بأجمعهم أدنى منه في كلّ شيء؟.

هنا «هداهم الله» تختص المقتدى به بهدى الله، التي يحملها أنبياء الله،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ١٠٦، ١٠٧.

تبييناً أن الرسل موكب واحد في حمل هدى الله، ليس أحد منهم بِدعاً فيها اللهم إلّا في ميزات بدرجات ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾[١].

ومن هُداهم الربانية عدم سؤالهم أجراً على أعباء الرسالة، فـ ﴿قُل﴾ أنت الحامل الأخير لشرعة الله ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ اقتداءً بسنة الرسالات الإلهية مهما كان المقتدي أقوى هدى من كلّ الرسل في كلّ الرسالات، فـ ﴿إِنْ هُوَ﴾ الرسول «وإن هو» القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ وليس للذكرى أجر فإنها واجب أهله.

ذلك، وبصورة عامة «لا طريق للأكياس من المؤمنين أسلم من الاقتداء، لأنه المنهج الأوضح والمقصد الأصح قال الله تعالى لأعز خلقه محمد ﷺ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ فلو كان لدين الله مسلك أقوم من الاقتداء لندب أولياءه وأنبياءه إليه»[٢] فـ «أحسن الهدى هدى الأنبياء»[٣] لأنها هدى الله.

فلما يؤمر رسول الهدى ﷺ أن يقتدي بهدى الذين هداهم الله، فأحرى لسواه وأوجب أن يقتدي بهداه فإنها أفضل الهدى وأكملها فإنها خاتمة الهدى الرسالية من الله، ثم الذين يحملون هداه الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٢) في مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام ولا طريق..

(٣) نور الثقلين ١ : ٧٤٤ في تفسير القمي خطبة له ﷺ، وفيه عن النهج «فاقتدوا بهدي نبيكم فإنه أفضل الهدى».

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ
أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ
تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ
ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي
بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ
وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ
قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوْ
تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ
أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ
ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ
ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا
كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾:

هنا ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ في ربوبيته برحيميته المقتضية لزاماً بعث رسله، وفي الحج (٧٤) والزمر (٦٧) ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ في

توحيده وألّا شريك له في ألوهيته، وهذه الآية بما بعدها مربوطة النياط بما قبلها من آيات الحجاج على المشركين الناكرين لرسالة البشر، وأهل الكتاب الناكرين لهذه الرسالة الأخيرة، وينكر ثالث أن النبوة وحي من الله على بشر سواء أكان النازل به ملكاً أو بشراً!.

إذاً فـ ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ تحمل ثالوثاً من النكران.

فمن الناس - وهم ثالث ثلاثة - من يخيل إليهم أن الوحي ارتقاء عقلي للإنسان، دون إيحاء إلهي خاص، فالنابغ من الإنسان نابع من عقليته البارعة ما يتسمى وحياً، فما هو إلّا وحي العقل بنضوجه وارتقائه إلى مرقى الكمال الطليق لحدِّ المعرفة الطليقة حيث لا يبقى له حاجب وستار عن الحقائق.

ولكنهم غفلوا عن أن ذلك خاص بنطاق الكليات العقلية، فليس للعقل مهما نضج وعرج معارج الكمال أن يعرف جزئيات الموضوعات والأحكام الموحيات إلى الرسل، ثم الأحكام لا تتبع كلها المصالح الواقعية فإن قسماً منها ابتلائية، إضافة إلى سائر البراهين القاطعة إلى واقع الوحي الرسالي إلى الرسل.

وكما أن قدرْ الله حق قدره درجات، كذلك عدم قدره حق قدره دركات، تعم كافة التقصيرات بجنب الله عقيدياً وعملياً وفي لفظ القول.

فقدر الشيء أو الشخص هو منزلته المتميز بها عن غيره، والمنزلة الربوبية قضيتها ألا يسوى به سواه في أيٍّ من الأقدار، فليوحَّد في ألوهيته وكافة شؤون ربوبيته المقتضية إرسال رسله وابتعاث خلقه يوم الحساب لتحقيق كامل عدله بينهم.

فحق قدره ليس إلّا كما عرَّف نفسه وبين في شرعته، دون أن يوصف بقدر «فلا يوصف بقدر إلّا كان أعظم من ذلك»[1].

---

(١) نور الثقلين ١: ٧٤٤ عن أصول الكافي عن الفضيل بن يسار قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام =

إذاً فـ «إن الله عزّ وجلّ لا يقدر أحدٌ قدره»[١] في ذاته وصفاته وأفعاله، والواجبَ على عباده أن يقدروا قدره فيما عرف به نفسه وفيما فرضه أو حرمه.

فحق قدره هو حق وصفه بما حققه تعالى من أوصافه دون انتقاص منها ولا مساس من كرامته، وصفاً معرفياً ووصفاً لفظياً ووصفاً عملياً، وفي هذا المثلث يُقدر الله حق قدره أم لا يُقدر، فلا نكلف بمعرفته كما هو، ولا وصفه كما هو، بل وعبادته كما يستحقه، وذلك حق قدره بكماله وتمامه وما دونه عوان بين ﴿قَدَرُواْ﴾ و﴿مَا قَدَرُواْ﴾ ومن حق قدره فيما أنزل أن يحتل الموقع الأعلى من الدراسة فيه دون أن يجعل درساً جانبياً كما فعلته الحوزات الإسلامية، فقد مركزوا كلّ كتاب وما قدروا كتاب الله حتّى هامشياً يفكر فيه ويتدبر.

فهم ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ مسّوا من كرامة ربانيته كأنه يجهل حاجة المكلفين إلى وحيه، أو يبخل على علمه، أو يعجز على علمه وسماحته، أو يظلم على قدرته وسماحته وعلمه، والقائلون ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ التاركون له، هم أتباع لهم بل هم أضل منهم وأنكى.

هنا ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ تعم كلّ القائلين ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ثم برهان ثان يخص أهل الكتاب منهم ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ...﴾[٢] وغير بعيد عن هؤلاء الأنكاد أن يتقولوا هذه القولة تعصباً ضد الإسلام وهم المفضّلون المشركين على المسلمين بنفس العصبية:

= يقول: إن الله لا يوصف وكيف يوصف وقد قال في كتابه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٩١] فلا يوصف.. وفيه عن أبي جعفر عليه السلام مثله.

(١) المصدر عن إسحاق بن عمار قال قال أبو عبد الله عليه السلام أن الله..

(٢) المصدر عن تفسير القمي في الآية قال: لم يبلغوا من عظمة الله أن يصفوه بصفة ﴿إِذْ قَالُواْ...﴾ [الأنعام: ٩١].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾(١)، وهذه هي طبيعة الحال المتخلفة الشرسة للعصبية الجهلاء الحمقاء على حاضر الحال، قومية أو طائفية أو إقليمية أمّاهية، أنها إذا أصبحت حجة على أصحابها، ذريعة لتقبل أشباهها أنكروها عن بكرتها نكراناً للزاماتها.

فقد ينكر الكتابي كتابه إذا كان حجة لتصديق كتاب آخر، كما قد ينكر حسه أو فطرته أو عقليته أو علمه إذا كانت ذريعة لما يتنكره من جديد.

ذلك وقد يدعون - كما اليهود - أن الرسول السابق على رسولهم كان منهم في شرعتهم، ردّاً على النصارى وتثبيتاً لأصالتهم طول التاريخ الرسالي، حتى نزل التنديد الشديد بهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ... مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾(٢).

ذلك، فغير بعيد عن هؤلاء الأنكاد - في سلبياتهم وإيجابياتهم الحمقاء - أن ينكروا نزول الوحي على بشر بأسره ذريعة إلى نكران أفضل الوحي على محمد ﷺ، فهنا تبرز الحجة البالغة الإلهية تكذيباً لقولتهم: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ...﴾؟!.

ومكية الآية لا تنافي التعرُّض لأهل الكتاب إذا انتشرت دعوة الإسلام في الجزيرة وفيها أهل الكتاب، كما وكانوا يبثون دعايات ويدسون بين المشركين المختلطين بهم سفراً وحضراً، ثم الدعوة القرآنية عالمية تقتضي عامة الخطابات إنْ في مكة أو في المدينة.

(١) سورة النساء، الآية: ٥١.
(٢) سورة آل عمران، الآيات: ٧٥-٧٦.

لـقـد قـال الأولـون ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾[1] استبعاداً لرسالة البشر، وأنكر الآخرون نزول كتاب بعد موسى وعيسى عليهما السلام كأن الله عاجز عنه بعدهما فـ ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى﴾[2] وقد تركتم نوره وهداه وراء ظهوركم ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ فاضية عن الوحي وهي فائضة بالوحي ﴿قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا﴾ حيث لا يظهر فيها وحي إذ حرفتموه ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ منها، الذي لم تقدروا على إمحائه وتحريفه، ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ في ذلك الوحي النور والهدى، وسائر الوحي قبل التوراة.

وهنا الخطاب في ﴿تَجْعَلُونَهُۥ﴾ هو قضية الخطاب في ﴿قُلْ﴾ فـ ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ غياباً لا تناسب الخطاب ولا سيما العتاب الذي هو قضية الخطاب!.

فـ ﴿وَعُلِّمْتُم...﴾ برهان قاطع آخر على إنزال كتاب الوحي، فإن من العلم ما ليس يكتسب بأية وسيلة متعوَّدة وقد علِّمتموه، وهو الفاصل بينكم وبين المشركين الذين لا يعلمون ما علِّمتم، فالصيغة الحاكية عن المشركين في القرآن هي: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والحاكية عمن سواهم ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾

---

(١) سورة يس، الآية: ١٥.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٩ - أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف فخاصم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين وكان حبراً سميناً فغضب وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء فقال له أصحابه ويحك ولا على موسى؟ قال: ما أنزل الله على بشر من شيء فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ...﴾ [الأنعام: ٩١].
وفيه أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء ناس من يهود إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو محتبس فقالوا يا أبا القاسم ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى ألواحاً؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ...﴾ [النساء: ١٥٣] فجثا رجل من اليهود فقال: ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على أحد شيئاً فأنزل الله ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ...﴾ [الأنعام: ٩١].

فلا سبيل لهؤلاء إلى نكران الوحي، بحجة أولى «من أنزل». . . ولا ثانية ﴿وَعُلِّمْتُم﴾، فـ : من أنزل ومن علم؟:

﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ عنهم إذ يعتقدون ولا يلفظون به ذريعة لنكران ما ينكرون.

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ ثم لا تحفل جدالهم ولجاجهم ومراءهم واهتراءهم، ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ إلى نقمة الله ﴿فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

وهكذا يواجَه من يعاند الحق في حجاجه اللجاج أن يُترك في خوضه الغامر دون أن يوسف عليه ويؤسى له، حيث ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1]، وذلك لا يقتضي ترك محاربتهم، فإن ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ هي فقط أمرٌ بتركهم في حقل الحجاج.

ذلك، وكلّ جملة من هذه مستقلة في حقولها، فـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ تستقل في كافة الحقول، توحيدية وشركية وإلحادية، وفي حقل التوحيد توكلاً على الله لا سواه، واستعانة بالله لا سواه، أن يعيش الموحد ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ قولاً بالقال والحال والأعمال ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ تركاً لما سوى الله.

وفي حقل الإلحاد والإشراك ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

فحين لا ينفع قول الحق لا تترك أنت قول الحق بل ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، وعلى أية حال أثَّر القول الحق أمّا أثر فـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ قولاً في نفسك وقولاً في حقل الدعاية، فعلى الداعية أن يعيش ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ دون أن يتركه على أية حال.

ذلك، فقد نرى أن لـ ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أعداء جاهرين ظاهرين وآخرين يتقبلونه ولا يُقبلون إليه.

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

فالقائل ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ ينكره أولاً، يتقلَّص ليتخلص منه على طول الخط، ثم يوجه نكرانه بأن الله جلَّ قدره هو فوق أن ينزل شيئاً لهذا الخلق الضئيل.

ثم القائل ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ قد يحرفه كما يحب واقعياً أم دعائياً كما فعله المحرَّفون الكلم عن مواضعه في كتاب موسى والمسيح عليهما السلام، وفعل معهم القائلون أن القرآن محرَّف!.

ثم القائل ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ دون تحريف، القائل بأن القرآن هو الدليل الأوَّل يتركه قائلاً: أين نحن وتفهُّم كلام الله، إن له أهلاً خصوصاً لا يحل تفسيره إلّا لهم.

ثم القائل ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مع التصديق أنه ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾(١) يحمل عليه الآراء تقديساً للأجلاء المفتين بخلافه، فليعنِ ما عنوه منه!.

وهكذا نرى ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ظليما أسيراً بأيدي الناس النسناس على مدار الزمن الرسالي، فلو أن ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ كان هو المحور الأصيل لمُدَراء شرعة الله والمتشرعين بها، دونما حِوَلٍ عنه لم تحصل هذه الخلافات العارمة والاختلاقات المتشتتة.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾(٢) (٣).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٧.
(٣) راجع الفرقان ٢٥: ١١٥ تجد تفصيل البحث حول أمية الدعوة القرآنية.

.. تلك كتب للماضين، ماضين على مناهجها وغير ماضين ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن العظيم ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ وكلّ كتب الله مباركة ولكن أين مبارك من مبارك؟.

فهذا المبارك تتِم بركته، وتُطم كافةَ المكلفين في كلّ حقول العلم والمعرفة والعمل الصالح إلى يوم الدين، ثم وليس بدعاً من الكتب بل هو ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من كتب الوحي، تصديقاً لصادق وحيها وتكذيباً للكاذب من تحريف أو تجديف.

وقد تلمح ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إضافة إلى وحدة السلسلة الكتابية للرسل، أن هذا الكتاب ناظر إليها مهيمن عليها، تصديقاً لصادقها وتكميلاً، وتكذيباً لكاذبها ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(١)، ثم: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فمكة أم القرى في أصل التكوين اعتباراً بالكعبة المباركة حيث دُحيت الأرض من تحتها ومُكّت، فكلّ القرى طارئة عليها وهي أمها ومُخها، فقد اشتقت «مكة» من تمككت العظم أخرجت مخه، فهي مخ الأرض وأصلها ومنشؤها، كما وأنها أوّل بيت وضع للناس: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(٢).

ذلك وكما أن الأرض هي أم الكرات كلها بمعنى سبْقها عليها في خلقها فصبغها بسابغ المكان والمكانة لأصول المكلفين بين العالمين كما فصلت هذه السابقة السابغة في فصلت.

فهي أم القرى الرسالية في الكون كله، أعم مما هي أم القرى الأرضية، تحليقاً لواجهتها الروحية الرسالية على مكانات الرسالات كلها أرضية وسماوية.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

فلأن ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ في حقل الإنذار في القرى الرسالية، وإنها جمع محلي باللام وهو يفيد الاستغراق، إذاً فمستغرق القرى الرسالية أرضية وسماوية كلها تظل في ظلِّ هذه الرسالة العالمية الكبرى دون إبقاءٍ.

فلئن كان النص «مكة ومن حولها» لكان ظاهراً في الجزيرة العربية، ولكنه ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فـ ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ الشاملة لكافة المجتمعات المكلفة بالرسالات في الكون كله، تفسِّر ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ بمن حول هذه العاصمة الرسالية العالمية.

فَسِعة ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ هي فسحة هذه الدعوة، ولأن ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ لا تختص بما حول مكة حيث تشمل ما تسمى قرية في أرض أو في سماء، فـ ﴿حَوْلَهَا﴾ تعني نفس ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ ومكة أمها كلها، دون مثل الطائف[1] بل إن ما حولها طائف على العالمين أجمعين، دون «طائف» ولا طائفة خاصة من العالمين.

فكما يُعنى مما حول عاصمة الجمهورية الاسلامية كافة البلاد فيها، ويُعنى مما حول عاصمة الدولة المهدوية كافة من في الأرض وسائر المكلفين في أرجاء الكون، كذلك - وبأحرى - ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ في هذه الرسالة السامية، فإن ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ التي هي حول «الأم»: العاصمة - هي مستغرق المجتمعات من كافة المكلفين من كلّ العالمين من أهل السماوات والأرضين.

هنا وفي الشورى (٧) ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وفي أخرى ﴿لِأُنذِرَكُم

(١) في تفسير العياشي عن علي بن أسباط قال قلت لأبي جعفر عليه السلام لِمَ سمي النبي الأمي؟ قال: نسب إلى مكة وذلك من قول الله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧] وأم القرى مكة ومن حولها الطائف» أقول: هذا تفسير بأقرب المصاديق فلا تضيق به الآية الطليقة الشاملة لكلّ القرى في الكون كله.

بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾[١] تشملان في ذلك الإنذار كافة البالغين من القرى المكلفة بشرائع الله، وليس الإنذار إلّا بالقرآن كما التذكير ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[٢] فلا تختص الدعوة القرآنية بالعرب، أم عرب الجزيرة، أم القرى المجاورة لأم القرى في الجزيرة، بل هي للناس كافة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[٣] ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[٤] بل ولكلّ العالمين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٥].

فقد تصيَّد أعداءٌ للإسلام من المستشرقين أن تقصر الدعوة على أهل مكة ومن حولها، مقتطعين آية أم القرى من القرآن كله ليخيِّلوا إلى البسطاء أن هذه الدعوة كانت في بدايتها محصورة بهؤلاء الأميين ومجاوريهم، ثم توسعت في الجزيرة كلها ثم همَّ محمد ﷺ أن تتخطاها إلى الناس كافة وذلك بعد هجرته إلى المدينة وقيام دولته بها.

ولكنهم تغافلوا عن المعني من القرى في أم القرى، كما تغافلوا أن آيات الأنبياء وسبأ والأعراف من أوليات المكيات بداية الدعوة.

وحين تكون الدعوة الإسلامية للناس وللعالمين كافة، فالمتخلف عنها زعم اختصاصها بغيره خارج عن الناس وعن العالمين أجمعين، فهو - إذاً - في زمرة النسناس.

وهنا نقول لمثل «الحداد» يا حداد قف على حدك وخفف عن جزرك ومدك فما كتاب الله لعبة تلعب بها أنت وأمثالك[٦].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٢) سورة ق، الآية: ٤٥.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٦) الأستاذ الحداد البيروتي رئيس مطارنة بيروت هو الذي ألف على إشرافه أربعة عشر كتاباً ردّاً=

فالقرآن هو وسيلة الدعوة الخالدة إلى يوم الدين، دعوة بأهله الرساليين، رسولاً وأئمة معصومين، ومن ثم علماء ربانيين دارسين في مدرسة القرآن العظيم، محصورة الدعوة والدعاية في هذا المثلث، إضافة إلى السنة الشارحة، وكلّ ذلك لمكان ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ دون «لينذر» هنا و﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾(١) وما أشبه في غيرها، فكامل الإنذار هو أن يكون بكتاب معصوم بمنذر معصوم أمن يتلو تلوه ويحذو محذاه ويرمي مرماه.

ذلك! فلا تعني «ما حولها» الحول المجاور لها، ولا - فقط - مشارق الأرض ومغاربها، لأن أم القرى هي العاصمة الكبرى للمملكة الرسالية، فـ «ما حولها» تعم كلّ قراها في الكون كله.

وهنا براهين أربعة تثبت وحي القرآن، أولاها ﴿مُبَارَكٌ﴾ حيث يحمل كافة البركات المرجوة من عند الله تعالى، فلا تجد بركة ربانية صالحة صادقة إلّا ويحويها ذلك الكتاب المبين والبرهان المتين.

فهو مبارك في صيغة التعبير بلاغة وفصاحة في القمة العليا، مبارك في الدلالة والتدليل، مبارك في وفَق الفطرة والعقلية السلمية وقضية الواقع المُعاش السليم دون أي دغَل أو دَخل أو دَجَل، فلا مزرءة فيه في أي حقل من الحقول، ولا مَمْسك عليه علمياً أو عقلياً أو واقعياً أم في أي سؤل أو سؤال للمكلفين، وفي جملة واحدة ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(٢).

وثانيتها: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فالكتاب غير الإلهي ليس ليصدق

= - بزعمه - على القرآن ومنها «الكتاب والقرآن» حيث ذكر فيه شطحات مثل أن القرآن دعوة عربية وليست عالمية.

(١) سورة ق، الآية: ٤٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.

الوحي - كما لا يصدقه الوحي - ولا يصادقه لاختلاف الصادر والمصدر، فلا يصدِّق الوحي إلّا الوحيَ لتطابق المغزى، وتوافق المعنى.

فسلسلة الوحي الرباني مرتبطة بحلقات متماثلة مهما تفاصلت في طقوس أو تفاضلت، فإنها تتفاضل حسب المصالح ولا تتعاضل، وسائر السلسلة غير متماثلة وهي متفاصلة متعاضلة، قضيةَ وحدة المصدر وطليق العلم هناك، وعديد المصدر وحدّ العلم هنا.

ذلك، كما وأن تصديق الذي بين يديه حجة على أهل الكتاب تحرضهم على الإيمان به، ولا سيما في الزمن القاحل الجاهل الذي سيطر فيه الجهل، وحرّفت كتب الوحي عن جهات أشراعها.

لا سيما وأن القرآن يذكِّرهم بما في تلك الكتابات من بشارات في تصريحات وإشارات إلى هذه الرسالة الأخيرة.

كما وأن بلاغة التعبير وتلائم المعبر عنه دون تصادم - حال أن كتبهم أدنى تعبيراً وهي محرّفة - يدلهم على أنه بأحرى منها في صبغة الوحي وصيغته وصياغته.

وثالثتها ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ حيث إن مسؤولية إنذار أم القرى وفيها ألدّ الأقوام في التأريخ الرسالي، هذه بواقعية تأثيره كما حصلت، مما يبرهن على بارع وحيه وقارع وقعته.

ورابعتها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَاۚ﴾ حيث الرسالة العالمية تتطلب معدات أقوى مما سواها، والنظر الصائب الثاقب يفيدنا أن قابلية هذه الرسالة وفاعليتها تناسب الإنذار الطليق في العالمين أجمعين[(١)].

(١) لتكملة البحث حول ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ﴾ [الأنعام: ٩٢] راجع تفسير آيتها الثانية ٢٥: ١١٥ - ١٢٥.

ذلك، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ حيث الإيمان بالآخرة إيمان بالحساب، فالثواب والعقاب، ولزامه الرسالة الإلهية الحاملة لتكاليف الشرعة الحافلة لسؤل المتشرعين، فلولاها لكانت الآخرة عاطلة، إذاً فالإيمان بذلك البعث يوم الأخرى إيمان بالبعث يوم الأولى، ومن ثم إنه هو الداعي إلى أمن شامل في الآخرة بما يبين من شروطات الأمن الواجب تحقيقها يوم الدنيا.

فالمؤمن بالآخرة حساباً وثواباً وعقاباً يفتش عن أصلح المعدات لحياة سعيدة فيها، وقضية ذلك التحري الصالح هي الوصول إلى كامل الإيمان بالقرآن ورسوله، وكلما كان الإيمان بالآخرة أقوى فذلك التحري أكثر وأقوى، وكلما كان أضعف كان صاحبه أفشل وأغوى.

صحيح أن من قضايا الإيمان بالآخرة هو الإيمان بشرعة سماوية تعم كلّ كتب السماء، إلّا أن صالح الإيمان بعد تحرُّف الكتب السالفة ونزول كتاب جديد مهيمن عليها، غير محرف عن جهات أشراعها، إن ذلك يقتضي - فقط - الإيمان بالقرآن تطبيقاً له في كافة ميادين الحياة، مهما كان التصديق بكلّ كتب السماء أيضاً من قضاياه، تصديقاً لأصل الوحي فيها، وتصديقاً لانقضاء دورها، فتصديقا بهذا القرآن كآخر منشور من ولاية الله.

فلأن إيمان الكثير من أهل الكتاب بالآخرة قليل ضئيل قصوراً منهم وقصوراً في كتبهم لتحرفها عن الآخرة، الصالحة للإيمان، لذلك فهم لا يؤمنون بالقرآن تصلباً على شرعتهم القومية، مصلحيةَ الحفاظ عليها بالمنظر الأدنى إخلاداً على هذه الأدنى.

أجل وليس الإسلام هو الشرعة الوحيدة التي يؤمن بها من يؤمن بالآخرة لأنها فقط شرعة التوحيد الصالح والرسالة الصالحة وما أشبه كما يقوله قوالون، إنما هو المهيمن على ما بين يديه من كتاب ومصدق لصادق

الوحي فيها، ولا يندد القرآن إلّا بالمحرَّف المجدف فيها، فليحذر الكتّاب والقارئون ذلك المزلق الخطير الذي يخيل إلى البسطاء أنه خدمة للإسلام.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ لأنها أفضل الصِلات إلى مرضات الله وأحوط الحياط على حرمات الله.

فإفراد الصلاة بالذكر بعد التوحيد والمعاد صُراحاً والإيمان بالقرآن بينهما، ذلك دليل الأهمية البالغة للصلاة بين كافة الصِلات ولكن شرطَ المحافظة عليها بكلِّ المتطلبات المعرفية والعملية فيها، فإنها - إذاً - عمود الدين، وقد اعتبرت إيماناً بين سائر العبادات: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾(١) فإنها واردة في حقل الصلاة عند غيار القبلة، كما ولم يعبّر عن سائر المعاصي بالكفر وقد عبّر به لترك الصلاة فـ «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر».

هنا تختم هذه الجولة المتلاحقة الأشواط بمشهد شاخص حي مكروب رعيب - مشهد الظالمين - والله من ورائهم رقيب:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)﴾:

هنا عرض لثالوث منحوس من مظالم الافتراء في حقل الوحي، وأنها أظلم الظلم بحق الوحي:

١ - ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أنه ما أنزل على بشر من كتاب وما أرسل بشراً رسولاً ولا يحيي الموتى ليوم الحساب، وما أشبه من سلبيات

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

وإيجابيات كافرة مفترية على الله، ومن أكفرها اتخاذ الشركاء لله وعبادتها كما الله، وهو مفتاح كلّ فرية على الله.

٢ - ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ كسائر المدَّعين الوحي بكلّ إدغال وإضلال ودون أي برهان ودليل.

٣ - ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ ترفيعاً لرتبته إلى مرتبة الربوبية، أو تخفيضاً له تعالى إلى خافض منزلة العبيد، وكما قاله مشركون: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾(١).

وهنا الرواية القائلة أن الرسول ﷺ كان يمضي ما يغيره بعض كتاب الوحي(٢) إنها فرية قاحلة عليه ﷺ تجهيلاً لساحته، ونسبةَ الخيانة في الوحي إلى سماحته!.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣١.

(٢) نور الثقلين ١ : ٧٤٥ في أصول الكافي أبو علي الأشعري عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن يحيى عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أحدهما قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا...﴾ [الأنعام: ٢١] قال: نزلت في ابن أبي سرح الذي كان عثمان استعمله على مصر وهو ممن كان رسول الله ﷺ يوم فتح مكة هدر دمه وكان يكتب لرسول الله ﷺ فإذا أنزل الله: ﴿أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ كتب ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فيقول له رسول الله ﷺ دعها فإن الله عليم حكيم وكان ابن أبي سرح يقول للمنافقين: إني لأقول من نفسي مثل ما يجيء به فما يغير علي فأنزل الله تبارك وتعالى فيه الذي أنزل.

وفيه عن تفسير القمي حدثني أبي عن صفوان عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان أخا عثمان من الرضاعة أسلم وقدم المدينة وكان له خط حسن وكان إذا نزل الوحي على رسول الله ﷺ دعي فكتب ما يمليه عليه رسول الله ﷺ فكان إذا قال له رسول الله ﷺ: ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يكتب ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وإذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يكتب ﴿بَصِيرٌ﴾ ويفرق بين التاء والياء وكان رسول الله ﷺ يقول: هو واحد فارتد كافراً ورجع إلى مكة وقال لقريش: والله ما يدري محمد ما يقول: أنا أقول مثل ما يقول فلا ينكر عليّ فأنا أنزل مثل ما ينزل فأنزل الله على نبيه في ذلك ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ...﴾ [الأنعام: ٩٣] فلما فتح رسول الله ﷺ مكة أمر بقتله فجاء به عثمان قد أخذ بيده ورسول الله ﷺ في المسجد فقال يا رسول الله ﷺ اعف عنه فسكت رسول الله ﷺ ثم =

ومما يحير العقول نقل أمثال هذه الأحاديث في كتب التفسير وسواها تصديقاً لمحتوياتها دون رعاية لحرمة القرآن ورسوله أو دراية لما يروى!.

وهكذا ابتلي الإسلام بروايات مختلقة تروى وتقع موقع القبول، مناقضةً صريحة لكتاب الله الناطق بالحق!.

وهذه الآية تندد - فيمن تندد - بهؤلاء المجاهيل الأغبياء، الراوين لأمثال هذه المختلقات الزور، ثم البسطاء الذين يتقبلونها آخذين لها بعين الإعتبار، لا لشيءٍ إلّا لأن فلاناً روى وفلاناً هوى.

ذلك! وابن أبي سرح المختلق فيه - في هذا المسرح - ما اختلق، كان - لو كان - يكتب الوحي في المدينة وآية التنديد مكية، ثم وكيف يستأمن النبي الصادق الأمين مثل هذا الخائن اللعين المصرح بخيانته ثم يقره عليها، ثم هو يرتد بتلك المجاراة الخائنة!.

وهنا نعرف الضرورة القاطعة في عدم الوثوق إلى الروايات شيعية أو سنية ما لم يصدقها القرآن، أم ولأقل تقدير لم يكذبها(١).

= أعاد فسكت ثم أعاد فقال ﷺ هو لك فلما مرّ قال رسول الله ﷺ لأصحابه: ألم أقل من رآه فليقتله فقال رجل كان عيني إليك يا رسول الله ﷺ أن تشير لي فأقتله فقال رسول الله ﷺ إن الأنبياء لا يقتلون بالإشارة فكان من الطلقاء».

وفي رواية ابن عباس أنه ابن سعد بن أبي سرح وكان أسلم وكتب الوحي لرسول الله ﷺ وأنه لما نزلت الآية في «المؤمنون» ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] دعاه النبي ﷺ فأملأها عليه فلما انتهى إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] عجب عبد الله في تفصيل خلق الإنسان فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فقال رسول الله ﷺ: هكذا نزلت علي... فشك عبد الله حينئذ وقال: لئن كان محمد صادقاً لقد أوحي إليّ كما أوحي إليه ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين (رواه الكلبي عن ابن عباس).

أقول: في هذه الروايات مس من كرامة الرسالة وأمانتها وكرامة الوحي ومحتدة فهي من المختلقات الزور أعاذنا الله منها.

(١) فما لم تتقن في دلالة قرآنية لشيء ليس لك نقل حديث فيه أو تصديقه، وإذا استفاض أو تواتر=

ثم «أو» العاطفة بين الأوَلين دليل اختلافهما، فالمفتري على الله الكذب هنا لا يشمل «من قال أوحي إلى...» مهما كان من المفترين، فالأولون هم المشركون وأضرابهم الذين يفترون على الله الكذب، والآخرون هم المدَّعون الوحيَ، فكما أنهم أولاءِ يفترون الكذب فهم من أظلم الظالمين، كذلك مدعي الوحي ولا يوحى إليه بشيءٍ، فلو أنني: محمد الرسول - لم يوح إلي وادَّعيه لكنت من أمثالكم في أظلم الظلم.

ثم هنا فرقة ثالثة يدعي مستقبل الوحي وعداً مكذوبا، وهم أنحس من مدعي الوحي كاذباً لمكان ﴿سَأُنزِلُ﴾ الدالة على إمكانية إنزال مثل ذلك من عند الله أم سواه، ويكأنه إله من دون الله ينزل وحياً كما هو، أم هو مسيطر على الله يستنزله الوحي، أم ويستنزله ممَّن سواه، وذلك فرق الوحي المنزل على الرسل حيث ينزل عليهم ولا يُنزِلون، فإنما المُنزِل للوحي هو الله، والرسول ليس إلّا مَنزِله، والوسيطُ فيه هو النازل به، فـ ﴿سَأُنزِلُ﴾ هي دعوى فوق الرسالة ألوهية وسواها.

وقد تلمح ﴿مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أنه ينزله ممن سواه، نفسه أم سواه، وذلك من دعوى المماثلة مع الله، أن ينزل من الوحي على رسول كما أنزل الله على رسوله.

= حديث عن الرسول ﷺ أو الأئمة المعصومين من ذريته فالموافق للقرآن مصدق مفروض، والمخالف للقرآن مكذب مرفوض، وما لم تجد له أصلاً في كتاب الله فإلى سنة رسول الله ﷺ وما لم تجده فيها مما لا يخالف قاطع العقل والعلم والحس تصدقه، وحين يخالف واحداً منها لا تصدقه، وغير المخالف ولا الموافق للكتاب والسنة وغيرهما من المقطوع حجيته نتردد فيه ونحمّله على راويه.

إذاً فلا يجوز الاستناد إلى حديث بمجرد أن ناقله فلان ومصدقه فلتان، حيث الرسول ﷺ يحذرنا عن ذلك في خطبته الشهيرة الغرّاء في منى: «لقد كثرت عليّ الكذابة وستكثر فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار فما جاءكم عني من حديث يوافق كتاب الله وسنتي فأنا قلته وما جاءكم من حديث يخالف كتاب الله أو سنتي فلم أقله».

ثم ﴿سَأُنزِلُ﴾ في وعد الاستقبال لا مستقبل له منذ وعده كما لم يحصل حتى الآن، فقد حاول كثير أن يعارضوا وحي القرآن بما سواه وحتى بسائر وحي الله ولن يقدروا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾(١).

ذلك، والذين يختلقون ضوابط دون سناد إلى كتاب أو سُنة، ثم يرتكنون عليها في إصدار أحكام ينسبونها إلى الله، هم كذلك من المفترين على الله الكذب، أو القائلين ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ. . .﴾ أو ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ ومن أشبه. .

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ مشهد مفزع مرعب حيث غمرات الموت تغمرهم، وكما كانوا في غمرات الضلالات جزاءً وفاقاً ونكالاً حساباً.

وهنا استعارة لطيفة بارعة حيث شبه الظالمون الذين يعتورهم كرْب الموت وغُصَصه بالذين تتقاذفهم غمرات الماء ولججه، وقد سميت الكربة غمرة لأنها تغمر قلب الإنسان آخذة بكظمه وخاتمة على متنفَّسه، والأصل في ذلك كله غمرة الماء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ. . . وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ لتوفِّيهم وهم ماسكون أرواحهم في زعمهم فيقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ عن الحياة الدنيا وعن أبدانكم، أمراً قاطعاً لا مرد عنه، فهم الباسطون أيديهم يتوفونهم رغم أنوفهم قائلين: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ كما أهنتم الحق ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

ذلك، وإن نفس المؤمن تنشط للخروج للقاء ربه، ونفس الكافر تكره

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

الخروج بما قدمت يداه على حدِّ قول الرسول ﷺ: «من أراد لقاء الله أراد الله لقاءه ومن كرِه لقاء الله كره الله لقاءه»(١).

ولـ ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ إخراجات، منها ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ من غامرات العذاب إن كنتم فاعلين، هزءاً بهم كما هزئوا بآيات ربهم، أو ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ المخلدة إلى هذه الحياة الشرسة المُحرِجة لعباد الله، فاعلين بهم فعلة الغريم الملازم المُلحِّ، باسطاً يديه إلى من عليه الحق.

وعلى أية حال فالأمر هنا بين تعجيز هازئ وبين تكليف واقع لا يستطيعون أن يتخلفوا عن أمره على إمره.

ومما تدل عليه ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ دون ﴿أَخْرِجُوٓاْ﴾ أن الأنفس هي غير الأبدان مهما كانت وليدة منها وكما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ﴾(٢) فالروح - إذاً - خلق آخر أنشئ من البدن بعد اكتماله جنيناً.

كما تدل ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ على الحياة البرزخية ابتداء بالموت حيث اليوم هو يوم خروج الأنفس.

و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هنا هم رؤوس الظلم ومنهم المختلقون هذه الأحاديث الزور تشويشاً على وحي القرآن، ثم الناقلون لها دونما رد عليها تلقياً بالقبول! مهما كان الأصل هم المشركون، فإن واجهة الخطاب من قبلُ هم المشركون ومن بعدُهم أنفسهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ . . .﴾ ولكن أشباههم يصطلون بصلاتهم في الجحيم.

فكما ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ شرعةَ الوحي أدخلوا السذَّج العوام في غمرات الارتياب، كذلك اليوم يَجزون عذاب الهون بما كانوا يقولون على الله غير الحق . .

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٣ : ٨٥.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

هنا ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ عذاب مع الهوان قضيةَ الافتراء على الله كذباً، وتكذيب لآيات الله إهانة بها ومهانة واستكباراً، فعذاب الهون جزاءٌ وفاق للافتراء الهون والاستكبار فيُخلد فيه مُهاناً.

وهكذا يتوفى الذين كفروا بكلّ إيعاد وهوان: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾[1] يضربون وجوههم لمواجهة العذاب، وأدبارهم حين لا يحنُّون لخروج أنفسهم، وهذه أولى حرقة لعذاب الهون: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

هل الخطاب في ﴿جِئْتُمُونَا﴾ هو من الله؟ والكفار ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾[2]! فليكن من الملائكة نقلاً عن الله؟ وصالح التعبير - إذاً - ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا . . . كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾!.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾[3] إضافة إلى اختصاص السلب بيوم القيامة، لا تعني إلّا كلام العطفة الرحمة، وأما كلام التنديد والزحمة فهم مستحقوها على أية حال، اللّهم إلّا يوم الدنيا حيث لا يواجهون بخطاب إلّا بوسيط الوحي.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ لعالم الحساب والجزاء، فكلنا جاؤون إلى الله، إلى ربوبيته في عالم التكليف يوم الدنيا، وإلى ربوبية الجزاء في عالم الجزاء،

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٥٠، ٥١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٧.

وهنا زيادة أن المكلفين لا خِيَرة لهم في أعمال، إلّا الجزاء الموعود لهم ثواباً وعقاباً.

﴿جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ بالخلق الثاني يوم القيامة، فرداً عريان وأجرد غلبان، لقد ندَّ عنكم كلّ شيء وتفرق عنكم كلّ أحد وما عدتم تقدرون على شيء ممّا خولكم الله إياه، فأصبحتم دون أي جمع أو قوة إلّا كلٌّ بنفسه ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حيث لا جمع ولا قوة، بفارقين اثنين: أن المحافظين من الوالدين وسواهما هنا ليسوا هناك، وأنكم تحملون معكم مستحق الثواب أو العقاب، فـ ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ...﴾ تقضي على الأوّل، وكونه يوم الجزاء يحكم بالثاني، وكافة الوسائط المزعومة والشفعاء المتخيلة مقضي عليها بـ «تركتم - إلى - تزعمون».

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ من قوات ذاتية، وأخرى منفصلة من أموال وبنين وما شأبه، إنها كلها متروكة وراء ظهوركم، حيث ظلت في الحياة الدنيا وضلت عنكم في الأخرى، فما يحولنا الله إياه من طاقات وإمكانيات متصلة أو منفصلة هي متروكة لمساعينا، أن نتركها وراء ظهورنا إذ لم نستفد منها ولم نُفِد في مرضات الله، أو نقدمها لأنفسنا ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾(١) فليس «جئتمونا فرادى وتركتم» إلّا على الأولين، ثم الآخرون يجيئون الله بجمعهم الخيِّر وعملهم النيِّر مما قدموه لأنفسهم.

ثم ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ لله، أو شركاء في حيوياتكم الدنيوية، وفي عبارة مختصرة محتَصرة ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ ما بينكم وبين مزاعمكم ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من شركائكم وكلّ من يناصركم في غمراتكم.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٠.

فالكافرون - إذاً - هم فرادى عن جمعهم وما كانوا يكسبون حيث لا تنفعهم، والمؤمنون ليسوا فرادى حيث جمعوا إلى أنفسهم مرضات الله ف ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾(١) وهو أجمع جمع ينفع يوم لا ينفع أي جمع.

وعلّ ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ هي جمع «فَردان» كسكارى جمع سكران، أو جمع «فريد» كردافى جمع رديف.

ثم الفردان والفريد تعنيان التفرد عن غير أنفسهم، فاضية خاوية عما كانوا يزعمون من جمع وناصرين، فما لهم من جمع هناك ولا ناصرين ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ. . .﴾.

ولأنه لا فصائل هناك على الحقيقة فتوصف بالتقطع، فالمراد - إذاً - لقد زال ما كان بينكم من شبكة المودة وعلاقة الألفة، التي تشبه لاستحكامها بالحبال المُحصَرة والقرائن المؤكدة.

فمهما كانت تلك الوصالات هنا أكيدة بكلّ مكر ومكيدة، فهي تبدل إلى انفصالات أكيدة، تقطعاً بعد التوصل، وتشتتاً بعد التحصُّل.

وهنا ﴿بَيْنَكُمْ﴾ منصوباً ذات وجهين، نصبا بالمفعولية والفاعل هو الله المضمر في ﴿تَّقَطَّعَ﴾ أي تقطع الله بينكم، أو تقديراً لـ ﴿مَّآ﴾ فهي ظرف لها، لقد تقطع ما بينكم.

ثم ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ﴾ سلب لشفاعتها لهم، لا لكونها معهم في الأخرى فـ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾(٢) فالمعية المنفية هي المناصرة بصفة الشركاء كما كانوا يزعمون، فلا تعني سلب

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٩٨، ٩٩.

وجود الشركاء معهم هناك خارجة عن معية الإشراك، إلى معية الخلود في النار.

وقد تلمح ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أنه «إذا كان يوم القيامة حشر الناس حفاة عراة عزلاً»(١)، وحين يُسأل رسول الله ﷺ على المحكي: «واسوأتاه إن الرجال والنساء سيحشرون جميعاً ينظر بعضهم إلى سوأة بعض؟ يجيب: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾(٢) لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شغل بعضهم عن بعض»(٣).

وقد تعني ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ...﴾ في خصوص ﴿جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ فيحشر الناس - إذاً - بأكفانهم أو ما يسترهم من غيرها(٤) فإن «ما نرى...».

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٢ - أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله سمعت رسول الله ﷺ يقول:...

(٢) سورة عبس، الآية: ٣٧.

(٣) المصدر أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن عائشة أنها قرأت قول الله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤] فقالت عائشة يا رسول الله ﷺ:...

وفيه عن الخرائج والجرائح عن النبي ﷺ حديث طويل يذكر فيه فاطمة بنت أسد وفيه قرأت عليها يوماً ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤] فقالت: واسوأتاه بالله فسألت الله أن لا يبدي عوراتها ثم سألتني عن منكر ونكير فأخبرتها بحالهما قالت وا غوثاه بالله فسألت الله أن لا يريهما إياها وأن يفسح لها في قبرها وأن يحشرها في أكفانها».

وفيه عن أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يحكي فيه ما صنع رسول الله ﷺ بفاطمة أم أمير المؤمنين عليه السلام لما توفيت يقول فيه عليه السلام قال ﷺ: وإني ذكرت يوم القيامة وأن الناس يحشرون عراة كما ولدوا فقالت واسوأتاه فضمنت لها أن يبعثها الله كاسية وذكرت ضغطة القبر فقالت: واضعفاه فضمنت لها أن يكفيها الله ذلك فكفنتها بقميصي واضطجعت في قبرها لذلك.

(٤) المصدر في الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: توقوا في الأكفان فإنكم تبعثون بها، وفيه في الفقيه قال عليه السلام جيدوا أكفان موتاكم فإنها زينتهم، وفيه عن الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه قال السائل: أخبرني عن الناس يحشرون يوم القيامة عراة؟ قال: بل يحشرون في أكفانهم، قال: أنّى لهم بالأكفان وقد بليت؟ قال: إن الذي أحيى أبدانهم جدد أكفانهم، قال: فمن مات بلا كفن؟ =

تسلب ما ينفع يوم لا ينفع مال ولا بنون، أم إن المؤمنين يُحشرون بأكفانهم احتراماً وغيرهم عراة اختراماً، وهذا قول فصل بين مطلق السلب والإيجاب يؤيده اختصاص الخطاب بالكافرين.

ذلك المشهد الذي يهز القلب هزاً عنيفاً وهو يشخص ويتحرك ويلقي ظلاله على النفس ويسكب إيحاءاته في القلب. . إنه منشور ولاية الله، إنه القرآن العظيم الذي هم عنه معرضون، فأين تذهبون وأنَّى تؤفكون؟ أإفكاً آلهة دون الله تريدون.

= قال: ستر الله عورته بما يشاء من عنده، قال: فيعرضون صفوفاً؟ قال: نعم هم يومئذ عشرون ومائة ألف صف في عرض الأرض.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ
ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ
قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا
مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ
وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى
ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ
بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ
وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ
كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ
ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ
مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ
﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿١٠٥﴾ at start of first line.

وهكذا تَدَافعُ الموجات المتلاحقة القرآنية في مجاريها المتدفقة المتلفقة، عن روعة باهرة يصل إليها التعبير والتصور والإيقاع من سياقها.

فالقارئ يحس كأنما المَشاهد تنبثق انبثاقاً مباشراً بمدلولاتها بكلّ التماع ولألاء، متجلية للحواس والعقول والقلوب، موجات متلاحقة متلافقة تدع الناظرين إليها حيارى، فـ ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾[1]! وها نحن في هذا الدرس أمام كتاب التكوين المفتوح برحمة متواترة ربانية يذكرنا بها ربنا ويعمر بها الغافلون سكارى سبات..!:

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

إنه تعالى ﴿بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾[2]: فـ ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾[3] عن ظلام الليل، وفالق المصباح بمادة النور و﴿فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ وفالق الحي من الميت والميت من الحي، فلا فالق إلّا هو كما لا خالق إلّا هو، فإنه في التكوين

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٩.
(٢) سورة الفلق، الآية: ١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.

ككلّ هو «رب الفلق» حيث يفلق النطفة عن المني، والعلقةَ عن النطفة، والمضغةَ عن العلقة، والعظامَ عن المضغة، والروح عن الجنين: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾(١).

ذلك في فلْق الإنسان وبأحرى فيما دونه في كون أو كيان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟!(٢).

ثم وليس يختص فلْق رب الفلَق بمادة الكون، بل وبأحرى في الروحيات المتلفقة، فرب الفلق يفلق ما أغلقته الشياطين من غاسق إذا وقب ومن النفاثات في العقد ومن حاسدٍ إذا حسد -.

ذلك، لأن الفلْق في أصله هو شق الشيء واستخراج ما فيه، فقد يشمل كلَّ شق فيه خير بعدله ورحمته، وكما فلق السماوات والأرض من المادة الأولية المسماة بـ«الماء» وفلق ذلك الماء لا من شيء إلّا بإرادته البديعة، فقد يشمل «رب الفلق» مثلث الفلْق كأصل، وسائرَ الفلْق كفروع، ولذلك نسمع الرسول ﷺ يدعو: «اللهمَّ فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً اقض عني الدين وأغنني من الفقر وأمتعني بسمعي وبصري وقوتي في سبيلك»(٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾ عن موته وكذلك ﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾ إلى حياة نباتية أم حيوانية أو إنسانية، فنوى النطفة تنقلب جنيناً حياً، وذلك إخراج للحي من الميت: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كعملية دائبة دونما أية وقفة، لمحة من المضارع المقصود به الاستمرار لأنه أهم.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٣.
(٣) الدر المنثور ٣: ٣٤ - أخرج ابن أبي شيبة عن مسلم بن يسار قال كان رسول الله ﷺ يدعو...

﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ بصيغة الفاعل اللّامحة إلى الأقل عملية لأنه دون الأوّل، أم ولأنه معطوف على ﴿فَالِقُ﴾ ففاعل، و﴿يُخْرِجُ﴾ تفسير لـ ﴿فَالِقُ﴾ ففعل.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ العظيم العظيم هو ﴿ٱللَّهُ﴾ دون مَن سواه ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ تحوّلون إلى كذب خاوٍ وأنتم تعلمون؟.

وليس فحسب أن العلم على تقدمه البارع لم يصل حتى الآن إلى سر الحياة، بل ولمّا يصل أيضاً إلى حقيقة المادة، والعلم كله عند الله ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾!.

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾:

﴿ٱلْإِصْبَاحِ﴾ هو الدخول في الصبح، وليس الداخل فيه إلّا الشمس الآخذة في طلوعها في الآفاق وعلى ضوئها كلّ المصبحين، فالله هو الذي يفلق الإصباح، حيث يشق ظلام الليل في منتهى انحداره فيفلق ظلام الجو بطلوع الشمس، فالدخول في الصبح بحاجة إلى فلْق وهو ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾.

وهو كذلك الصبح ففلْقه هو شقه عن الليل بوصول الشمس إلى الآفاق المعنية منذ تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، فذلك الخيط لما يفلق عن قرينه فهنالك الصبح فقد يعني الإصباح الخيط الأبيض إذ يدخل في الصبح بعد فلْقه عن الخيط الأسود من الفجر.

وانفلاق الظلام بالإصباح حركة تشبه انفلاق الحياة عن الحب والنوى، فكما أن الله هو المخرج الحي من الميت في سائر الأحياء من الأموات، كذلك هو المخرج النور عن الظلام، مهما اختلفت شكلية الإخراج والمُخرَج هنا وهناك.

وفيما يُظن أن ظلام الليل موت فلماذا هو؟ تأتي الحكمة الربانية صارحة: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ لنومة هي كموتة فلتكن في حالة ميتة من الأفق وهي الليل، فقد جعل الليل بمنزلة المحبوب الذي تسكن إليه النفوس وتحبه القلوب.

كما ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ﴾ حساباً لحياة اليقظة لتمضي بحساب دونما فوضى جزاف: ف ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾(١) ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾(٢).

ذلك، وعلى حدّ المروي عن الرسول ﷺ: «إن خيار عباد الله الذين يراعون الشمس والقمر والنجوم والأظلة لذكر الله»(٣).

ولأنه ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ فلا تصلح الحركات المتعبة في الليل أو إسحاره دون نوم، ولا ذبح الحيوان فيه إلّا عند الضرورة(٤).

ولأن النساء سَكَن فقد يرجح التزويج بالليل سكناً على سكن(٥) «ولا

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٥.
(٣) الدر المنثور ٣: ٣٤ - أخرج ابن شاهين والطبراني والحاكم والخطيب عن عبد الله بن أبي أوفى قال قال رسول الله ﷺ: . . «وفيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ثلاثة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلّا ظله التاجر الأمين والإمام المقتصد وراعي الشمس بالنهار» وفيه عنه ﷺ أحب عباد الله إلى الله رعاء الشمس والقمر يحببون عباد الله إلى الله ويحببون الله إلى عباده.
(٤) نور الثقلين ١: ٧٤٩ في تهذيب الأحكام بإسناده إلى أبان بن تغلب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان علي بن الحسين عليه السلام يأمر غلمانه أن لا يذبحوا حتى يطلع الفجر ويقول إن الله تعالى جعل الليل سكناً لكلّ شيء»، قال: قلت جعلت فداك فإن خفنا؟ قال: إن كنت تخاف الموت فاذبح».
(٥) المصدر في الكافي الحسين بن محمد عن علي بن محمد عن الحسن بن علي الوشاء عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سمعته يقول في التزويج: من السنة التزويج بالليل لأن الله جعل الليل سكناً والنساء إنما هن سكن.

تسرِ أوَّل الليل فإن الله جعله سكناً وقدَّره مُقاماً لا ظعناً فأرح فيه بدنك وروِّح ظهرك»[١].

وترى ﴿حُسۡبَانٗاۚ﴾ هي جمع الحساب كركبان وشهبان، أم مصدر كالرجحان والنقصان؟.

قد يرجح المصدر بمعنى ما يُحسب به وكما ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[٢]، فكما أن العذاب حسبان يُحسب به محاسبة العذاب، كذلك الشمس والقمر حسبان يحسب بهما محاسبة السنين والشهور والأيام والساعات.

فلقد جعل الشمس والقمر لمحاسبة الأوقات لحدّ يعبر عنهما بالحسبان الحساب و﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

فكما ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾[٣] كأنه نفس المواقيت حال أنه لمعرفة المواقيت بأهلّته، كذلك الشمس وبأحرى منه حيث يعرف منها الساعات إضافة إلى الأيام، والقمر لا تقرِّر الساعات إلّا نزراً.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٩٧﴾:

أترى ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ فقط، فهذه المليارات من النجوم في الجزائر السماوية لا فائدة فيها إلّا ﴿لَكُمُ... لِتَهۡتَدُواْ﴾؟ ولمّا تصل أنوار بعض النجوم إلينا حتى الآن أم لن تصل؟ فضلاً عن الاهتداء بها في ظلمات البر والبحر!.

كلا! إنها لِحكم ومصالح شتى، ولكنها ليست منفصلة عما لكم فقد

---

(١) المصدر في نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

﴿جَعَلَ﴾ منها ﴿لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا...﴾ وليس «خلق» حتى تعم كلّ الغايات، وذلك من واسع رحمته أنه يهدينا بنجوم فكما هي لأهلها رحمة، كذلك لنا - البعاد البعاد عنهما بملايين السنين الضوئية أمّا قلّ أو كثر - هي جمال منظراً، وهدىً نظراً، وعلّنا نهتدي بسائر النجوم في مستقبل مجهول ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ للأسفار الجوية.

ذلك، فـ «تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا»[١]، فإن تعلم النجوم لما سوى هذه الهدى ضلالة أن يزعم لها تأثير في سعادة وشقاوة أو موت أو حياة أو رزق أو جوع وما أشبه، وهذا هو المعني من «نهى رسول الله ﷺ عن النظر في النجوم»[٢] ومحور النهي هو التنجيم إخباراً عن الغيوب أو اعتقاداً بتأثيرها في الكائنات[٣].

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٤ - أخرج ابن مردويه والخطيب عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: ...

(٢) الدر المنثور ٣: ٣٥ - أخرج ابن مردويه والخطيب عن علي عليه السلام قال: نهاني رسول الله ﷺ عن النظر في النجوم، وأخرج مثله عن أبي هريرة وعائشة وعمر وابن مسعود.

وفيه عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد» وفيه عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد طهر الله هذه الجزيرة من الشرك ما لم تضلهم النجوم» وفيه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن متعلم حروف أبي جادوراء في النجوم ليس له عند الله خلاق يوم القيامة» وفيه عن سمرة بن جندب أنه خطب فذكر حديثاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: أما بعد فإن ناساً يزعمون أن كسوف الشمس وكسوف هذا القمر وزوال النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض وأنهم قد كذبوا ولكنها آيات من آيات الله يعتبر بها عباده لينظر من يحدث له منهم توبة.

(٣) أرسل المحقق في المعتبر عن النبي ﷺ أنه من صدق منجماً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ.

وفي رواية نصر بن قابوس عن الصادق عليه السلام: إن المنجم ملعون والكاهن ملعون والساحر ملعون.

وفي نهج البلاغة أنه عليه السلام لما أراد السير إلى بعض أسفاره قال له بعض أصحابه إن سرت في=

ذلك، فترى - بعدُ - أن الله الذي جعل من فوائد النجوم أن يُهتدى بها في حوائجنا المعيشية، أنه لم يجعل لنا نجوم الهدى الروحية رسلاً وأئمة يهدوننا إلى الله، فكما لا بدَّ من نجوم الهدى المعيشية دائبة، كذلك - وبأحرى - دائب نجوم الهدى الروحية، فأصلها هو القرآن العظيم، وفرعها بفصلها هو الثقل الأصغر، وكما في الخبر: «النجوم آل محمد عليهم السلام»[١].

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ - يعلمون دلالات الآيات على مدلولاتها، ودلالاتها ككلّ على الخلاق العظيم، استدلالاً بالمحسوس على اللّامحسوس، وبالمحدود على اللّامحدود، وبالآفل على غير الآفل الأزلي الأبدي وهو الله تعالى شأنه»[٢].

= هذا الوقت خشيت ألا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم فقال عليه السلام: له: أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها انصرف عنه السوء وتخوف الساعة التي من سار فيها حاق به النصر فمن صدقك بهذا القول فقد كذب القرآن واستغنى عن الاستعانة بالله تعالى في نيل المحبوب ودفع المكروب - إلى أن قال -: أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلّا ما يهتدى به في بر أو بحر فإنها تدعو إلى الكهانة فالكاهن كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار، ومثله ما وقع بينه وبين منجم آخر نهاه عن المسير فقال عليه السلام له: أتدري ما في بطن هذه الدابة اذكر أم أنثى؟

قال: حسبت علمت، قال عليه السلام فمن صدقك بهذا القول فقد كذب بالقرآن قال الله: إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام. . ما كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم يدعي ما ادعيت أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء والساعة التي من سار فيها حاق به الضر من صدقك بهذا فقد استغنى بقولك عن الاستعانة بالله في هذا الوجه وأحوج إلى الرغبة إليك في دفع المكروه عنه.

(١) نور الثقلين ١: ٧٥٠ عن تفسير القمي، وهو من الجري والتأويل أو تعميم الدليل.

(٢) عن معاني الأخبار روى الفضيل بن عمرو عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ [البَقَرَة: ١٢٤] قال: وأنا الكلمات فمنها ما ذكرناه ومنها المعرفة بقدم بارئه وتوحيده وتنزيهه عن الشبيه حتى نظر إلى الكوكب والقمر والشمس واستدل بأفول كلّ منها على حدوثه وبحدوثه على محدثه، ثم اعلم أن الحكم بالنجوم خطأ.

أجل وذلك الفلك الدائر بشمسه وقمره ونجومه هو من آيات الله البينات ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ كما هي من الغايات المعبودات لقوم لا يعلمون.

ذلك، وترى ظلمات البر والبحر في هدي النجوم هي فقط الظلمات الحسية؟ وظلمات الأفكار والتصوّرات في مختلف التطورات هي أظلم من الحسية!.

وهذه من الميِّزات القرآنية في مخاطبة الفطرة والعقلية الإنسانية بالحقائق الكونية في صورتها الواقعية دون مجرد مُثُل ونظريات، بل هي الواقعية في صورتها الرائعة غير المحرفة، تتجلى من ورائها يد الخلاق العظيم، موعية للبصر، موحية للبصيرة، دافعة إلى استخدام العلم والفكرة للوصول إلى الحقيقة الكبرى المهيمنة عليها، فـ ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

فالاهتداء بالنجوم الحسية والروحية بحاجة إلى معرفة مسالكها ودوراتها ومواقعها: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾(١) ووقفة الاهتداء على صالح الحياة الدنيا دون أن يُبَصر بها إلى العليا، ليست هي الغاية التامة حيث تخطى عن العليا.

ولأن الآيات المفصلة لقوم يعلمون تحلق على كلّ درجاتها، فقوم يعلمون أيضاً درجات حسب درجاتها ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(٢).

وليس يعني ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ هنا صلاحات العلم أياً كان، إنما هو العلم الصافي الضافي بالنفس، ومن ثم بخالق النفس، رؤية لآليات الآفاقية والأنفسية، ذريعة للحصول على الحق المُرام: فـ «رب عالم قتله جهله، وعلمه معه لا ينفعه»(٣) و«هلك امرؤٌ لم يعرف قدره»(٤) فـ «الجاهل بقدر

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٦.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٣) ١٠٧ ح/ ٥٨٤.
(٤) ١٤٩ح/ ٥٩٦.

نفسه يكون بقدر غيره أجهل»[(١)] - «والعلم وراثة كريمة، والآداب حلل مجددة، والفكر مرآة صافية»[(٢)].

فالعلم الصالح هو من دعائم الإيمان، فقد سئل علي عليه السلام عن دعائم الإيمان فقال: والعدل منها على أربع شعب، على غائص الفهم، وغور العلم، وزُهرة الحكم، ورساخة الحلم، فمن فهم عَلِم غور العِلم، ومن علم غور العِلم صدر عن شرائع الحكم...»[(٣)].

- فـ «لا تجعلوا علمكم جهلاً، ويقينكم شكاً»[(٤)].

- و«العلم نقطة كثرها الجاهلون»[(٥)].

- و«أوضع العلم ما وقف على اللسان، وأرفعه ما ظهر في الجوارح والأركان»[(٦)].

- و«العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل، والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل عنه»[(٧)].

- و«ما لي أرى الناس إذا قرب إليهم الطعام ليلاً تكلفوا إنارة المصابيح ليُبصروا ما يدخلون بطونهم، ولا يهتمون بغذاء النفس بأن ينيروا مصابيح ألبابهم بالعلم ليسلموا من لواحق الجهالة والذنوب في اعتقاداتهم وأعمالهم»[(٨)].

«واعلموا ان عباد الله المستحفظين علمَه يصونون مصونه ويفجرون عيونه»[(٩)].

و«لو أن حملة العلم حملوه بحقه لأحبهم الله وأهل طاعته من خلقه ولكنهم حملوه لطلب الدنيا فمقتهم الله وهانوا على الناس»[(١٠)].

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٣٩٢ / ٣ / ٥٣٠.
(٢) ٦٤/ ٥٦٥.
(٣) ٣٠ ح/ ٥٧٠.
(٤) ٢٧٤ ح/ ٦٢٢.
(٥) مستدرك ١٨٦.
(٦) ٩٢ ح/ ٥٨٠.
(٧) ٣٦٦ ح/ ٦٣٩.
(٨) شرح النهج لابن أبي الحديد ٥٣.
(٩) ٢١٢/ ٤٠٧.
(١٠) مستدرك ١٧٧.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾:

هنا ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي من عساكر البراهين القرآنية على أن ليس هناك نفس أخرى إنسانية أو سواها، شاركت هذه النفس الواحدة في انتسال نسل الإنسان ككلّ، اللَّهم إلّا زوجها المخلوق منها: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً. . .﴾(1).

فـ ﴿أَنشَأَكُم﴾ كسائر الأناسي في كلّ الأنسال، تعني أن ليس في دور الانتسال إلّا نفس واحدة وهنا ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يثنّي الأصل كمرحلة ثانية وعلى طول الخط.

ثم ﴿أَنشَأَكُم﴾ تعم إنشاء الجسم والروح مهما انتشأ الروح عن الجسم: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾.

وهذه الأنفس المنشأة ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ دون حالة لها ثالثة، فما هما ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾؟ وقد يروى عن النبي ﷺ: أنه قال: «أنبئت بكل مستقر ومستودع من هذه الأمة إلى يوم القيامة كما علم آدم الأسماء كلها»(2).

قد تعني ﴿فَمُسْتَقَرٌّ. . .﴾ فمنكم مستقر ومنكم مستودع، وقد تلمح المقابلة بينهما أن «مستودع» هو المؤقت المرجوع، فالمستقر هو الثابت غير المرجوع.

ثم ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ هما اسماً زمان ومكان واسماً مفعول ومصدر، تعني فمن المنشأ في مكان الاستقرار وزمانه وقد أقر، ثم المصدر هنا غير مناسب.

---

(1) سورة النساء، الآية: ١.

(2) الدر المنثور ٢: ٣٦ - أخرج أبو الشيخ عن عوف قال بلغني أن رسول الله ﷺ قال: . . .

فمن المنشأ المستقر:

١ - من وُلِد، ومن المستودع ما أودع في الأصلاب والأرحام، فلا يخلو المُنشأ من أحدهما: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾(١).

٢ - كما وأن من المستقر ما هو في قرار الصلب، أو الرحم ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾(٢)، حتى يولد، والمستودَع هو الساقط قبل الولادة.

٣ - ومنه المستقر في الصلب ثم هو المستودع في الرحم.

٤ - ومنه المستودع في الصلب المستقر في الرحم.

٥ - ثم بعد الولادة مستقر في قراره ومستودع في مستودعه كالحاضر والمسافر ومن أشبه كما ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾(٣).

٦ - ثم قد يستقر إلى أجله المسمى المرسوم المحتوم وقد يستودع إلى الآجال المعلقة.

٧ - ومن ثم الروح قد يؤمن ويستقر فيه الإيمان حتى الموت(٤) أو يستودع حتى يكفر أينما كان وأيان.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٣.

(٣) سورة هود، الآية: ٦.

(٤) نور الثقلين ١: ٧٥٠ في تفسير العياشي عن أبي نصير عن أبي جعفر عليه السلام قال قلت: ﴿... فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨]؟ قال: ما يقول أهل بلدك الذي أنت فيه؟ قال: قلت يقولون مستقر في الرحم ومستودع في الصلب، فقال: كذبوا، المستقر ما استقر الإيمان في قلبه فلا ينزع منه أبداً والمستودع الذي يستودع الإيمان زماناً ثم يسلبه وقد كان الزبير منهم» وفيه عن سعد بن أبي الأصبغ قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام وهو سئل عن مستقر ومستودع قال: مستقر في الرحم ومستودع في الصلب وقد يكون مستودع الإيمان ثم ينزع منه ولقد مشى الزبير في ضوء الإيمان ونوره حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى مشى بالسيف وهو يقول: لا نبايع علياً.

=

٨ - كما قد يكفر ويستقر فيه الكفر، أو يستودع حيث يؤمن بعد كفره فيموت مؤمناً(١).

٩ - ثم الأنفس المؤمنة قد تكون مستقرة الإيمان بعصمة ربانية، أو مستودعة فعليها الحفاظ عليها لكي تستقر فيها دون العصمة الربانية بعصمة تربوية على تطبيق شرعة الله(٢).

١٠ - ومنها المستقر في الجنة، ومنها المستودع في نار، ثم مستقر في الجنة أو موت مع فوت النار.

= وفيه عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام في الآية قال: «ما كان من الإيمان المستقر فمستقر إلى يوم القيامة أبداً وما كان مستودعاً سلبه الله قبل الممات» وفيه عن أبي الحسن الأول عليه السلام المستقر الإيمان الثابت والمستودع المعار.

(١) تفسير البرهان ١ : ٥٤٥ عن محمد بن مسلم قال سمعته يقول: إن الله خلق خلقاً للإيمان لا زوال له وخلقاً خلقاً للكفر لا زوال له وخلق خلقاً بين ذلك فاستودع بعضهم الإيمان فإن شاء أن يتممه لهم أتمه وإن شاء أن يسلبهم إياه سلبهم.

وفيه عن الشيخ في التهذيب بسند عن محمد بن سليمان الديلمي قال سألت أبا عبد الله عليه السلام فقلت له جعلت فداك أن شيعتك تقول إن للإيمان مستقراً ومستودعاً فعلمني شيئاً إذا قلته استكملت الإيمان، قال: قل في دبر كلّ صلاة فريضة: رضيت بالله رباً وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبياً وبالإسلام ديناً وبالقرآن كتاباً وبالكعبة قبلة وبعلي ولياً وإماماً وبالحسن والحسين والأئمة صلوات الله عليهم اللهم إني رضيت بهم أئمة فارضني لهم إنك على كلّ شيء قدير.

وفي نور الثقلين ١ : ٧٥٠ عن تهذيب الأحكام في الدعاء بعد صلاة الغدير المسند إلى الصادق عليه السلام: اللهم إني أسألك بالحق الذي جعلته عندهم وبالذي فضلتهم على العالمين جميعاً أن تبارك لنا في يومنا هذا الذي أكرمتنا فيه وأن يتم علينا نعمتك وتجعله عندنا مستقراً ولا تسلبنا أبداً ولا تجعله مستودعاً فإنك قلت: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨] فاجعله مستقراً ولا تجعله مستودعاً.

(٢) المصدر ٥٤٤ عن الكافي عن أبي الحسن عليه السلام قال: «إن الله خلق النبيين على النبوة فلا يكونون إلّا الأنبياء وخلق المؤمنين على الإيمان فلا يكونون إلّا مؤمنين وأعار قوماً إيماناً فإن شاء تممه وإن شاء سلبه إياه قال وفيهم جرت ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨] وقال: إن فلاناً كان مستودعاً فلما كذب علينا سلبه الله إيمانه» وفيه عنه عن محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام قال سمعته يقول: إن الله عزّ وجلّ خلق خلقاً للإيمان لا زوال له وخلق خلقاً بين ذلك واستودع بعضهم الإيمان فإن يشأ أن يتممه لهم أتمه وإن شاء سلبهم إياه وكان فلان منهم معار.

وتلك عشرة كاملة من محتملات ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ وهي مضروبة في محتملاتهما أدبياً وهي ثلاث تصبح ثلاثين، الصالحة منها لفظياً ومعنوياً مقبولة، وغيرها مرفوضة.

فهذه المستقرات العشر وما أشبه بمستودعاتها قد تكون معنية بـ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ حيث تتحملها في أدب اللفظ وحدب المعنى، ولا يخلوا المنشأ من نفس واحدة منها.

ومن أهم المحتملات مستقر الإيمان ومستودعه كما يروى عن علي أمير المؤمنين عليه السلام: «فمن الإيمان ما يكون ثابتاً مستقراً في القلوب ومنه ما يكون عواري بين القلوب والصدور إلى أجل معلوم فإذا كانت لكم براءة من أحد فقفوه حتى يحضره الموت فعند ذلك يقع حدّ البراءة»[1].

ذلك وليس مستقر الإيمان فوضى جزاف دونما سعي ولا جهاد لاستقراره، فإنما يُستودع الإيمان في قلوب الذين يؤمنون في تجربة الحياة، ثم قد يستقر إذا أقررته بما تسعى فيقره الله عصمة ودونها، أم يبقى مستودعاً قد يزول إذا لم تحقق شرائط دائب الإيمان، فمستقر الإيمان بين عصمة خَلقية بما تسعى، فعصمة ربانية قدر ما تسعى، عصمة رسالية فما دونها ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[2].

وهذه المستقرات والمستودعات للمنشآت من نفس واحدة هي حالات متلاحقة يوم الدنيا ثم تستقر في الأخرى في الجزاء الوفاق، اللهم إلّا أهل النار إذ يأتي يوم تفنى النار ويفنى معها أهل النار فلا نار - إذاً - ولا أهل نار، ولكن أهل الجنة فمستقرون دون موت أو خروج عنها ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[3].

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٨٧/ ٣٤٩.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٣) سورة هود، الآية: ١٠٨.

ذلك، وقمة المستقرات هي مستقر الإيمان فمستقر الجنة، وقمة المستودعات مستودعات الإيمان التي تستقر بمساعي أصحابها، وهذه من المستقرات والمستودعات الأخيرة، ومن المستقرات الأولى حيث تبدأ الحياة فيها خطوتها الأولى للتكاثر بالخلية الملقحة، هي نفس مستودعة كخلية في أصلاب الآباء، ثم هي مستقرة في أرحام الأمهات، ثم تأخذ الحياة في النمو والانتشار.

ذلك وبين المستقرات والمستودعات الأولى والأخيرة متوسطات.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾:

ولأن الفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، فهو في حقول المستقرات والمستودعات الإنسانية ضروري لإدراك صنع الله العجيب في هذه النفس الواحدة، فيها وفي المنشآت منها بمستقراتها ومستودعاتها.

فالفقه الصالح في حقل انتشاء النسل من نفس واحدة فمستقر ومستودع، هو الذي يوصل الإنسان إلى معرفة صالحة عن خالق الكون، سبحان الخلاق العظيم!.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ دون «ينزل» لامحة لأول نزول من ماء السماء بداية الحياة الأرضية بنازل الماء، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ﴾(١) و﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾(٢).

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.
(٢) سورة طه، الآية: ٥٣.

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ الماء، دون الأرض لمكان ذكورة الضمير، فنبات كلّ شيء خارجة من الماء كما ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(١).

ثم ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ نابتٍ: نباتاً وحيواناً وجناً وإنساناً: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾(٢) فغير النابت لا يحتاج في كونه وكيانه إلى ماءٍ، كما الأرض كانت أرضاً قبل أن ينزل عليها ماءٌ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(٣) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾(٤).

ذلك بصورة عامة في المخرجات من الماء، وهنا ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ ككلّ السنابل والفواكه المتراكبة بعضها على بعض، وقد اختص بالذكر هنا من المتراكب «ومن النخيل.. من أعناب والرمان».

﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا﴾ وهو أول طالع من ثمرها ﴿قِنْوَانٌ﴾ جمع قنو وهو الفرع الصغير، فهو هنا العِذق تمراً كالعنقود من العنب، فهي متراكبة فوق بعض منظمة منضدة فإنها ﴿دَانِيَةٌ﴾ مع بعضها البعض دنو التراكب.

﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ وهي من أفضل الفواكه ﴿مُشْتَبِهًا﴾ كلٌّ مع ذوي نوعه كالأعناب المشتبهة والزيتون والرمان، ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ كالمختلفة من كلّ.

﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ انظروا بالحس البصير دون الأعمى الحسير، انظروا إليه في ازدهاره وازدهائه وبهائه إلى ثمره: ثمر الماء النازل من السماء، أو ثمر هذه الأشجار، أو ثمر الأرض، والجامع ثمر ما ذكر من ذلك المثلث،

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.
(٢) سورة نوح، الآية: ١٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.
(٤) سورة لقمان، الآية: ١٠.

حيث الثمر منتَج من هذه الثلاث مهما كان الأصل هو الماء، ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ وانظروا إلى ﴿وَيَنۡعِهِۦٓ﴾: نضجه، فالنضج هو الخطوة الثانية والأولى هي الثمر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ فالإيمان هو الذي يفتح القلب ويمد البصيرة وينبه أجهزة الاستقبال والاستجابة في الفطرة والعقلية الإنسانية.

وأما الذين لا يؤمنون ولا يفقهون فلهم قلوب مغلقة مقفَّلة مغفَّلة، وبصائر مطموسة مركوسة منكَّسة، تمر بهذا الإبداع كله وبهذه الآيات كلها دون تفقّه وتنبّه.

ذلك، وفي رجعة أخرى إلى الآية تساؤلات وإجابات تالية:

١ - هل ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ هنا هي جو السحاب؟ وهي التي تُسحب من بخارات المياه الأرضية!.

إنها من ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ غير جو السحاب، لأنها مسحوبة بعدما أخذت الأرض نصيبها من ماء السماء، فالسماء هنا غير السماء في الأمطار النازلة من السحاب.

٢ - هل إن ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ تعني أن لكلّ شيء نباتاً؟ والجماد لا ينبت!.

﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ هنا تعني شيء الأرض، وكلّ شيء الأرض له نبات من ترابه وحجره ورمله وما أشبه، في ظاهرها وباطنها، فالنفط نبات والجواهر والمعادن كلها نابتات، ولكن هل للماء مدخل في نابتات الجواهر والمعادن وما أشبه؟.

قد تعني ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ نابت من الماء وهو كلّ شيء حي بدليل آيته، والحياة المعروفة لدينا آخذة من النباتية إلى الحيوانية إلى الإنسانية والجنية أماهية؟.

٣ - لماذا هنا ﴿مُشۡتَبِهٗا﴾ وفي نظيرتها متشابهاً؟: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ

جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾(١).

﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾ هنا قد تدل على أن ﴿مُشۡتَبِهٗا﴾ تعني ما تعنيه «متشابهاً» ولكن بفارق أن الثانية تعني التفاعل والأولى تعني الفعل، ولكنه لعمومه فيما ذكر تفاعل بالمآل.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

﴿وَجَعَلُواْ﴾ هؤلاء المشركون وأضرابهم جعلاً جاهلاً قاحلاً مفترياً ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾عِدَّة ممن خلق ﴿ٱلۡجِنَّ﴾ أنهم شركاء الله في ربوبيته «و» الحال أنه «خلقهم» ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ﴾ من ذاته أو من صفاته أو من أفعاله في ربوبيته ﴿بَنِينَ﴾ كما الجن، وعزيز والمسيح عليه السلام ومن أشبه ﴿وَبَنَٰتِۭ﴾ كالملائكة ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ﴾ في أي حقل من حقوله ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ عن أن تكون له شركاء أو شريك ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ شأنه ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

و﴿ٱلۡجِنَّ﴾ هنا إما بدل عن ﴿شُرَكَآءَ﴾ أم - وبأحرى هي المفعول الأول المؤخر و﴿شُرَكَآءَ﴾ هي الثاني المقدم، وجعلوا له الجن شركاء، لمكان ﴿ٱلۡجِنَّ﴾ دون «الشياطين» تعني الأعم من الشياطين وسواهم، فقد كانوا يعبدون الجن: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾(٢).

كما وقد عبدوا الشيطان ويعبدون ﴿۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.
(٢) سورة سبأ، الآيتان: ٤٠، ٤١.

تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[١] ومنهم اليزيدية القائلون بألوهية الشيطان وأن يزيد رسوله، مسمين إيّاه بـ«ملك طاووس - شاه بريان» والمجوس الثنوية القائلون بـ«يزدان وأهرمن»: الله والشيطان.

ذلك وقد ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾[٢] بأنه صاهر الجن ببناته الملائكة وما أشبه من النسب، كما ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾[٣] أن المسيح أم سواه جزء متجزء من ذات الله أو صفاته!.

ولأن الخرق هي الأرض الواسعة حيث تتخرق فيها الريح وتتفرق اتساعاً، والخِرق من الرجال هو الكثير العطاء فكأنه يتخرق، والخريق الريح الشديدة الهبوب، فقد تعني ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ﴾ اتسعوا في دعوى البنين والبنات لله كذباً، اختراقاً واختلاقاً واختراعاً دونما أي أصل من الأصول.

ولقد خرق جمعٌ له تعالى إخوةً في ألوهيته فقالوا: إن الله وإبليس إخوان فالله سبحانه خالق الناس والدواب والأنعام والخيرات وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشرور[٤].

ذلك وإن قصة الولادة الربانية أو بنوتها الشهيرة بين الوثنيين والبرهمية والبوذية قد تسربت إلى اليهود والنصارى وترسبت فيهم إذ قالوا عزيز ابن الله والمسيح ابن الله.

وكيف يكون له شريك أو ولد أو معاون وهو:

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾:

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٠.
(٢) سورة الصافات، الآية: ١٥٨.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ١٥.
(٤) تفسير الفخر الرازي ١٣ : ١١٣ نقله عن ابن عباس -.

إنه تعالى: «مبدعهما ومنشئهما بعلمه ابتداءً لا من شيء ولا على مثال»[(١)]، فالبديع هو المبدع بلا مثال محتذى ولا نموذج به يُهتدى ويقتدى، فالسماوات والأرض - وهما الكون أجمع - هما - ككلّ - من إبداعه خلقاً دون ولادة ذاتية أمّاهية.

ثم الولادة من الوالد مستحيلة دون صاحبة مهما أمكنت من الوالدة دون صاحب.

وإجابة عن سؤال؟ كيف لا تصح ولادة دون صاحبة وهي تصح دون صاحب كما في مريم عليها السلام بل وتصح دون والدين كما في آدم عليه السلام.

نقول: كلّ هذه خلق لله وليست ولادة، والمستحيل هو الولادة الإلهية فإنها بصاحبة وغيرها مستحيلة، وعلى المجاراة أنه تعالى يلد كما يلد خلقه فالولادة بحاجة إلى والدين، والمشركون منكرون لخرق العادة في الولادة بصاحبة دون صاحب أم بصاحب دون صاحبة، وأما الولادة دون صاحبة بالقدرة الربانية فهي كائنة في خلقه ولداً من والد دون صاحبة أو دون والدين كما في آدم وكما يخلقنا الله يوم القيامة مرة أخرى حيث ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ دون صلب ولا رحم، ولكنه مستحيل أن يلد الله بصاحبة أم دون صاحبة حيث الصحبة والولادة لما فيهما من مجانسة بين والد وما ولد، كما بين صاحب وصاحبة، هي عليه مستحيلة، ولا مسانخة بين المجرد اللامحدود والمادي المحدود، فكما المجرد لا يتحول مادة بكلّه أو جزء منه حيث لا

---

(١) نور الثقلين ١ : ٧٥١ المجمع عن أبي جعفر عليه السلام، وفي تفسير البرهان ١ : ٥٤٥ عن سدير الصيرفي قال سمعت حمران بن أعين يسأل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل : ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: ١١٧] فقال أبو جعفر عليه السلام : إن الله عز وجل أبدع الأشياء كلها بعلمه على غير مثال كان قبله فابتدع السماوات والأرضين ولم يكن قبلهن سماوات ولا أرضون أما تسمع لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هُود: ٧].

جزء له، كذلك لا يتزاوج مع مادة لاستحالة اللقاء تداخليا بين المجرد والمادة.

ولو قيل بصاحبة هي إلهة كما الله فهما مجردان، فتعدد المجرد غير المحدود مستحيل، ثم المجرد لا يحتاج إلى ولادة، ولو ولد لم يلد إلّا المجرد، والجن والملائكة وغيرهما ممن اتخذوا للرحمن ولداً كلهم من عالم المادة.

وأما قولة البعض من المسيحيين أن مريم عليها السلام هي صاحبة الله فقد أولد بها المسيح عليه السلام فهي غير واردة في حقول المشركين، ثم هي ماردة في الحقول الكتابية، وفي كافة الحقول العقلية، حيث المجرد اللّامحدود لا يتجزأ بانفصال جزء محدود منه ينتقل إلى رحم امرأة أماهية.

إذاً فـ ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ إنما تواجه من لا يعرف له صاحبة، ثم تعارض القائل أن له صاحبة باستحالتها في ساحة الألوهية، ثم العادة الجارية أن لا ولادة إلّا بأم صاحبة وسواها، فـ «لم تكن» هي أعم من «لن تكون» سلباً لصاحبة له في حقل المعرفة المألوفة وفي حقل العقلية السليمة، فلو فرض له صاحبة فاستحالة الولادة بينهما قائمة بحالها أن لا يتحول المجرد مادة، ثم الضرورة قائمة بمجانسة الوالدين، وأية مجانسة بين المجرد والمادة؟ فالولادة المادية من والد مجرد عن المادة مستحيلة على أية حال، سواء يتجزأ جزءً منه أم بتحوله إلى مادة هي الولد، فكلّ أنواع الولادة بصاحبة ودون صاحبة مستحيلة على الله.

وكيف يكون له ولد أم تكون له صاحبة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من أولاد وصاحبات ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ولا يعلم لنفسه ولداً ولا صاحبة، ثم وكيف يحتاج الخالق إلى مخلوق ولداً وصاحبة، أحاجة إلى المحتاج إليه في خلقه وقد كان ولم يكن معه شيء؟!.

فليس الخالق لشيء والداً له بأي معنى يدعى، فالذي يصدقه تعالى خالقاً لكلّ شيء ومنها هؤلاء الذين يزعمونهم أولاد الله أو بناته، فكيف يُخرق للخالق ولادة إلهية، وبين الخلق والولادة بون عظيم، لضرورة المجانسة في الولادة، وضرورة المباينة في الخلقة، فالولد جزءٌ من الوالد وليس المخلوق جزءاً من الخالق.

فالوالد يلد ما يلده من ذاته، والخالق يخلق ما يخلقه بديعاً بمشيئته، يخلق لا من شيء كالمادة الأوَّلية المخلوقة لا من شيءٍ، أو يخلق من شيء خلَقه قبل، فلا يخلق من شيءٍ ذاته فإنه ولادة، ولا من شيءٍ غير مخلوق له فإنه إشراك في الخالقية!.

ذلك، ثم الصاحبة للإيلاد إنما هي لمصاحبها كوناً وكياناً ولا مصاحبة بين المجرد عن المادة والمادة، ثم لا شهوة للمجرد تقتضي مصاحبة الصاحبة لو كانت له ممكنة، ومن ثم فتوليد الولد بشهوة وصاحبة غير محتاج إليه لمن خلق كلَّ شيء بديعاً.

والقول إن صاحبة الله إلهة كما الله فيولد بينهما إله ثالث، مردود أولاً باستحالة التعدد في الله، ثم الوليد لو أمكن يجب أن يكون مجرداً عن المادة كما الله، فليس المسيح عليه السلام على أية حال ولداً لله!.

فهؤلاء المشركون مهما جهلوا الكثير من الحق هم عارفون قاعدة التكاثر الولادي أن يكون للوالد صاحبة أنثى من جنسه.. فكيف يكون لله ولد ولم تكن له صاحبة؟.

وقول البعض من المسيحيين أنه عليه السلام مولود غير مخلوق تناقض بين يشبهه قول آخرين من غيرهم أن العالم قديم زمني على حدوثه!.

ذلك، فالولادة الربانية - المختلفة بطبيعة الحال عن الخلقة - هي مستحيلة بكلّ الوجوه، تبدلاً لذاته التجردية اللانهائية إلى ذات محدودة

جسمانية، أو انتقالاً لجزء منه تعالى إلى رحم وسواه يصبح ولداً، إذ لا جزء له، أو اتخاذاً تشريفياً مجازياً في عبارة «الولد» حيث المجاز إنما يجوز فيما تجوز فيه الحقيقة، فلما استحالت الولادة الإلهية حقيقياً فالمجازي كذلك مستحيل، وعلى فرض الإمكان مجازياً فـ ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[1]!

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢)﴾:

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ العظيم العظيم ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ جميعاً دون أن يكون له شريك أو أن يتخذ شريكاً أو ولداً ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من عابدين ومعبودين ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فليس له أي وكيل أو بديل، بل هو الذي يكلّ أمر كلِّ عليل وكليل.

ولأن الوكالة الربانية هي ولايته الطليقة لخلقه تدبيراً لما هم عنه عاجزون، فلا تدخل هذه الوكالة في حقل التوكيل، فالوكالة الخلقية أحياناً بحاجة إلى توكيل وأخرى لا تحتاج لأنها ولاية لا تحتاج إلى جعلٍ من المولّى عليه، والله وكيل لمن توكلّ عليه أم لم يتوكلّ.

ذلك وإنَّ تفرُّد الله تعالى بالخَلق يُفرده سبحانه بالمُلك، والمتفرد بهما يتفرد في كافة شؤون الربوبية ومن أبرزها المعبودية وتقدير العباد.

فـ ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ برهان حاسم لكونه إله كلّ شيء ومقدِّره ورازقه ومدبِّره، ولأنه إله كلّ شيء وخالق كلِّ شيءٍ، ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ لا سواه، ولأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فليس له وكيل في ألوهيته أو ربوبيته حتى يصلح للعبادة والتدبير بديلاً عن الله أو وكيلاً عنه فضلاً عن مثيل.

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

وخالقيته تعالى لكلِّ شيءٍ أصل قرآني علمي عقلي فطري. فـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾(١) فـــــ ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾(٢) ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾(٣) ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾(٤).

وهنا ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ هي الأشياء الممكن إيجادها ذاتياً ومصلحياً، فغير الممكن ذاتياً هو اللّاشيء المطلق فلا تشمله ﴿شَيۡءٖ﴾ وغير الممكن مصلحياً وإن كان شيئاً بإمكانيته الذاتية ولكنه لا شيء باستحالته المصلحية، فالقصد من ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ هو الممكن في حكمة الخلق ومصلحيته.

أجل ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ بصورة طليقة تشمل غير الممكن مصلحياً، ولكنها في حقل فعلية الخلق، المشروطة بالمصلحة الخلقية، تتقيد بكونها شيئاً يصلح للتكوين.

ولأن من ﴿شَيۡءٖ﴾ الأرواح كلها فلا يصح القول أن هناك عالم الخلق الخاص بخلق الماديات وعالم الأمر الخاص بالمجردات سناداً إلى ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ حيث الأمر هنا هو أمر تدبير الخلق، ولغة الأمر لا تناسب - فقط - إيجاد المجردات، بل هو في حقل الإيجاد يعني طليق الإيجاد: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٥) فإن ﴿لِشَيۡءٍ﴾ تعم كلَّ شيء.

ذلك، وفي الأصل لا مجرد في الكون إلّا الله فكيف يعني الأمر إيجاد المجردات، فعالم التكوين لا يخلو من مادة أو طاقة مادية، وكلٌّ وليدة

(١) سورة الرعد، الآية: ١٦.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٣.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٢.
(٤) سورة غافر، الآية: ٦٢.
(٥) سورة النحل، الآية: ٤٠.

الأخرى، حيث المادة تتبدل بانبثاقها إلى طاقة، والطاقة بتكثفها وتعقُّدها تتبدل إلى مادة، والأصل الأصيل لهما هو المادة الأولية المخلوقة قبل كلّ شيء، المخلوق منها كلّ شيء.

ف ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ تحلِّق على كافة الكائنات المخلوقة بقرينة ﴿خَلِقُ﴾ وليس الشيء الخالق مخلوقاً حتى يفتَّش عن خالقه، إذ ليس الشيء بما هو شيء بحاجة إلى خالق، إنما هو الشيء المخلوق غير الأزلي، فحين يُسأل: إذا كان الله خالق كلّ شيء فمن هو الذي خلق الله؟ فالجواب:

ليس الله مخلوقاً حتى يسأل عن خالقه، وليس الوجود بما أنه وجود بحاجة إلى موجد، إنما هو الوجود الحادث، ولو أن الخالق كان بحاجة إلى خالق كخلقه لاستحال وجود كلّ شيء خالقاً ومخلوقاً قضية التسلسل غير الناهي إلى شيء غير مخلوق(١).

ولئن سُئلنا: إذا كان الله خالق كلّ شيء كما هو قضية توحيده في الخالقية، فشيء الظلم والعصيان وكلّ سوءٍ وضرر أياً كان مشمولة ل ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ والنتيجة براءة المتخلفين عما يعملون من سوءٍ، ولأن أعمالهم السيئة داخلة في ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ فهي كلها مخلوقة لله تعالى؟ وقد صرحت آيات بأن لنا أفعالاً كما نختار ومنها التالية: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾(٢)!.

فالجواب أولاً أن ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ هي الموضوعات الأصيلة في الخلق، دون العوارض الاختيارية لها التي هي حصيلة الاختيار، ثم الفعل يعبَّر عنه بنفسه دون الخلق فمن فعل فعلاً لا يقال إنه خلقه.

---

(١) راجع الفرقان ٢٣: ٣٧٤ في ظل الآية ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ...﴾ [الرّعد: ١٦] والحوار بين الإلهيين والماديين تحت عنوان «من خلق الله»؟!

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٤.

وثانياً أن الاختيار شيء خلقه الله في المختارين للاختبار، ثم تحقق الشيء المختار له واجهتان، أولاهما واجهةُ فاعلية المختار خيراً أو شراً، وثانيتهما واجهة خلق العمل المختار، وليس الله ليخلق خيراً أو شراً من مثلث الأقوال والأحوال والأعمال إلّا بعد اختيار المختار، فـ «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين» وليس الخالق الأصيل في هذا البين إلّا الله، حيث خَلَق المختار باختياره، ثم يخلق ما يختاره دون تسيير، فأين الجبر إذاً وأين كون الشرور من خلق الله دونما اختيار من أهله؟.

أجل، والأعمال المختارة تنتهي إلى الاختيار والله هو خالق المختار والاختيار، فإنما الاختيار هو للاختبار ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1] مهما لا يحصل واقع الكفر والإيمان إلّا بمشيئة الله بعد اختيار المختار، مشيئة لولاها لاستحال تحقيق الاختيار في كافة الحقول.

ففي خلق الشيطان من الجان وسائر الشيطان في أنفس الجان والإنسان حكمة الاختبار في عالم التكليف الاختيار، لولا ذلك الخلق بجنب سائر الخلق لم يكن اختبار في اختيار، وعالم التكليف هو مجموعة اختبارات في اختيارات.

ولا تعني مثل ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2] أن فعل الظلم - وهو من الأشياء - خارج عن ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ مخلوقٍ له تعالى، فإنما تعني سلب الإجبار والتسيير في مثل الظلم، فأما إرادة تحقق الظلم بعد كلّ المحاولات المختارة من الظالم فهي ليست من الله ظلماً بل هي من العدل تطبيقاً لواقع اللختيار في ظلمهم وعدلهم، كما وهي قضية توحيد الربوبية، فما من فعلٍ

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

قالاً وحالاً وأعمالاً إلّا وللّه فيه المشيئة سلباً في سلبها وإيجاباً في إيجابها، وذلك من المعني في «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين».

إذاً فـ «أفعال العباد مخلوقة خلق تقدير لا خلق تكوين والله خلق كل شيء ولا نقول بالجبر والتفويض»(١).

ذلك! وكما نسمع الله تعالى يقول ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾(٢) و﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾(٣) - ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾(٤) مع ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾(٥) وما أشبه تدليلاً على أن الله ليس بمنعزل فاعليةً عن الخيرات والشرور، ولكنها فاعلية ربوبية غير مسيِّرة، مهما كانت في الخيرات ميسَّرة وفي الشرور دونها، وكما في حديث قدسي: «يا ابن آدم أنا أولى منك بحسناتك وأنت أولى مني بسيئاتك».

ذلك، واستغراق كلّ شيء لكلّ شيءٍ دونما استثناء هو فقط قضية توحيده تعالى في الخالقية فالربوبية بكلّ حلقاتها، فلو تفلَّت شيءٌ - وإن كان واحداً - عن هذه الخالقية الطليقة لنقصت الخالقية الموحدة وانتقضت!.

وترى خالقيته لكلِّ شيءٍ تبطل قانون العليه والمعلولية في الكائنات؟

كلَّا حيث العلة التامة لا توجد في الكائنات أبداً، اللّهم إلّا مقتضيات إذا انضمت إليها إرادة الله تعالى تحققت وإلّا فلا تحقق كما في نار نمرود لإبراهيم الخليل عليه السلام، حيث أصبحت برداً وسلاماً بأمر الجليل.

---

(١) نور الثقلين ١: ٧٥١ في عيون أخبار الرضا عليه السلام بإسناده إلى الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنه قال: . . .
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٣.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.
(٤) سورة النمل، الآية: ٤.
(٥) سورة النمل، الآية: ٢٤.

ذلك، ثم ولا منافاة بين العلل العرضية والطولية، فالعلل العرضية تعمل آثارها بمقتضياتها وإرادة الله، ثم الله من وراءِ كافة العلل والمعاليل رقيب عتيد فـ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾[١] كنموذج من نماذج الإرادة الإلهية في كلّ ظروف العلية.

ففي تعطيل الإرادة الربانية تفويض، كما في تعطيل سائر العلل جبر، وفي الجمع بينهما - كما يناسب عدله تعالى وفضله وحكمته - أمر بين أمرين.

إذاً فلا مخصِّص عقلياً أو علمياً أو شرعياً لـ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ في نطاق خلقته تعالى، وذلك قضية توحيد الربوبية في كلّ شيءٍ دون إبقاء.

فـ «اعلم علَّمك الله الخير أن الله تبارك وتعالى قديم والقدم صفة دلت العاقل على أنه لا شيءَ قبله ولا شيءَ معه في ديمومته، فقد بان لنا بإقرار العامة مع معجزة الصفة أنه لا شيء قبل الله ولا شيء مع الله في بقائه وبطل قول من زعم أنه كان قبله أو معه شيء وذلك أنه لو كان معه شيء في بقائه لم يجز أن يكون خالقاً له لأنه لم يزل معه فكيف يكون خالقاً لمن لم يزل معه، ولو كان قبله شيء كان الأول ذلك الشيء لا هذا وكان الأول أولى بأن يكون خالقاً للثاني»[٢].

أترى - بعد - أن الله خلق كلّ شيء من شيء كان معه أو قبله؟ وذلك

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

(٢) المصدر في العيون عن الرضا عليه السلام في باب ما كتبه عليه السلام للمأمون من محض الإسلام وشرايع الدين.

وفيه بإسناده إلى حمدان بن سليمان قال كتبت إلى الرضا عليه السلام أسأله عن أفعال العباد أمخلوقة هي أم غير مخلوقة؟ فكتب: أفعال العباد مقدرة في علم الله تعالى قبل خلق العباد بألفي عام.

أقول: يعني من «خلق تقدير» أمراً بين أمرين ومن خلق تكوين الجبر.

نقض لتوحيد الأزلية! أم خلق كلّ شيء من العدم؟ وليس العدم مادة الإيجاد!، أم خلق كلّ شيءٍ من شيء ذاته؟ وذلك ولادة وليس خلقاً!.

إنه خلق الأشياء من الخلق الأوّل المسمى بالماء: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[(١)] وخلق المادة الأولى لا من شيء، لا من لا شيء ولا من شيء معه أو قبله، فخلقُه الشيء الأوّل لم يكن له ما يُخلق منه، فإنما خلَقه بإرادته دون أصل إلّا هي خلقاً دون ولادة فـ«إن صانع كل شيءٍ فمن شيء صنع والله الخالق اللطيف الجليل خلق وصنع لا من شيء»[(٢)].

وفي حوار للإمام الصادق عليه السلام مع الزنديق حيث قال: «من أي شيء خلق الأشياء؟ الإمام عليه السلام: لا من شيء.

الزنديق: فكيف يجيء من لا شيء شيءٌ؟

الإمام عليه السلام: إن الأشياء لا تخلو أن تكون خلقت من شيء أو من غير شيء.

فإن كانت خلقت من شيءٍ كان معه فإن ذلك الشيء قديم لا يكون حديثاً ولا يفنى ولا يتغير، ولا يخلو ذلك الشيء من أن يكون جوهراً واحداً ولوناً واحداً فمن أين جاءت هذه الألوان المختلفة والجواهر الكثيرة الموجودة في هذا العالم من ضروب شتى، ومن أين جاء الموت إن كان الشيء الذي أنشأت منه الأشياء حياً، أو من أين جاءت الحياة إن كان ذلك الشيء ميتاً، ولا يجوز أن يكون من حي وميت قديمين لم يزالا، لأن الحي لا يجيء منه ميت وهو لم يزل حياً، ولا يجوز أيضاً أن يكون الميت قديماً لم يزل بما هو به الموت، لأن الميت لا قدرة له ولا بقاء[(٣)].

---

(١) سورة هود، الآية: ٧.

(٢) نور الثقلين ١: ٧٥٥ عن أصول الكافي عن أبي الحسن عليه السلام في حديث طويل: إن صانع...

(٣) بحار الأنوار ٩: ٦٤ و١٦٦ وهي من غرر الحاجات الجامعة لدررها.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾:

هذه من أمهات الآيات المحكمات تعريفاً بالله تعالى شأنه، مفسِّرة لكافة المتشابهات التي يخيَّل فيها أنه تعالى يُبصر ببصر أو ببصيرة.

فالإدراك هو الوصول كيفما كان، و﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ جمع البصر الشامل لبصر العين، وبصر البصيرة، فطرياً أو عقلياً أو قلبياً أم في أسر الأسرار فهي أبصر من بصر العين، فلأن المُبَصر قد يكون محسوساً وأخرى غير محسوس، فالأبصار تعم باصرة المحسوسات وسواها.

و﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ بحق اللطافة التي لا تُدرك بحقيقة الذات وذاتيات الصفات بوحدتها مع الذات، بل ولا الأفعال، إلّا أن يُري الله من أفعاله شطراً بعض عباده المخلصين كما يمكن أن يُرى.

ذلك فالحيطة العلمية والمعرفية على الله مستحيلة لمن سوى الله وعلى حد قول رسول الله ﷺ في ضوء الآية: «لو أن الجن والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا صفُّوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً»(١) والصف الواحد هو في حقل المحاولات المعرفية لتلك الإحاطة.

هنا ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ طليقة في استغراق أي زمان أو مكان أو أيّاً كان من كائن غير الله في مثلث النشآت، حيث الأبصار بحدودها كليلة عن إبصاره تعالى فإنه اللّامحدود والمجرد الطليق عن كلّ حد، فليس محسوساً حتى يحس ولا مجسوساً حتى يُجَسَّ ولا ملموساً حتى يُلمس فـ «لا يحس ولا يُجس ولا يُمس ولا يدرك بالحواس الخمس» ولا بغيره من إدراكات الأبصار وأبصار الإدراكات في أي حقل من الحقول ولأي عقل من العقول، فـ «كلما ميزتموه بأوهامكم فهو مخلوق لكم مثلكم مردود إليكم».

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٧ - أخرج ابن أبي حاتم والعقيلي وابن عدي وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ...﴾ قال: . . .

﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ لا تعني - فيما عنت «لا تعرفه» حيث المعرفة الممكنة المأمور بها لا تعني إدراكه بمعرفة كهذه، كما لا تعني ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ - فقط - أبصار العيون، حيث الجمع المحلَّى باللّام يحلِّق على كافة الأبصار في أي إبصار، سواء في هذه السلبية الطليقة أبصار عيون الإبصار أو أسرار البصائر، بصائر الفِطَر والعقول والقلوب والألباب والأفئدة أماهية من وسائل الإبصار.

فلأن ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ هي من ميِّزاته تعالى عن خلقه، فإبصارٌ واحد من واحد في أيٍّ من النشآت وفي أي حقل من حقوله من أي مبصِر ينقض هذه الميِّزة ويسوِّيه بخلقه سبحانه في أصل الإبصار.

ولو أن ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ اختصت بأبصار العيون لما اختصت ذاته بعدم الإبصار حيث إن من المادة أو الطاقة المادية ما لا تدركه الأبصار، و«إن أوهام القلوب أكبر من أبصار العيون فهو لا تدركه الأوهام وهو يدرك الأوهام»(١) ف «إياكم والتفكر في الله، لا يزيد إلّا تيهاً إنَّ الله عزّ وجلّ لا تدركه الأبصار ولا يوصف بمقدار»(٢) «ولم تدركه الأبصار فيكون بعد انتقالها حائلاً»(٣).

ذلك، فكما أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، كذلك ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ في ذلك المثلث المقدس، حيث إن إبصاره إدراكاً له يشبهه بخلقه المبصَرين.

ولئن قلت: «فإنا روينا أن الله قسَّم الرؤية والكلام بين نبيين فقسم لموسى الكلام ولمحمد صلى الله عليه وآله وسلم الرؤية؟! نقول:

---

(١) نور الثقلين ١: ٧٥٣ عن كتاب التوحيد بإسناده إلى أبي هاشم الجعفري عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سألته عن الله عزّ وجلّ هل يوصف؟ فقال: أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قال: فتعرفون الأبصار؟ قلت: بلى قال: وما هي؟ قلت: أبصار العيون، فقال: إن..

(٢) المصدر عن أمالي الصدوق بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام قال:...

(٣) المصدر عن كتاب التوحيد خطبة لعلي عليه السلام يقول فيها:...

فَمن المبلغ عن الله إلى الثقلين من الجن والإنس أنه ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1]؟ أليس محمد ﷺ؟.. بلى.

فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله ويقول: إنه لا تدركه الأبصار - ولا يحيطون به علماً - وليس كمثله شيء، ثم يقول: أنا رأيته بعيني، وأحطت به علماً وهو على صورة البشر؟ أما تستحيون! - ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا، أن يكون أتى عن الله بأمر ثم يأتي بخلافه من وجه آخر... وحين يقال:

فتكذب بالرواية؟! نقول: إذا كانت الرواية مخالفة للقرآن كذبتها وما أجمع المسلمون عليه أنه لا يحاط به علماً ولا تدركه الأبصار وليس كمثله شيء..»[2].

ومما يحير العقول تقديم الرواية المختلقة في رؤية الله على محكمات القرآن وأدلة العقول، مما يدل على أن مختلقيها والمتمسكين بها ليسوا من أرباب العقول.

ذلك، وإلى خطب توحيدية للرسول ﷺ وعترته المعصومين عليهم السلام نبهة غالية على ضوء القرآن:

فمن خطبة للرسول ﷺ: «الحمد لله الذي كان في أوليته وحدانياً وفي أزليته متعظماً بالإلهية متكبراً بكبريائه وجبروته، ابتدأ ما ابتدع وأنشأ ما خلق

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٢) بحار الأنوار ١٠: ٣٤٣ - ٣٤٧، حوار للإمام الرضا عليه السلام مع أبو قرة المحدث صاحب شبرمة وفيها بعدما ختمنا به في المتن: قال أبو قرة: فأين الله، قال عليه السلام الأين مكان وهذه مسألة شاهد عن غائب والله تعالى ليس بغائب ولا يقدمه قادم وهو بكل مكان موجود مدبر صانع حافظ ممسك السماوات والأرض...

على غير مثال كان سبق، ولا لشيء مما خلق، ربنا اللطيف بلطف ربوبيته، وبعلم خُبره فتق، وبإحكام قدرته خلق جميع ما خلق، وبنور الإصباح فتق، فلا مبدل لخلقه، ولا مغير لصنعه، ولا معقب لحكمه، ولا رادَّ لأمره، ولا مستراح عن دعوته، ولا زوال لملكه، ولا انقطاع لمدته، وهو الكينون أولاً والديموم أبداً، المحتجب بنوره دون خلقه في الأفق الطامح، والعز الشامخ، والملك الباذخ، فوق كل شيء علا، ومن كل شيء دنا، فتجلى لخلقه من غير أن يكون يُرى، وهو بالمنظر الأعلى، فأحب الاختصاص بالتوحيد إذا احتجب بنوره، وسما في علوه، واستتر عن خلقه...»(١).

و«... إن الخالق لا يوصف إلّا بما وصف به نفسه، وكيف يوصف الخالق الذي يعجز الحواس أن تدركه، والأوهام أن تناله، والخطرات أن تحده، والأبصار عن الإحاطة به، جل عما يصفه الواصفون، نأى في قربه وقرب في نأيه، كيّف الكيفية فلا يقال له: كيف؟ وأيّن الأين فلا يقال له: أين؟ هو منقطع الكيفوفية والأينونية، فهو الأحد الصمد كما وصف نفسه والواصفون لا يبلغون نعته، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد...»(٢).

ومن خطبة خطبها وزير الرسول ﷺ وخليفته علي عليه السلام بعد موته ﷺ:

«الحمد لله الذي أعجز الأوهام أن تنال إلّا وجوده، وحجب العقول عن

---

(١) البحار ٤: ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٢) المصدر، وفيه قدم عليه ﷺ يهودي يقال له نعثل فقال يا محمد! إني سائلك عن أشياء تلجلج في صدري منذ حين، فإن أنت أجبتني عنها أسلمت على يدك، قال ﷺ سل فقال يا محمد صف لي ربك فقال: «إن الله... قال صدقت يا محمد أخبرني عن قولك أنه واحد لا شبيه له أليس الله واحداً والإنسان واحد فوحدانيته أشبهت وحدانية الإنسان؟ فقال ﷺ: الله واحد وأحدي المعنى والإنسان واحد ثنوي المعنى، جسم وعرض وبدن وروح فإنما التشبيه في المعاني لا غير، قال: صدقت يا محمد!».

أن تتخيل ذاته في امتناعها من الشبه والشكل، فارق الأشياء لا على اختلاف الأماكن، وتمكن منها لا على الممازجة، وعلمها لا بأداة لا يكون العلم إلّا بها، وليس بينه وبين معلومه علم غيره، إن قيل كان فعلى تأويل أزلية الوجود، وإن قيل لم يزل فعلى تأويل نفي العدم، فسبحانه وتعالى عن قول من عبد سواه واتخذ إلهاً غيره علواً كبيراً»(١).

ومن خطبة له عليه السلام خطبها في مسجد الكوفة: «الحمد لله الذي لا من شيءٍ كان ولا من شيء كوَّن ما قد كان، المستشهد بحدوث الأشياء على أزليته، وبما وسمها به من العجز على قدرته، وبما اضطرها إليه من الفناء على دوامه، لم يحل منه مكان فيُدرك بأينية، ولا له شبح مثال فيوصف بكيفية، ولم يغب عن شيءٍ فيعلم بحيثية، مباين لجميع ما أحدث في الصفات، وممتنع عن الإدراك بما ابتدع من تصريف الذوات، وخارج بالكبرياء والعظمة من جميع تصرف الحالات، محرَّم على بوارع ثاقبات الفطن تحديده، وعلى عوامق ثاقبات الفِكَر تكييفه، وعلى غوائص سابحات النظر تصويره، لا تحويه الأماكن لعظمته، ولا تذرعه المقادير لجلاله، ولا تقطعه المقاييس لكبريائه، ممتنع عن الأوهام أن تكتهنه، وعن الأفهام أن تستغرقه، وعن الأذهان أن تمثله، قد يئست من استنباط الإحاطة به طوامح العقول، ونضبت عن الإشارة إليه بحار العلوم ورجعت بالصفر عن السموِّ إلى وصف قدرته لطائف الخصوم...»(٢).

ومن خطبة له عليه السلام حين استنهض الناس في حرب معاوية: «الحمد لله الواحد الأحد... وغار في ملكوته عميقات مذاهب التفكير، وانقطع دون

---

(١) البحار ٤: ٢٢١، هي الخطبة التي خطبها بعد موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتسعة أيام حينما فرغ من جمع القرآن.

(٢) المصدر ٢٢١ - ٢٢٣.

الرسوخ في علمه جوامع التفسير، وحال دون غيبه المكنون حجب من الغيوب، تاهت في أدنى أدانيها طامحات العقول في لطيفات الأمور، فتبارك الذي لا يبلغه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، وتعالى الله الذي ليس له وقت معدود ولا أجل ممدود ولا نعت محدود...»[١].

ومن كلام له في ماهيته تعالى تأويلاً للصمد: «لا اسم ولا جسم ولا مثلَ ولا شبه ولا صورة ولا تمثال ولا حدَّ ولا حدود ولا موضع ولا مكان ولا كيف ولا أين ولا هنا ولا ثمة ولا ملأ ولا خلأ ولا قيام ولا قعود ولا سكون ولا حركة ولا ظلماني ولا نوراني ولا روحاني ولا نفساني ولا يخلو منه موضع ولا على لون ولا على خطر قلب ولا على شمٍّ رائحة منفي عنه هذه الأشياء»[٢].

ومن خطبة للإمام الحسن المجتبى عليه السلام: «الحمد لله الذي ليس له أوَّل معلوم، ولا آخر متناه، ولا قبل مدرَكٌ ولا بعَدٌ محدود، ولا أمد بحتَّى، ولا شخص فيتجزَّءُ، ولا اختلاف صفة فيتناهى، فلا تدرك العقول وأوهامها ولا الفِكَر وخطراتها، ولا الألباب وأذهانها صفتَه فيقول متى؟ ولا بدءَ مما؟ ولا ظاهر على ما؟ ولا باطن فيما؟ ولا تارك فهلَّا؟...»[٣].

ومن كلام للإمام الحسين عليه السلام حول التوحيد: «أيها الناس اتقوا هؤلاء المارقة الذين يشبهون الله بأنفسهم يضاهؤون قول الذين كفروا من أهل الكتاب، بل هو الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، وهو الواحد الصمد، ما تُصوِّر في الأوهام فهو خلافه، ليس بربٍ من طُرح تحت البلاغ، ولا بمعبود من وجُد

(١) المصدر.
(٢) المصدر ٣: ٢٣٠ عن ابن الحنفية عنه عليه السلام.
(٣) المصدر ٤: ٢٨٩.

في هواءٍ أو غير هواء... احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار وعمن في السماء احتجابه عمن في الأرض...»(١).

ومن خط الإمام الرضا عليه السلام: «لا تشمله المشاعر ولا يحجبه الحجاب، فالحجاب بينه وبين خلقه لامتناعه مما يمكن في ذواتهم، ولإمكان ذواتهم مما يمتنع منه ذاته، ولافتراق الصانع والمصنوع والرب والمربوب»(٢).

ومن حوار له عليه السلام مع زنديق يقول له: «فلم احتجب»؟ فيقول عليه السلام: إن الحجاب على الخلق لكثرة ذنوبهم، فأما هو فلا تخفى عليه خافية في آناء الليل، فلا تدركه حاسة البصر؟ للفرق بينه وبين خلقه الذين تدركهم حاسة الأبصار منهم ومن غيرهم، ثم هو أجل من أن يدركه بصر أو يحيط به وهم، أو يضبطه عقل...»(٣).

ومن حوار له عليه السلام مع سائل في جواب كيف هو وأين هو؟ قال عليه السلام: «ويلك إن الذي ذهبت إليه غلط، وهو أيّن الأين وكان ولا أين، وهو كيَّف الكيف وكان ولا كيف، فلا يُعرف بكيفوفية ولا بأينونية ولا بحاسة ولا يقاس بشيء، قال الرجل: فإذاً إنَّه لا شيء إذا لم يدرك بحاسة من الحواس؟ فقال عليه السلام: ويلك لما عجزت حواسك عن إدراكه أنكرت ربوبيته! ونحن إذا عجزت حواسنا عن إدراكه أيقنا أنه ربنا وأنه شيءٌ بخلاف الأشياء...»(٤).

ومن حوار للإمام الصادق عليه السلام مع الزنديق: الزنديق: كيف يَعبد الله الخلق ولم يروه؟.

---

(١) المصدر ٤: ٣٠١.
(٢) المصدر.
(٣) المصدر ٣: ٣٦ ح ١١ وفيه أخيراً «فما برح الزنديق حتى أسلم».
(٤) نور الثقلين ١: ٧٥٤ في عيون الأخبار.

الإمام عليه السلام: رأته القلوب بنور الإيمان وأثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان وأبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف، ثم الرسل وآياتها والكتب ومحكماتها، واقتصرت العلماء على ما رأت من عظمته دون رؤيته.

الزنديق: أليس هو قادراً أن يظهر لهم حتى يروه ويعرفوه فيُعبد على يقين؟.

الإمام عليه السلام: ليس للمحال جواب[1] ذلك، فاختصاص ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ بأبصار العيون، أو اختصاصها أيضاً بدركها إياه يوم الدنيا، ذلك كله اجتثاث لميزة الربوبية الخاصة.

فـ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ تحلق على كلّ زمان، كما أن ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ تحلق على كافة الأبصار، بل وصدقها على أبصار القلوب أحرى من أبصار العيون فـ ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ إذ لا يعني الإبصار فيها والعمى إلّا إبصار القلوب وعماها[2] كما و﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾[3] [4] وقد تكفي عناية البصائر من الأبصار بجنب عناية العيون لعناية الاستغراق في ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

---

(١) المصدر ٩: ٦٤ و١٦٦.

(٢) نور الثقلين ١: ٧٥٢ في كتاب التوحيد بإسناده إلى عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، قال: ما أحاطه الوهم، ألا ترى إلى قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٤] ليس يعني بصر العيون ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٠٤] ليس يعني من البصر بعينه ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤] لم يعن عمى العيون إنما عنى إحاطة الوهم كما يقال فلان بصير بالشعر وفلان بصير بالفقه وفلان بصير بالدراهم وفلان بصير بالثياب، الله أعظم من أن يرى بالعين.

(٣) سورة النازعات، الآيتان: ٨، ٩.

(٤) من آيات تلكم الأبصار: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣] =

بل والإدراك أيضاً ليس في الأغلبية الساحقة إلّا بحق القلوب، وأما العيون فحقها «لا ترى - لا تبصر» وما أشبه.

وكما نرى آيات الإدراك كلها تعني الوصول وهو فعل القلب أم واقع الوصول دون العيون التي لا تجد إلّا صوراً منعكسة عن الواقع قد تخطأ(١).

أجل ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لعِللها وكلَلَها بحدودها وقيودها، ولأنه تعالى لا يُحسُّ ولا يُجسُّ ولا يُمسُّ ولا يُدرك بالحواس الخمس وسائر الإدراك.

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لحيطته على كلّ شيء، أنّه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ثم: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ لطيف لا يُدرَك، ولطيف يُدرِك كلّما يُدرك أو لا يُدرَك، لطيف عن كلّ الأبصار، ولطيف الإبصار لكلّ الأبصار، لطيف في ذاته وفي أفعاله وصفاته، لطيف في صنعه، لطيف في عطفه ولطفه «لطيف لطف بخلق ما سميناه بلا علاج ولا أداة وإن صانع كل شيء فمن شيءٍ صنع، والله الخالق اللطيف الجليل خلق وصنع لا من شيء»(٢).

= ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥] ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧] ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمّد: ٢٣].

(١) مثل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ [يونس: ٩٠] ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ [يس: ٤٠] ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨] ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١].

(٢) نور الثقلين ١: ٧٥٥ عن أصول الكافي عن الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن عليه السلام... فقولك ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فسره لي كما فسرت الواحد فإني أعلم أن لطفه على خلاف لطف خلقه للفعل غير أني أحب أن تشرح لي ذلك فقال عليه السلام يا فتح! إنما قلنا اللطيف للخلق اللطيف لعلمه بالشيء اللطيف أو لا ترى وفقك الله وثبتك إلى أثر صنعه في النبات اللطيف وغير اللطيف ومن الخلق اللطيف ومن الحيوان الصغار ومن البعوض ومن الجرجس وما هو أصغر منها لا يكاد تستبينه العيون بل لا يكاد يستبان لصغره=

فليس «اللطيف على قلة وقضافة وصغر ولكن ذلك على النفاذ في الأشياء والامتناع من أن يدرك. . .»[١].

ذلك هو اللطيف «وأما الخبير فالذي لا يعزب عنه شيءٌ ولا يفوته، ليس للتجربة ولا للاعتبار بالأشياء، فعند التجربة والإعتبار علمان ولولاهما ما علم، لأن من كان كذلك كان جاهلاً، والله لم يزل خبيراً بما خلق، والخبير من الناس المستخبر عن جهل، المتعلم، وقد جمعنا الاسم واختلف المعنى»[٢].

ذلك! وما أجهله وأحمقه من يستدل بهذه الآية على جواز رؤيته تعالى، سناداً بأن امتداحه بـ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ لا يصح إلّا بإمكانية رؤيته، حيث المعدوم المطلق أيضاً لا تدركه الأبصار وليس بحقه مدحاً[٣].

ولكن خفي عليه أن امتناع إدراك ذاته هو امتداح لها، يعني تجرده اللّانهائي، وعدم إبصار المعدوم ليس إلّا لسلب الموضوع، وأما الموضوع الموجود الممتنع إبصاره للخلق لتجرده اللانهائي، فذلك له غاية الامتداح.

ولأن ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ هنا أبصار الخلق، فإبصاره تعالى ذاته خارج عن

= الذكر من الأنثى والحدث المولود من القديم فلما رأينا صغر ذلك في لطفه واهتدائه للفساد والهرب من الموت والجمع لما يصلحه وما في لجج البحار وما في لحاء الأشجار والمفاوز والقفار وإفهام بعضها عن بعض منطقها وما يفهم به أولادها عنها ونقلها الغذاء إليها ثم تأليف ألوانها حمرة مع صفرة وبياض مع حمرة وأنه ما لا يكاد عيوننا تستبينه لدمامة خلقها لا تراه عيوننا ولا تلمسه أيدينا علمنا أن خالق هذا الخلق لطيف. . .

(١) المصدر عنه عليه السلام حديث طويل وفيه «وأما اللطيف فليس. . . كقولك للرجال لطف عني هذا الأمر ولطف فلان في مذهبه، وقوله يخبرك أنه غمض فيه العقل وفات الطلب وعاد متعمقاً متلطفاً لا يدركه الوهم، فذلك لطف الله تبارك وتعالى عن أن يدرك بحد أو يحد بوصف واللطافة منا الصغر والقلة فقد جمعنا الاسم واختلف المعنى».

(٢) المصدر ٧٥٦ عن أصول الكافي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام. . . .

(٣) ذكره الفخر الرازي في تفسيره ١٣ : ١٢٤.

سلبية الإبصار لكلّ الأبصار، فإبصاره تعالى بين ما هو لزام ذاته كإبصاره تعالى ذاته وما هو في حزام وامتناع وهو إبصاره تعالى لخلقه أن يبصروه.

فإبصار المحدود بأية أبصار ممتنع بالنسبة للّامحدود، ثم إبصار اللّامحدود لذاته هو لزام علمه بذاته، وإبصار محدود لمحدود ممكن في ذاته.

ففي مثلث الأبصار، ليست الزاوية الواجبة لتفرض المستحيلة، ولا المستحيلة لتحيل الواجبة، كما الممكنة لا تفرض سواها كما لا تُحيل!.

وأما أن «الأبصار» جمع الاستغراق وسلبه سلب لذلك الاستغراق اللّامح لثبوت الرؤية لبعض الأبصار؟ فغريب في نوعه، حيث الاستغراق في موضع السلب استغراق للسلب لا سلب للاستغراق حتى يلمح لثبوت البعض، ولو عني سلب الاستغراق لكان الصحيح «لا تدركه كل الأبصار».

وكذلك القول إن بالإمكان أن يخلق الله حساً سادساً يوم القيامة به يُرى الله؟ حيث الأبصار تعم كافة الحواس والإدراكات الظاهرة والباطنة أينما كانت وأيان! وما يخلقه الله - فيما يزعم - من أبصار، محدود لأنه من خلقه، وليس للمحدود أن يحيط على اللّامحدود، ثم وهو غير مجرد عن المادة، وليس للمادي أن يدرك غير المادي فإن وسائل الإدراك محدودة بحدودها، والمسانخة بين المدرِك والمدرَك من لزامات الإدراك.

ذلك، ولمّا يخاطَب موسى عليه السلام في حقل رؤيته تعالى بـ«لن تراني» المحيلة لرؤيته لموسى على أية حال، فبأن يُحيل رؤيته تعالى لغير موسى أحرى.

والقول إن الرؤية نوعان ثانيهما الرؤية مع الإحاطة وهي الإدراك، فنفي الإدراك إنما ينفي هذه الثانية دون الأولى، مردودٌ بأن ذلك إنما يصح في المرئي المتجزئ فقد يرى بعضه دون بعض، وأما المجرد الصمد الذي لا

تركُّب فيه فسلب إدراكه هو سلب رؤيته إذ لا تنقسم رؤيته إلى هذين القسمين إحاطة ودونها، اللّهم إلّا أن تعني الرؤيةُ غير المحيطة وهي المعرفة الممكنة لله تعالى.

وأما أن الآيات الدالة على رؤيته تعالى تخصص عموم الاستغراق في سلب إدراكه تعالى، فذلك نقش بالنفخ على الحجر، إذ ليست هنا آية ولا لمحة أن الله تعالى يرى، اللّهم إلّا رؤية المعرفة الممكنة وهي ليست إدراكاً له تعالى، لأنه الوصول والحيطة على ذاته، ومجرد الرؤية هي مجرد المعرفة دون حقها فضلاً عن حق الإدراك، وهكذا تعني ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾(١) كما تفسرها ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾(٢) فلقد رآه دون إدراك بفؤاده المتفئد بنور المعرفة الممكنة لأعلى قممها حيث إنه ﷺ ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾(٣).

ذلك، وختاماً للبحث عن الرؤية ختماً لها حتماً نقول، إن المحدود أيّاً كان ليس ليحيط على غير المحدود وهو الإدراك، إلّا أن يتحول المحدود إلى اللّامحدود، أو اللّامحدود إلى المحدود، فأي بصر يتصور لا يمكن أن يدرك الله تعالى، لا بصراً حيث الأبصار المادية ليست لتدرك إلّا المبصرات، فلكلّ آلة للإدراك حقلُه الخاص، فكما لا يُبصر بالأذن، ولا يُسمع بالبصر، فبأحرى استحالة ألا يُحَسّ غير المحسوس بأية حاسة من الحواس، ثم ولا بصيرة لمكان المحدودية.

فحين نتخطى عن إدراكه بأبصار العيون، فأبصار البصائر أيضاً عليلة كليلة عن أن تدركها لاستحالة إدراك المحدودِ اللّامحدودَ.

---

(١) سورة النجم، الآية: ١٣.
(٢) سورة النجم، الآية: ١١.
(٣) سورة النجم، الآيتان: ٨، ٩.

والقول: إن بإمكان ربنا أن يرينا نفسه بقدرته الطليقة ورحمته الواسعة؟ مردودٌ بأن القدرة فضلاً عن الرحمة لا تتعلق بالمحال، إذ لا سبيل إلى إدراك ذاته إلّا اللّامحدودية الربانية كما الله، وهي ليست بالتي تُخلق، حيث اللّامحدود غني الذات، وكونه مخلوقاً يخرجه عن غناه الذاتي، والمحال - ولا سيما الذاتي - هو محال على أية حال، وتعلق القدرة بما يخيَّل إلينا أنه محال يخرجه عن الاستحالة.

ذلك ومن خطب لعلي أمير المؤمنين عليه السلام حول استحالة إدراكه تعالى ورؤيته: «وامتنع على عين البصيرة»[(١)] «لم يُطلع العقول على تحديد صفته»[(٢)] - «لا تقع الأوهام له على صفة، ولا تعقد القلوب منه على كيفية، ولا تناله التجزأة والتبعيض، ولا تحيط به الأبصار والقلوب»[(٣)] - «هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته، وحاول الفِكَر المبرَأُ من خطرات الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، وتولّهت القلوب إليه لتجري في كيفية صفاته، وغمضت مداخل العقول في حيثُ لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته، ردعها وهي تجوب مهاوي سُدَف الغيوب متخلِّصة إليه سبحانه، فرجعت إذ جُبهت معرفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنَه معرفته، ولا تخطر ببال أولي الرويّات خاطرة من تقدير جلال عزته»[(٤)]. «فتبارك الذي لا يبلغه بعد الهمم ولا يناله حدس الفطن»[(٥)].

فـ «لم تره العيون فتخبر عنك، بل كنت قبل الواصفين من خلقك»[(٦)]، و«كيف يصف إلهه من يعجز عن صفة مخلوق مثله»[(٧)] «فلسنا نعلم كنه عظمتك، إلّا أنّا نعلم أنّك حي قيوم، لا تأخذك سنة ولا نوم، لم ينته إليك

(١) ٤٩/١٠٦.
(٢) ٣٩/١٠٦.
(٣) ٨٩/١٦١.
(٤) ٨٩/١/١٦٢.
(٥) ٩٢/١٨٥.
(٦) ١٠٧/٢٠٨.
(٧) ١١٠/٢١٨.

نظر ولم يدركك بصر، أدركتَ الأبصار، وأحصيت الأعمال، وأخذت بالنواصي والأقدام، وما الذي نرى من خلقك، ونعجب له من قدرتك، ونصفه من عظيم سلطانك، وما تغيب عنا منه، وقُصرت أبصارنا عنه، وانتهت عقولنا دونه، وحالت ستور الغيوب بيننا وبينه أعظم، فمن فرَّغ قلبَه، وأعمل فكره، ليعلم كيف أقمت عرشك، وكيف ذرأت خلقك، وكيف علَّقت في الهواء سماواتك، وكيف مددت على مور الماء أرضك، رجع طرفه حسيراً، وعقله مبهوراً، وسمعه والهاً، وفكره حائراً»[1] فـ «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان»[2].

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾:

﴿بَصَآئِرُ﴾ جمع بصيرة، وعلّها هنا فاعلة مبصِرة ومفعولة، حيث الآيات القرآنية آيات ربانية مبصرة ربانيتها بنفسها، مبصِرة كلّ الحقائق التي يتوجب على المكلفين معرفتها، وقد تعني ﴿بَصَآئِرُ﴾ كافة البصائر مهما كانت القرآنية منها أعلاها.

تلك البصائر الجائية كلّ المكلفين إلى يوم الدين: ﴿... قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّىۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3] وهي شريعة من الأمر: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا... هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[4].

«هذا» هنا إشارة - فيما تشير - إلى القرآن ككلّ، وحدة جامعة لآياته، و﴿بَصَآئِرُ﴾ خبر للقرآن اعتباراً بآياته البصائر، والرسول ﷺ والذين معه حملاً للمسؤولية الرسالية الإسلامية يدعو ويدعون على بصيرة هي بصيرة

(١) ١٥٨/ ٢٨٠.
(٢) ١٧٧/ ٣٢٠.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٣.
(٤) سورة الجاثية، الآيات: ١٨-٢٠.

وحي القرآن: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١).

وكما ﴿ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾(٢). كذلك آيات الله بصائر، فكلٌ من الداعية والمدعو بصيرة، دون أية عمىً إلّا ما يختلقه الإنسان من غشاوة وغباوة.

فالقرآن ليس بحاجة للشهادة على وحيه إلى بصيرة أخرى دونه، بل هو الشهيد بين الله وبين الناس لرسالة المرسل به: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ...﴾(٣).

أجل، فالبصائر ليست جمع الباصرة الخاصة بالعين الظاهرة، بل هي جمع البصيرة، فطرية وعقلية وعلمية وحسية، بالوحي أماهية، فلا عمى فيها اللهم إلّا بتعمية عليها وتجديل، أو تنحية عنها وتحويل.

فالفطرة الإنسانية بصيرة، وعقليته بصيرة، وقلبه بصيرة، وحواسه بصيرة، والقرآن بصيرة، ونبي القرآن بصيرة، ودعوته بصيرة، ومصيرته ومسيرته بصيرة، أبواب ثمان من البصائر الربانية عدد أبواب الجنة فتحت علينا ونحن بعد عمون، تعمية لهذه البصائر وتجاهلاً عنها.

ومما يشهد لعناية البصائر كلّ بصيرة تكوينية وتشريعية ﴿مِن رَّبِّكُمْۖ﴾ حيث الربوبية للمكلفين تشمل جانبي التكوين والتشريع.

ذلك، مهما كانت البصائر الأنفسية وسائل صالحة للحصول على بصائر الوحي، حيث البصائر الوسائل ليست معصومة يكتفى بها فيما يتوجب على

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.
(٢) سورة القيامة، الآية: ١٤.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

المكلفين من أصول وفروع، فإنما هي حجج للحصول على تصديق الأصول، ومن ثم الفروع التي تتبنى الأصول.

فالحجة البالغة الربانية هي بصائر الوحي رسولياً ورسالياً، والحجج الباطنة هي ذرائع بالغة للبلوغ إلى تلك الحجج البالغة.

ومن غريب الوفق التوافق العددي بين البصر والبصيرة، فإن كلّا متكررة بمختلف الصيغ (١٤٨) مرة في القرآن.

ذلك، ومن بصائر الوحي حامله المرسل به ﷺ فإن حياته ولا سيما الرسالية منها بصائر تشرق بأنوار الهدى ابتعاداً عن الردى، فإنه المنذر المبشر بالقرآن، بصيرة معصومة بما عصم الله، ينذر ويبشر بهذه البصائر ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾(١).

فحين تفتح أبصار القلوب إلى بصائر القرآن فهنالك الإبصار التام ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ بالبصائر القرآنية، فاتحاً بصيرته ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ ومن عمى عنها ﴿فَعَلَيْهَا﴾ حيث أعمى على نفسه تلكم البصائر ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾(٢) فليس ليظل ضالاً مع هذه البصائر إلّا معطل الحواس، مغلق المشاعر، مطموس الضمير، المتغافل المتجاهل كالحمير، بل هو أضل سبيلاً.

ذلك ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾(٣) من ربي لأحملكم على بصائره فتهتدون، إنما أنا نذير بها ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾.

أجل، فالقرآن البصائر هو مادة الهدى، ورسول القرآن هو الداعية بها،

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٠٨.

دون حَوْل له ولا طَوْل في الحمل على الهدى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ١٠٥﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ المبصِر المبصَر بالحجة البالغة الدامغة ﴿نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ بوحي القرآن، وآفاقية وأنفسية، تصريفاً في تكرير البيان، ردّاً من حالة إلى أخرى، تحليقاً على كلّ الأحوال المبصرة للعقول والقلوب، إخراجاً لها عن الأوحال في كلّ الأحوال.

ولأن التصريف هو تكثير الصرف: الرد من حال إلى حال، فتصريف الآيات البصائر هو تكثير ردها إلى مختلف الأحوال المبصرة دون إبقاءٍ لبصيرة على أية حال.

ذلك ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ هذه الآيات عن كتابات السماء عند علمائها، أم أية تقوُّلة ليست لتصارع بصائر القرآن، فلا دور في معرض الفِطَر والعقول لفرية اختلاق القرآن من دون وحي، حيث القرآن هو نفسه حجة بالغة لإثبات وحيه لأعلى قممه المرموقة ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[٢]!.

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾: القرآن، بتصريف الآيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحقَّ عن الباطل، ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ لهذا الرسول حول قرآنه ﴿دَرَسْتَ﴾ قولة ذاهبة في الأثير هباءً لا سناد لها، فليقولوا إذاً أين درس ذلك الدرس الذي يفوق كافة دروس الوحي فضلاً عن سائرها؟ هل درسه عند علماء الكتاب، والقرآن مهيمن على وحي الكتاب، نقضاً للمدسوس فيه، وتكميلاً لما نقص، وترميماً لما تقلّص، فكيف يكون القرآن - إذاً - درساً عن سائر الكتاب

(١) سورة النحل، الآية: ٩.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٤.

بعلمائه أو سواهم، ولأنه أعلى من كلّ كتب السماء محتداً؟ فليكن كلّ تلميذ أعلم ممن تلمذ عليه! إذاً فلتكن التوراة درساً عن أساطير الأولين اكتتبها موسى فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً!.

وليكن - كذلك - كلّ كتاب نابغٍ نابعاً عما دونه من كتاب، وهكذا الأمر في كلّ ناصع واصب من العلوم والأفكار، نابعة من منابع خليطة بكلّ غث وسمين وكلّ خائن وأمين!.

وكيف يقولون ﴿دَرَسْتَ﴾؟ ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1] ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[3] - ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾[4] [5].

أجل إنه ﷺ درس القرآن ولكن أين؟ في مدرسة الوحي القمة، عند الله الذي يعلم السر في السماوات والأرض، كما نعلم ذلك العلم السِّر في القرآن.

فكلّ تلميذ يُعرف محتده الدراسي من درسه نفسه، فيُعرف من هو الذي

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٦.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٣.
(٤) سورة الفرقان، الآيتان: ٥، ٦.
(٥) راجع الفرقان في تفسير هذه الآيات لزيادة الاطلاع على فرية الاكتتاب والدراسة المحمدية والرد عليها.

علَّمه، ودرْس القرآن لا يناسب إلّا ساحة الربوبية في أعلى قمم الوحي الرباني.

وهكذا كان المرسلون يستدلون لرسالتهم الربانية بربانية أقوالهم وأحوالهم وأعمالهم كما نسمع رسل المسيح من الله قائلين أمام الناكرين:

﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[١] حيث يوجِّهون في ذلك البرهان العطيف اللطيف أنظار الناكرين إلى حالاتهم ومقالاتهم، برهنةً بها على محتد من أرسلهم.

وترى ما هو المعطوف عليه لـ ﴿وَلِيَقُولُواْ...﴾ وما هي المناسبة للمعطوفين المتناحرين؟ هنا معطوف عليه معروف من صوغ الكلام كـ «اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وعشياً» و«إنه سحر يؤثر» أو شعر أو كهانة أم به جنة، ولكي تكمل حجة الله البالغة على الذين يعلمون أو لا يعلمون، ثم لا ضير إذاً أن يقول المجاهيل: ﴿دَرَسْتَ﴾ فاللّام في ﴿وَلِيَقُولُواْ...﴾ تعني - فيما تعنيه - غايةً للمجاهيل في واجهة القرآن، فإن كلّ محاولاتهم في إسقاط حجة القرآن البالغة داحضة فليقولوا درست أم أية قولة أو احتيالة ضده، ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فقالة ﴿دَرَسْتَ﴾ هي قالة الذين لا يعلمون تقصيراً منهم حسيراً وتحسيراً قصيراً لا يبلغون فيه إلى غايتهم المضللة، وقد تكون اللام للغاية، غاية للذين كفروا امتحاناً لهم فامتهاناً، كما هي غاية للذين آمنوا، غاية شاردة أو واردة.

ذلك، وقد تصلح ﴿دَرَسْتَ﴾ غاية ربانية إلى غايتهم حيث ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[٢] - ﴿يُضِلُّ

(١) سورة يس، الآية: ١٦.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(١) ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾(٢) ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةًۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًاۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾(٣).

وقد تعني «اللام» في «ليقولوا» الأمر، فهو أمر تعجيز، أم بيان حال لهم تقتضي هذه القولة، فلا عطف إذاً مع أمر الأمر، وقد تعني الواو كلا العطف والاستئناف جمعاً بين الغاية والأمر، والحاصل هو مثلث المحتملات.

أجل ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ العميق الهدى العريق المدى ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ حجة بالغة لا تبقى معه حجة لمن يقول ﴿دَرَسْتَ﴾ وتكون حجة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وهكذا تكون حجة الله البالغة قاطعة للأعذار حيث لا يتبقى معها أية عاذرة إلّا ماردة شاردة غادرة.

ذلك، وكيف تعقل فرية درس القرآن بما ليس نابعاً من بيئتهم ولا بيئة أهل الكتاب، فلا عهد للبشر على طول زمن الرسالات - فضلاً عن سواها - أن يجدوا ذلك المستوى السامق الشاهق الرفيع في صيغة التعبير وصبغة المعنى المعبّر عنه، فقد ينتهي ذلك التصريف الظريف في مختلف التحرّي عن الحق والتجري عليه، إلى نتيجتين متقابلتين: ﴿دَرَسْتَ﴾ و﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ...﴾ فأما الذين لا يريدون الهدى، العائشون الردى، فهؤلاء هم يحاولون أن يجدوا تعليلاً

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ١٢٤، ١٢٥.

(٣) سورة المدثر، الآية: ٣١.

لهذا القرآن، وغايتها ﴿دَرَسْتَ﴾ المنكرة في كافة الأعراف كتابية وسواها، إذ ما كان أحد من علماء الكتاب يعرف ذلك المستوى، حيث المسافة شاسعة بينه وبين سائر الكتب السماوية فضلاً عما سواها.

فالعلم - فطرياً وعقلياً وفكرياً وتجريبياً - فضلاً عن علم الكتاب - يصدق وحي القرآن: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أية مرحلة من مراحله هذه.

وأما الذين يقولون ﴿دَرَسْتَ﴾ فقد دَرَست عنهم معالم الهدى حيث تجاهلوا عن كلّ بنود العلم والمعرفة، واثّاقلوا وأخلدوا إلى أرض الجهالة والغباوة.

وحين ينقسم المرسل إليهم بهذا القرآن فريقين اثنين، يصدر أمر الله العلي العِلوي أن يتبع ما أوحي إليه، وكفاه حجة بالغة في كلّ الحقول، صوغاً لحياته - ككلّ - بصياغته، وصبغاً لها بصبغته، إذ لا حجة له أبلغ من حجته طمأنة لخاطره الشريف بذلك الوحي الظريف الطريف دون فشل ولا فتور من تقولهم ﴿دَرَسْتَ﴾ وما أشبه فإنه هباء في العراء ونقش في الماء والهواء.

فـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾(١) وما تلكم القيلات الغائلات على القرآن مما تغتاله.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

﴿ٱتَّبِعْ﴾ رسولياً ورسالياً ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من كتابه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يوحي إليك غيره ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بعد كامل الإنذار بحجج

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

الله، إعراضاً عن الإشتغال بهم بعد الإياس، وعن أن تأسف لهم أو عن أذاهم إذ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(١).

و﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هنا دون «الله» أو «رَبِّ الْعالَمِينَ» تعبيرة قاصدة، أن الذي رباك بتلك التربية الغالية هو الذي يرعاك في تلك الدعاية الرسالية، دونما فشل، فجدَّ في مصيرك بمسيرك دونما أية وقفة فربك يرعاك ولن تجد من دونه ملتحداً.

وقد تعني ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بعد أمر الإتباع - فيما عنت وقبل أمر الإعراض - أن عليك أن تحور حور ذلك المحور الوحيد من التوحيد، فلا يزعزعك الطوارئ القواصف، ولا تحركك العواصف، فلا يعني الإعراض عنهم - فيما عنى - الرضا بإشراكهم حين لا تؤثر فيهم دعوتك، فعلى الداعية أن يعلِّق أمله وعمله بالذين يسمعون الدعوة مهما قلوا، دون تعليق على من سواهم مهما كثروا إذا فلّوا.

وتراه ﷺ هنا - بعد - يؤمر بالإعراض عنهم حتى في مواصلة الدعوة؟ كلَّا! فإنها ككلّ ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾(٢) فإنما الإعراض خاص بغير حقل الدعوة الرسالية: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٣).

فذلك إعراض فيما تضر مواصلته: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ...﴾(٤) فبعد ذلك واصِلهم في دعوتكم حيث تفيد - لأقل تقدير - عذراً لك ووزراً لهم وقطعاً لحجتهم في لجتهم.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.
(٢) سورة المرسلات، الآية: ٦.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٩٤.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

وأعرض عن أذاهم فإن الله لهم بالمرصاد: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾[١] اللهمَّ إلّا فيما تؤمر بجهادهم دفاعاً وسواه.

وأعرض عن أن يؤثر في دعوتك المتواصلة تعنُّتهم وعنادهم، بل وعلى الداعية الربانية المزيد من قوة الدعوة حين يرى متصلبين في تكذيبها، متألبين في إخفاق صداها وإخناق مداها وإخماد نائرتها.

فالداعية المؤمنة يزداد قوة في دعوته حين يعرقل مسيره ومصيره بعراقيل المكذبين، دون أن يفشل في دعوته أو يخمل في رعايته.

كذلك ﴿وَأَعْرِضْ﴾ عن الرجاء فيهم أن يؤمنوا قطعاً لآمالك عنهم إذ:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾:

فـ ﴿وَلَوْ﴾ تحيل تلك المشيئة الإلهية المسيِّرة لسلبية الإشراك تكويناً، مهما شاء ألّا يشركوا تشريعاً، وكذلك المشيئة الموفِّقة لهم لترك الإشراك، فإنها تختص بمن شاء ترك الإشراك وتحرَّى عن الحق، فكما الله لا يشاء حملهم على الهدى، كذلك لا يشاء توفيقهم لها حين يستحبون الردى على الهدى، أم لا يشاؤون الهدى[٢].

فاعلم يا رسول الهدى أنهم ليسوا في إشراكهم بالله متغلبين على مشيئة الله، فـ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ فإن قضية الرحمة والحكمة الربانية التخيير بعد الدلالة دون إجبار وتسيير، فمن استرحم الله رحمه ومن أعرض عن الله حرمه، ضابطة ثابتة في حقلي الضلال والهدى.

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٣٠.

(٢) نور الثقلين ١: ٧٥٦ عن مجمع البيان في تفسير أهل البيت عليهم السلام «لو شاء الله أن يجعلهم كلهم مؤمنين معصومين حتى كان لا يعصيه أحد لما كان يحتاج إلى جنة ولا إلى نار ولكنه أمرهم ونهاهم وامتحنهم وأعطاهم ماله عليهم به الحجة من الآلة والاستطاعة ليستحق الثواب والعقاب».

ذلك ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحافظ عليهم شاؤوا أم أبوا، فإنما أنا الحفيظ فيما يجب الحفاظ أم هو راجح، ثم:

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تكلّ أمر ضلالهم وهداهم، فلا وكالة ولا حفاظة ولا نيابة للرسول ﷺ - فضلاً عمن سواه - على أحد في تكوين أو تشريع، في تسيير أم توفيق أماذا من غير رسالة الله حملاً ودعوة ودعاية.

إذاً فلا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون، ولا تأسف على ما يضلون فإنْ هم إلّا مضلي أنفسهم وما يشعرون.

ذلك! ومن الإعراض عنهم عدم مقابلتهم بمثل ما هم قائلون أو عاملون، أو سبهم أم سب آلهتهم التي ألهتْهم فيسبوا الله عدواً بغير علم:

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۢ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾:

السب لغوياً هو الشتم الوجيع، وهو النسبة السيئة غير الواقعة، أو الواقعة التي تستحق الشر، وأما السيئة الجاهرة الظاهرة أو التي يجب إفشاءها حفاظاً على الأهم فقد لا يسمى إظهارها بقال أو فعال سباً مهما حسبها صاحبها سباً.

ثم ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ قد تعم كلا العابدين[(١)] والمعبودين[(٢)]، فـ ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ هم من دون الله، هم المعبودون و﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ غير الله ﴿مِن دُونِ

(١) نور الثقلين ١: ٧٥٧ في أصول الكافي بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه: وإياكم وسب أعداء الله حيث يسمعونكم فيسبوا الله عدواً بغير علم.

(٢) المصدر عن تفسير القمي حدثني أبي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال سئل عن قول النبي ﷺ: إن الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ليلة ظلماء؟ فقال كان المؤمنون يسبون ما يعبد المشركون من دون الله فكان المشركون يسبون ما يعبد المؤمنون فنهى الله المؤمنين عن سب آلهتهم لكيلا يسب الكفار إله المؤمنين فيكون المؤمنون قد أشركوا بالله من حيث لا يعلمون فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟...﴾ [الأنعام: ١٠٨].

اللَّهِ﴾ هم العابدون، وكلاهما يرجعان إلى عبادة ما سوى الله فهي - إذاً - مصب السب المنهي عنه، سباً للمعبودين أم والعابدين ولكن سب المعبودين هو الذي يحرض العابدين على أن يسبوا الله.

وليس التحريم هذا أصلياً حيث إن هذه العبادة - والمعبودين - تستحق الشتم الوجيع، بل هو مَصلَحي لحرمة الاستسباب ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(١).

وهذه ضابطة ثابتة أن الأمر المباح في نفسه بل والراجح أو الواجب، وجاه الغير إذا سبَّب محظوراً أشد منه أصبح محظوراً بذلك السبب، ولا تشمل الواجبات الشخصية كأن تصلي وهي تسبِّب الهزء من الدين، أو تترك الخمر وهو يسبب ما أشبهه من هزء وسواه، فإن فرائض الله سلبياً وإيجابياً ليست لتُترك حيث تسبِّب تخلفات الآخرين، فهل تحرم الدعوة إلى الله ببالغ الحجة إذا سببت التكذيب بها من الكافرين؟!.

فإنما المحظور هو أن توجه إلى المتخلفين عن الله، أو إلى معبوديهم خطاباً وعتاباً يسبب سبَّ الله أم سواه من حرمات الله، وبإمكانك أن تسكت أو تغيِّر التعبير جدالاً بالتي هي أحسن.

ذلك، وليس سبُّ الذين يدعون من دون الله من قضايا الدعوة إلى الله، بل وقد يبعِّدهم أكثر مما هم، أو يَحرضهم على سبِّ الله عدواً بغير علم، وهم معترفون بالله في أصله، مهما أشركوا به ما سواه(٢).

---

(١) نور الثقلين ١ : ٧٥٧ في الكافي عن أبي جعفر ﷺ قال: في التوراة مكتوب فيما ناجى الله جلّ وعزّ به موسى بن عمران ﷺ يا موسى اكتم مكتوم سري في سريرتك وأظهر في علانيتك المداراة عني بعدوي وعدوك من خلقي ولا تستسب لي عندهم بإظهار مكتوم سر فتشرك وعدوك عدوي في سبي.

(٢) الدر المنثور ٣: ٣٨ عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا. . .﴾ [الأنعام: ١٠٨] قال: قالوا يا محمد لتنتهين عن سبب آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدواً بغير علم.

ذلك، وأما حجاجات المرسلين وسواهم، المذكورة في الكتاب والسنة[(١)] التي تزري العابدين مِن دون الله والمعبودين، فليست هي من السب، فإنها تحمل إيجاب الحق وسلب الباطل بالتي هي أحسن، فمثل ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ﴾[(٢)] حيث تعني إبعاد العابد والمعبود عن الحق، أو ﴿لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾[(٣)] إخباراً عن بُعدهم عن الله أو ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾[(٤)] إظهاراً للواقع المنكور لعامله حتى يُجتنب، كلّ ذلك لا تعدوا بيان الواقع المنكور في مقام الحجاج بلجاج المحتجِّ عليه، أم تسويله واحتياله للبسطاء اختلاساً لهم عن الحق المرام إلى باطل المَرام، وليس فيها شتم وجيع فرية وما أشبه من خلاف الحق، فسبيل الحق لا تتحمل خلاف الحق.

فإنما طبيعة الحال في الحجاج التزييف ببرهان، والمحظور هو السبُّ دون برهان، أو خليط منهما، وأما البرهان المزيِّف، وهو طبيعة حال الحجاج، فليس داخلاً في النهي فإنه تبيينٌ للحق، وإلّا لكانت الحجاجات الحقة كلها محظورة، لأنها كلها تثبت الحق من ناحية وتبطل الباطل من أخرى، فإحقاق الحق وإبطال الباطل بساطع البراهين المثبتة للحق، المزيفة للباطل ليس شتماً فضلاً عن الوجيع.

---

(١) كـ ﴿لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البَقَرَة: ٨٨] فإنه بيان واقع أن بعدهم الله بكفرهم بالله، وكذلك ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدّثر: ١٩] و﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عَبَس: ١٧] و﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبيَاء: ٦٧] و﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [القلم: ١٢-١٣] فهذه كلها بيان للواقع دعوة إلى الحق وحظراً عن الباطل وتحذيراً عن وقعه بين أهل الحق، فإنما السب ما ليس في بيان الواقع والحق وتزييف الباطل، فالدعوة إلى الله لها متطلبات واقعية لا يحظر عليها أبداً.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٦٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٨.

(٤) سورة القلم، الآيتان: ١٢، ١٣.

ف ﴿وَلَا تَسُبُّوا . . .﴾ لا تعني - فيما عنت «لا تحتجوا» فإنما تشترط في الحجاج أن تكون بالتي هي أحسن، قصداً إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل ولو كره الكافرون، أو احتسبوه سباً وليس به.

ولو أن كلّ تعريض بالكفار تلزمه الحجاج بالتي هي أحسن كان محظوراً، لحُظر على كافة الدعوات الرسالية، فإن قضيتها الأصلية إحقاق الحق وإبطال الباطل، وذلك يغيض الكافر البغيض للحق الحفيظ للباطل.

ثم وليس دور النهي في الآية أصل السب، بل هو الاستسباب، فأما السب اعتداءً بالمثل، أو السب بياناً لواقع السوء في الذي تسبه تنبيهاً له وللآخرين حتى لا يتدنس المجتمع، أو السب الذي هو لزام الحجاج بالتي هي أحسن، فلا محظور فيه مهما سببت سبّاً هو أدنى من واقع الباطل المحتال المختال، وعلى أية حال فرعاية الأهم في دوران الأمر بينه وبين المهم ضابطة ثابتة لا حِوَل عنها ولا محيد.

فالحاصل أن بيان الواقع الذميم ولا سيما في الحجاج ليس سباً، إنما السب هو نسبة الباطل كما هو لغوياً هو الشتم الوجيع، فليس كلّ وجيع شتماً وليس كلّ شتم وجيعاً، إنما هو الفرية السوء فإنها وجيعة لكلّ أحد.

إذاً فبيان الواقع السوء ولا سيما في مقام الحجاج المصلح للسيئ أم وللآخرين، ليس ذلك سباً مهما سبّب سباً، وهنا دور تقديم الأهم على المهم.

فالغيبة أو الفرية محرمة بصورة طليقة ولا سيما مع الإهانة الزائدة وهي السب، وأما بيان الواقع دونما إهانة زائدة فليس من السب في شيء، فإنما السب هو نسبة الباطل غير الواقع بصورة موجعة كأن تقول لعابد الطاغوت ابن الفاعلة أم وللطاغوت الذي ليس وليد زنا ابن الفاعلة.

وترى سب الذين يدعون من دون الله إنما يحظر عليه إذا سبب - فقط - سب الله؟ وأما ولي الله فلا؟ وسبه لولايته لله هو سب الله!.

نعم، إنه محظور كما السب الذي يسبب سب الله، مهما كان الله نفسه تعالى وتقدس هو الأصل في ذلك الحظر[(١)].

ذلك وذكر مثالب أعداء الله حين يستجر مثالب على الله وأوليائه، كذلك محظور محظور، فـ «إذا سمعوا مثالب أعداءنا بأسمائهم سبونا بأسمائنا...»[(٢)].

---

(١) نور الثقلين ١ : ٧٥٧ عن عمر الطيالسي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا...﴾ [الأنعام: ١٠٨] قال فقال عليه السلام يا عمر هل رأيت أحداً يسب الله؟ قال: فقلت: جعلني الله فداك فكيف؟ قال: من سب ولي الله فقد سب الله.

(٢) المصدر ٨: ٧٥ في عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من الأخبار المتفرقة حديث طويل وفي آخره قال عليه السلام : إن مخالفينا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على أقسام ثلاثة أحدها الغلو وثانيها التقصير في أمرنا وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا فإذا سمع الناس الغلو كفروا شيعتنا ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم سبونا بأسمائنا وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا...﴾.

أقول: ولا يدخل في حقل السب هذا الذم العادل المنبِّه القادح لمن هو قادح كما نجد في آيات عدة وروايات، ومما ذم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بعض المستحقين للذم: يقول في الأشعث بن قيس وقد اعترض عليه أثناء خطابه عن التحكيم - وكان من أصحابه ثم خرج عليه -: ما يدريك ما عليّ مما لي، عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين، حائك ابن حائك منافق ابن كافر، والله لقد أسَرَك الكفر مرة والإسلام أخرى، فما فداك منهما مالك ولا حَسَبك وإن امرؤٌ دل على قومه السيف، وساق إليهم الحتف، لحريٌّ أن يمقته الأقرب، لا يأمنه الأبعد» (الخطبة ١٩ / ٦٣).

وقال في مصقلة بن هبيرة الشيباني الخارج عليه بعد التحكيم الهارب إلى معاوية قبَّح الله مصقلة، فعل فعل السادة وفرَّ فرار العبيد، فما انطق مادحه حتى أسكته، ولا صدَّق واصفه حتى بكَّته، ولو أقام لأخذنا ميسوره وانتظرنا بماله وفورُه» (١٠٢ / ٤٤) وقال في مروان الحكم حيث أخذ أسيراً يوم الجمل فاستشفع الحسنين عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام فكلماه فيه فخلى سبيله فقالا له: يبايعك يا أمير المؤمنين فقال عليه السلام : أوَ لم يبايعني بعد مقتل عثمان، لا حاجة لي في بيعته، إنها كف يهودية لو بايعني بكفه لغدر بسبته - استه - أما إن له إمرة كلعقة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبُش الأربعة، وستلقى الأمة منه ومن وُلده يوماً أحمر» (٧١ / ١٢٨).

وقال عليه السلام لعثمان ينصحه: «فلا تكونن لمروان سيِّقة يسوقك حيث يشاء بعد جلال السن وتقضي العمر» (١٦٢ / ٢٩٢).

=

وترى إن هم سبوا الله أم أهل الله دون سبٌّ منا إلّا الدعوة إلى الله فهلّا يجوز لنا سبّهم أو سب آلهتهم اعتداءً بالمثل؟.

طبعاً نعم حيث لا تشمله آية الحظر، اللهم إذا ازدادوا به سباً لله، ورعاية الأهم مفروضة على أي حال، ولا أهمَّ حظراً من سب الله، فالاستسباب محرم على أية حال وكذلك التسابُّ إذا سبب مزيد السب لله ولأهل الله.

= ويخبر عن حجاج الثقفي: أما والله ليسلّطن عليكم غلام ثقيف الذيّال الميّال، يأكلّ خَضِرتكم ويذيب شحمتكم إيه أبا وذْحَةَ: - الخنف، التي لدغته حتى ماتت -.

وفي المغيرة بن الأخنس حين وقعت مشاجرة بينه عليه السلام وبين عثمان فقال الأخنس: إن أكفيكه فقال عليه السلام: يا ابن اللعين الأبتر، والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع، أنت تكفيني؟ فوالله ما أعز الله من أنت ناصره، ولا قام من أنت مُنهضه، أخرج عني أبعد الله نواك، ثم أبلغ جهدَك، فلا أبقى الله عليك إن أبقيت» (١٣٣ / ٢٤٧).

وقال عليه السلام للبرج بن سهر الطائي: اسكت قبحك الله يا أثرم - ساقط الثنية من الأسنان - فوالله لقد ظهر الحق فكنت فيه ضئيلاً شخصك، خفياً صوتك، حتى إذا نعر الباطل نجمتَ نجوم قَرن الماعِز» (١٨٢ / ٣٣٣).

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد ابن أبيه وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه: وقد عرفتُ أن معاوية كتب إليك يستنزل لُبك، ويستقل غَربك: - يثلم حدثك ونشاطك - فاحذره فإنما هو الشيطان، يأتي المرءَ من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ليقتحم غفلته، ويستلب غرَّته: - ساذج عقله - وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطاب فلتة من حديث النفس، ونزعة من نزعات الشيطان، لا يثبت بها نسب، ولا يستَحق بها إرث، والمتعلق بها كالواغل المدفع: - المحاجَز - والنوط المذبذب» (٢٨٣ / ٥٠١).

ومن كتاب له عليه السلام إلى المنذر بن الجارود العبدي وقد خان في بعض ما ولاه من أعماله: «أما بعد فإن صلاح أبيك ما غرَّني منك، وظننت أنك تتبع هديه، وتسلك سبيله، فإذا أنت فيما رقّي إلي عنك، لا تدع لهواك انقياداً، ولا تُبقي لآخرتك عَتاداً، تعمر دنياك بخراب آخرتك، وتصل عشيرتك بقطيعة دينك، ولئن كان ما بلغني عنك حقاً لجملُ أهلك وشسع نعلك خير منك، ومن كان بصفتك فليس بأهل أن يسد به ثغر، أو يُنفد به أمر، أو يُعلى له قدر، أو يشرَك في أمانة، أو يؤمَن على خيانة، فأقبل إليّ حين يصل إليك كتابي هذا إن شاء الله» (٣١٠ / ٥٥٩).

ذلك وإذا سبب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تركاً لمعروف أو فعلاً لمنكر ولا سيما سب الله فذلك الأمر والنهي منكران.

وترى كيف يسب المشركُ الله وهو معترف بالله قائلاً ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾(١)؟.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لا يختص بالمشركين، بل والذين يدعون المادة ناكرين وجود الله، ثم والمشركون قد يسبون الله ﴿عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ حين تُسب آلهتهم ﴿عَدۡوَۢا﴾: تجاوزاً، وتعامياً عما يعتقدون من ألوهية الله ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ جهلاً أو تجاهلاً مقصراً بجنب الله.

بل وقد يسب المسلم ربه حين يتغيَّظ فلا يملك لسانه فـ «يسب الله عدواً بغير علم» والعدو هو التجاوز عن الحد، ولا تجاوز أحدّ وأعدى من سب الله!.

و﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ عدلاً منا حكيماً، فتزيين الصالحات للصالحين جزاءً بما أصلحوا، وتزيين الطالحات للطالحين بما أفسدوا ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾(٢).

والتزيين قد يكون واقعياً يستوي فيه المؤمن والكافر ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾(٣) ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾(٤).

وأخرى ابتلائياً جزاءً بالسيئات وهو أن يظهر عمل أو مال أو حال بمظهر المرغوب من الشهوات الحاضرة، مهما كانت قذرة حاذره.

وثالثة أن تزين هذه أكثر مما هي، أماهية من تزيينات غير واقعية تضلل.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.
(٢) سورة الصف، الآية: ٥.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٧.
(٤) سورة النور، الآية: ٣١.

فاللذات المنحرفة في أي حقل من حقولها، انحرافاً عن سليم الفطرة أو العقلية الإنسانية أو الحس أو العلم أو عن قضية الشرعة، هي المزيَّنة أصولها، المنجرفة في شفا حُفَرها.

ثم اللذات الصادقة غير المنحرفة هي السليمة التي تصبح ذرائع لوصول الحق المرام: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾(1).

إن تزيين السيئات قد ينسب إلى الشيطان وأخرى إلى الرحمن، فحين ينسب إلى الشيطان فلأنه من هامة سعيه تضليلاً لمن يستجيبه، وحين ينسب الله إلى نفسه فلأنه لا يصدّ الشيطان عن ذلك التزيين، بل: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾(2) ﴿۞ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾(3).

لا فحسب، بل ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾(4) و﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾(5) ختماً وغشاوة بما عموا وصموا وهم يعلمون.

أجل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ العدل الحكيم ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ من أمة الخير وأمة الشر، كُلًّا كما هواه وحواه وسعاه، تزيين الخير للخيِّرين وتزيين الشر

(١) سورة الحجرات، الآية: ٧.
(٢) سورة الزخرف، الآيات: ٣٦-٣٩.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٥.
(٤) سورة الصف، الآية: ٥.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٧.

للشِّريرين، وذلك بعد الحجج البالغة في هدى النجدين لكلّ الإدراكات الصالحة، فحين يبطل الإدراك الصالح بما عطَّلوه عن صالح الإدراك فهنا يأتي دور إبطاله من الله ختماً على القلوب والسمع والأبصار.

ذلك ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، إنباءً معمقاً مكروراً يستفاد من «ينبئهم» لمكان التفعيل، أن تظهر لهم أعمالهم بمظاهرها المزينة وبحقائقها القبيحة، ثم تمثلاً لها بالعذاب.

وهنا ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إشعار آخر أنهم كانوا مخيَّرين فيما عملوا لا مسيَّرين، وأن التزيين كان من خلفيات أعمالهم القبيحة وهم كانوا يعلمون قبحها.

فليس تزيين الله لأعمال قِباح أمراً بدائياً، إنما هو جزاءٌ وفاق على الذين يعملون السيئات وهم يعلمون، ثم إذا أصروا فيها مكبين عليها ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾[1] كأنها حسنة بما ختمنا على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فأولئك هم من ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[2].

(١) سورة النمل، الآية: ٤.

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا
الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ
أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ (١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ
كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ
يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ
فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي
حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ
(١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ
إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن
يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ
عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ
اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ
كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩)

وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾:

أقسام من هذه الأقسام نسمعها من المشركين وأضرابهم من الذين كفروا، يستظهرون بها إضرابهم عن حق التوحيد والوحي والمعاد وهم كاذبون، فقد: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾(١) في أصل البعث الرسولي: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ﴾(٢) تحرراً وتحللاً عن عبءِ الرسالات، وهنا ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ...﴾ وكأنهم لم تأتهم آية، والقرآن بنفسه أبرز الآيات وأحرزها فيما هو آت من سائر الآيات(٣).

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٢.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٨.

(٣) الدر المنثور ٣: ٣٩ - أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال كلم رسول الله ﷺ قريشاً فقالوا يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر وأن عيسى كان يحيي الموتى وأن ثمود كان لهم ناقة فأتنا من الآيات حتى نصدقك فقال رسول الله ﷺ أي شيء تحبون أن آتيكم به قالوا تجعل لنا الصفا ذهباً قال فإن فعلت تصدقوني قالوا نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون فقام رسول الله ﷺ يدعو فجاء جبرائيل عليه السلام فقال له أن شئت =

وجهد أيمانهم هو بالغها القمة المستطاعة منها بكلّ تأكيد وتسديد، فقد حلفوا بالله وهم مشركون، حلفاً بما يصدقه الطرفان وذلك من جهد الإيمان حيث اليمين بالأوثان ليس من جهد الأيمان إذ لا يقبله المحلوف له الناكر إياه.

ولماذا هنا وفيما أشبه «أقسموا» دون حلفوا وأيمنوا؟ لأن الحلف المؤكد ويمينه يقسم بين الحق والباطل في المدعى، فكما أن سائر الحجج تقسم بينهما، كذلك اليمين وهي حجة من لا حجة له سواها، احتجاجاً بالمقبول عند الطرفين، فهو يقسم بين الحق والباطل، كما يقسم بين المحق والمبطل حالفاً وسواه.

فحين ينكر منكر أمَّ الآيات الربانية وقمتها فهو بأحرى ينكر سائر الآيات، وهنا الجواب: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ وليست عندي حتى أستجيبكم فيما تقترحون، فإنما هو الذي ينزلها كما يشاء لما يشاء من هدي العالمين حقاً لا عوج فيه ولا حِوَل عنه، فإنه هو العارف بما يُصلح العباد ويصلح أن يرشدهم إلى سبيل الرشاد: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾(١).

وهنا ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ إجابة تنازلية إلى جانب كونها واقعية، إن لو تنازلنا إن القرآن ليس آية رسولية، فالآيات كلها عند الله وليست عندي حتى تتطلبونها مني.

وهنا نتعرَف إلى جانب من الكيان الرسالي سلبياً أن ليست الآيات عند الرسول مهما كان تخويلاً أو تحويلاً، وإيجابياً ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾.

= أصبح ذهباً فإن لم يصدقوا عند ذلك لنعذبنهم وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم فقال: بل يتوب تائبهم فأنزل الله: ﴿وَأَقۡسَمُواْ - إلى قوله - يَجۡهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١١].

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥٠.

و﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ هنا تعني عندية العلم والقدرة والتقدير لهذه الآيات الربانية، فذلك المثلث مخصوص بالله وحده، لا يعدوه إلى سواه، فليس - إذاً - عند من سواه، لا أصيلاً ولا بديلاً أو وكيلاً أم سواه، حيث البديل الوكيل عنده ما عند الأصيل الموكِّل مهما اختلف ﴿عِندَ﴾ عن ﴿عِندَ﴾ محتداً، ولا تعني ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أن الآيات مقترحة وسواها كائنة عنده ماكنة بالفعل لديه، وإنما تعني أن له - فقط - القدرة على تكوينها والعلم المحيط بها من قبل ومن بعد.

فعندية الزمان والمكان والواقع لهذه الآيات مرفوضة عن ساحة الربوبية، وعندية العلم والقدرة والتقدير مفروضة قضية كامل الربوبية، فهي كما ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾[(١)] - ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾[(٢)] وما أشبه من عنديات ربانية سامية.

وجواب ثان عن هرطقة اقتراح آيات يخاطب به المؤمنون الراغبون إلى مزيد آيات عسى أن يؤمن هؤلاء المقترحون: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كما لم يؤمنوا بما جاءت أفضل الآيات الكافية عن سائرها وهو القرآن العظيم، فالقصد من إنزال الآيات هو إمكانية التأثير، إضافة إلى كونها صالحة كأصلح ما يكون ولكنَّهم لا يؤمنون، وليس كلامهم هذا إلّا عذراً غير عاذر.

ذلك، وحتى لو أرادوا أن يؤمنوا بمقترحات الآيات، فهو إيمان قاحل جاهل إذ رفضوا قبلها أفضل الآيات:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾:

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٢١.

فكما لم يؤمنوا بما جاءتهم من آية قاطعة أوَّل مرة تقلباً لأفئدتهم وأبصارهم من عند أنفسهم، فهناك جزاءً وفاق حيث ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تشبيهاً للعقوبة بالجريمة جزاءً وفاقاً.

ثم لا نهديهم أبداً بعدما رفضوا أهدى الهدى، بل ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أجل، إن الأفئدة المتفئدة بنور المعرفة فطرياً وعقلياً وعلمياً وعلى ضوء الوحي، قد تقلّب أفئدة متفئدة بنار الجهالة والحماقة، حيث تُغلق عليها أبوابها ومنافذها، وكذلك الأبصار، حيث «ننكِّس قلوبهم فيكون أسفل قلوبهم أعلاها، ونعمي أبصارهم فلا يبصرون الهدى»[1] فيترددون في الردى فهم ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

فلا يعني تقليب قلوبهم وأبصارهم إزالتها عن مواضعها وإقلاعها عن مناصبها، والبنية حية صحيحة متصرفة، وإنما يعني رميها بالحيرة والمتاهة جزاءً على الكفر والضلالة فتصبح الأفئدة مسترجعة لتعاظم أسباب المخاوف، والأبصار منزعجة لتوقع طلوع المكاره في الأولى، وتقليبها على قراميص الجمر في النار في الأخرى.

وهنا ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: هو المرة الأولى من مجيئهم آيات بينات، وهي القرآن العظيم لهؤلاء، وسائر الآيات قبل القرآن لمن عاشوها زمن سائر الرسالات.

---

(١) نور الثقلين ١: ٧٥٨ عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام.. وفيه قال علي بن أبي طالب عليه السلام أن أوّل ما يقلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم ثم الجهاد بألسنتكم ثم الجهاد بقلوبكم فمن لم يعرف قلبه معروفاً ولم ينكر منكراً نكس قلبه فجعل أسفله أعلاه ثم لا يقبل خيراً أبداً كما لم يؤمنوا به أوّل مرة يعني في الذر والميثاق ونذرهم في طغيانهم يعمهون أي يضلون.
أقول: الميثاق حيث يعني الميثاق الفطري والعقلي وما أشبه فمعلوم، وأما الذر فإن كان هو الميثاق الفطري وإلّا فلا تكليف في عالم قبل الخلق حتى يكون هنالك إيمان وكفر.

فكما أن آباءهم أولاءِ لم يؤمنوا بالآيات المبصَرة المبصِرة من ذي قبل، وهم أنفسهم لم يؤمنوا بالقرآن الذي هو أم الآيات، لذلك ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ. . .﴾.

ولئن سأل سائل أن لو آمنوا بآيات مقترحة فلماذا إذاً تقليب قلوبهم وأبصارهم حتى لا يؤمنوا؟.

والجواب أن ذلك - لو كان - فهو من قاحل الإيمان، رفضاً للإيمان بآيات يرضاها الله، وإقبالاً إلى آيات يشتهونها، وهكذا إيمان مهما حمل لفظه فهو حامل في الحق رفضه، فلذلك «نقلب».

وكيف لا وهم القوّالون «درست» اندراساً لأفضل آية رسالية وأكملها، وكيف يجتمع الإيمان بالله بآية مقترحة والكفر بآية حقة ربانية تدل دلالة قاطعة؟.

وسؤال ثان: هب إنهم لا يؤمنون، أولاً تزيدهم حجة فلُجَّة زائدة بكفرهم المزيد؟.

أجل، ولكنما حاذر العذاب الموعود للمكذبين إذاً حاضر حيث ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾(١) فماذا يفيد - إذاً - حجة بعد الحجة؟ وحتى لو آمنوا لا ينفع - إذاً - نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، فـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾(٢) ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾(٣) ﴿وَأَغْرَقْنَا

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾(١) ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾(٢).

وإنما تقدم تقليب الأفئدة على تقليب الأبصار، لأن الأفئدة هي المحاور للأبصار وسائر الإدراكات وكما في الخبر «القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء».

ثم و﴿كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ قد تتحمل إلى وجه الجزاء - كما بيّناه - وجهَ التشبيه، فكما لم يؤمنوا أوّل مرة فقلبنا أفئدتهم وأبصارهم، كذلك نقلبها مرة أخرى إذ لا يؤمنون.

﴿وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ على الحق ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ حيث لا نوفقهم لمعرفة الحق بعد إذ أنكروه عاندين، فيا ويلاه لمن وكله الله إلى نفسه حتى إن كان مؤمناً فضلاً عن أمثال هؤلاء المكذبين.

ثم وتأكيداً لكذبهم في دعوى الإيمان شرطَ أن تأتيهم آية أخرى كما يشتهون:

﴿۞ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾:

هنا جمع لجماع الآيات الممكنة في ذواتها أن تأتيهم في مثلث نزول الملائكة وتكليم الموتى وحشر كلّ شيء عليهم قبلاً، أنهم ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾ اللهم ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ حملاً لهم على إيمان، ولكنه خلاف حكمة الابتلاء، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾ تجاهلاً عن ذلك الواقع المرير الشرير، فأقلهم يعلمون أنهم سوف لا يؤمنون.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٦٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٧٢.

فـ ﴿وَلَوْ أَنَّنَا...﴾ تشعر هؤلاء المسلمين ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كما ويشعر هؤلاء المشركين بما هم يجهلون ويتجاهلون، مزيداً لإيمان المؤمنين، وحجةً على الكافرين، فهم - أكثرهم - يجهلون الحق وآيات الحق ودلالاتها على الحق، ظلمات بعضها فوق بعض.

وهنا «حشرنا...» غير الداخلة في مقترحاتهم تضاف إليها مزيداً لما يقترحون، لمزيد الإشعار أنهم لا يؤمنون، فهي - إذاً - حجة بالغة تحلِّق على ما يمكن اقتراحه من الآيات، ولم يذكر من اقتراحاتهم المستحيلة كإتيان الرب نفسه، إذ هو خارج عن حيطة الإمكان، فكيف بالإمكان أن يُحتج بواقع له على واقع اللّاإيمان عنده، وقد نزلت الآية بشأن مختلف اقتراحاتهم المتخلِّفة[1]!.

هنا مبررات لتقبُّل الإيمان، من مبررة الفطرة والعقلية السليمة، ومبررة الحجة السليمة البالغة، ومن ثم إرادة الله تعالى لواقع الإيمان وهي الخطوة الأخيرة من خطوات الإيمان.

فآيات الله في كلِّ حقولها هي حجج بالغة لا قاصرة في تدليلها ولا مقصرة، ولا دور للإرادة الإلهية للإيمان إلّا بعد الخطوتين الأوليين، فحين تقصُر أو تقصِّر الخطوة الأولى تجاهلاً عامداً عن الحق المُرام، فالخطوة الثانية غير مؤثرة، ثم الخطوة الثالثة ليست لتؤثر أثرها إلّا تسييراً على الإيمان أم توفيقاً يتغلب على داعي اللّاإيمان وهما متخلفان عن حكمة الابتلاء.

---

(١) في تفسير الفخر الرازي ١٣ : ١٤٩ قال ابن عباس: المستهزئون بالقرآن كانوا خمسة: الوليد ابن المغيرة المخزومي والعاص بن وائل السهمي والأسود بن عبد يغوث الزهري والأسود بن المطلب والحارث بن حنظلة ثم إنهم أتوا الرسول ﷺ في رهط من أهل مكة وقالوا له: أرنا الملائكة يشهدوا بأنك رسول الله أو ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم أحق ما تقوله أم باطل، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً أي كفيلاً على ما تدعيه فنزلت هذه الآية.

فسلطان المشيئة الربانية في تحقيق الإيمان ليس إلّا على ضوء السعي إلى الإيمان، أم ولأقل تقدير ترك العناد على الإيمان.

ف ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ في أي نازل، من وحي إليهم رسالياً، أم كلام معهم رسولياً أن محمداً ﷺ رسول من الله، وكلما هم يتطلبون من تنزيل الملائكة.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بحق الحق في هذه الرسالة بكلّ حقولها، رجوعاً لهم إلى الحياة الدنيا، أم وهم أموات غير أحياء.

أم ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ تجنيداً لكافة الكائنات لتلك الشهادة الرسالية، كوناً وكياناً وحالاً وقالاً وأفعالاً وعلى أية حال! ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ إذ لا تنقصهم الحجة على الحق، فإنما تنقصهم الفطرة المحجوبة بما حجبوها، والعقلية المكسوفة إنارتها بطوع الهوى، والمصلحيات الشهوانية الحيوانية التي يبغونها.

﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ تعني جمع كلّ شيء عليهم في تلك الشهادة ﴿قُبُلًا﴾ مقابلة لهم، فإنها جمع «قابل» مقابلة لحواسهم عياناً، أو جمع «قبيل» تعني جماعات تلوَ بعض، أم تعنيهما حيث تحشد كلّ شيء قبيلاً قبيلاً تقابلهم عياناً كما يشتهون، فإنهم لا يؤمنون ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يؤمنوا مشيئة هارفة خارقة - وعوذاً به منها - حيث المشيئة الحكيمة للإيمان ليست إلّا في حقل الانعطاف إلى الإيمان ممن يسعى له أم لا يسعى للإعراض عن الإيمان.

أجل وهؤلاء الحماقى الأنكاد هم الشياطين المعاندون للنبيين، الملقون في أمنياتهم الرسالية:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[1]. ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد. وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾[2] [3].

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الذي جعلنا لك عدواً ﴿جَعَلۡنَا...﴾ وذلك جعل تكويني أنه لم يمنعهم تسييراً أن يعادوا النبيين، حيث الدار دار الاختيار.

هنا ﴿جَعَلۡنَا﴾ مجردة عن البعث والتحريض، مع توفيق من الله تعالى رفيق للنبيين حيث لا يضلون بإضلال الشياطين.

وهناك «أرسلنا وقيضنا» على الكافرين سلباً لأي توفيق لهم إذ لا يستحقون، ولأنهم قرناءهم في شيطناتهم: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ...﴾[4] ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾[5].

فمختلَف الجعل هناك والتقييض والإرسال هنا، يجعل مختلف الدور والظرف بين النبيين والكافرين.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥٢.
(٢) سورة الحج، الآية: ٥٥.
(٣) راجع آية الحج تجد على ضوئها تفصيل البحث حول إلقاء الشياطين.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٥.
(٥) سورة مريم، الآية: ٨٣.

فلا دور لشياطين الإنس والجن إلّا تجاوب الوحي بزخرف القول غروراً في الفرية على النبيين، وذلك من إلقائهم في أمنيات النبيين ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ . . .﴾(١) (٢).

وذلك الوحي الباطل الحامل لزخرف القول غروراً هو من بعضهم الرؤساء إلى البعض المرؤسين قولاً يزخرفونه بمظاهر الحق المُرام، غروراً لهؤلاء الأتباع حتى يتم أبعاد العداء في تلك الإيحاء الشورى الشيطاني، ويطم في فاعليته إلقاءً في أمنيات النبيين ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٣).

والوحي - كأصل - هو إشارة في رمز، لخير كما لله وأهله إلى أهله، أم لشر كما لشياطين الإنس والجن حيث يرمزون الشر إلى بعضهم البعض تشاوراً وتعليماً وتعلماً، ولكي يُضلوا سائر الإنس والجن.

فـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ من تقليب القلوب والأبصار لهؤلاء المكذبين الأنكاد، وعدم إرادة الإيمان لهم، وجعلهم مخيرين بين إيمان وكفر ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا . . .﴾.

فذلك لا يعني جعل العداوة، بل هو جعل العدو ابتلاء في دار الابتلاء، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾(٤).

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥٢.

(٢) نور الثقلين ١ : ٧٥٨ عن تفسير القمي في الآية حدثني أبي عن الحسين بن سعيد عن علي بن أبي حمزة عن بعض رجاله عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما بعث الله نبياً إلّا وفي أمته شيطانان يؤذيانه ويضلان الناس بعده فأما صاحبا نوح فقنطيقوس وحزام وأما صاحب إبراهيم فمكثل وزرام وأما صاحبا موسى فالسامري ومرعقيباً وأما صاحبا عيسى فبولس ومرتيون وأما صاحبا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فحبتر وزريق.

(٣) سورة الحج، الآية: ٥٢.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

وأعدى العداء من هؤلاء الأعداء هو الإلقاء الافتراء في أمنيات الرسالات والنبوات كما في آية الحج، فلا يؤثر في خواطر الرسل أي تأثير، فإنما يبتلى بها سائر المكلفين ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ مشيئة مسيِّرة مصيِّرة لهم بعيدين عن كلّ عداءاتهم وإلقاءاتهم، فلا تخفهم على نفسك رسولياً ولا رسالياً ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ حيث لا يصغى إليه المؤمنون.

ولا تعني ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ «أن المعاصي بأمر الله، ولكن بقضاء الله وبقدره وبمشيئته وعلمه ثم يعاقِب عليها»[1] وذلك المربع لا يعني مشيئة تشريعية، أم تكوينية مسيِّرة، فإنما هي مسايرة مع العصاة فيما يعصون، قضاءً بما قضوا وقدراً بما قدروا ومشيئة بما شاؤوا وعلماً بما علموا وما كانوا يعملون.

ذلك، فكما أنهم لا يؤمنون مع تواتر الآيات البينات إذ قلَّب الله أفئدتهم، كذلك ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ مشيئة ربانية تحلق على كلّ شيء، حكيمة عادلة رحيمة فاضلة.

فحين لا يستطيعون أن يؤمنوا أو يضلوا إلّا بإذن ربِّك ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ فإن ربك لبالمرصاد، فإن ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

فلقد اقتضت الحكمة الابتلائية التربوية الربانية في دار البلاء والابتلاء أن يترك شياطين الإنس والجن أن يُشيطنوا في القدر الذي تركه لهم من القدرة والاختيار، وأن يدعهم يؤذون النبيين والصالحين، ابتلاء لأوليائه وبلاءً لأعدائه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنْۢ بَيِّنَةٍ﴾[3].

---

(١) نور الثقلين ١ : ٧٥٩ عن مجمع البيان روي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: إن الشياطين يلقى بعضهم بعضاً فيلقي إليه ما يغري به الخلق حتى يتعلم بعضهم من بعض.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢١.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

وليرى أهل الحق أيثبتون عليه وهم يرون الباطل ينتفش ويتنفج مستطيلاً، أفيخلصون من حظ أنفسهم في أنفسهم ويبيعونها بيعة واحدة وصفقة فاردة لله؟ على الضرَّاء والسرَّاء سواء، وفي المنشط والمكره سواء؟.

ذلك، وليس لهم مع كلّ ذلك سيطرة القضاء على قضاء الله وهيمنة القدر على قدر الله فـ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

وليس هذا تجميداً للطاقات الإيمانية أمام الشياطين يفعلون ما يشاؤون، فإنما هو طَمأنة لأهل الإيمان أنهم لا يُغلبون بإيمانهم حين يحققون شرائطه، ومنها الدعوة الصارمة المتواصلة، والتصبر على الأذى، وتحمُّل اللَّظى في هذه السبيل، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

و﴿رَبُّكَ﴾ في ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ تلميحة بتلك التربية الكاملة الكافلة لهذه الرسالة السامية، فلا تذروها الرياح ولا تصيبها الرماح حيث لا يضعها هدراً هذراً.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ...﴾ غاية طبيعية أتوماتيكية للذين لا يؤمنون بالآخرة، ثالوث ملعون سالوس يشكِّل كيانهم أمام إمامهم: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[2] [3]، والواو تعطف على محذوف معروف كـ «ليختبر عباده وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك ولتصغى» فصغي أفئدتهم لما يفترون على الرسالات هو من نتائج تقليبها عن صنعي الحق، فللقلوب أسماع كما

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

(٣) نور الثقلين ١: ٧٥٩ في كتاب الخصال مرفوع إلى علي عليه السلام قال: الأعمال ثلاثة أحوال وفرائض وفضائل ومعاصي وأما المعاصي فليست بأمر الله ولكن...

للآذان وأين أسماع من أسماع، كما لها أبصار كأبصار ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[1] «وأنِر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق حجب النور فتصل إلى معدن العظمة».

وقد تعني «لتصغى» غاية الصغي لـ«يُوحِي بَعْضُهُمْ»... كما هي غاية الابتلاء لـ«جعلنا» وأين غاية من غاية، فإنها في ربانيتها خيِّرة ابتلاء، وفي شيطنتها شريرة بلاءً!.

وهنا المعطوف عليه كـ«ليضلوا بعضهم بعضاً بزخرف القول ولتصغى إليه زخرف القول» - ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ...﴾ صغياً للقلوب المقلوبة والأفئدة المتفئدة بنيران الضلالة والمتاهة وبالنتيجة ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾: «ما يفترون» ومن ثم ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾ هؤلاء الصاغون الراضون ﴿مَا هُم﴾ أولئك الشياطين ﴿مُّقْتَرِفُونَ﴾ من تخلُّفات فاتكة هاتكة لحرمات الله أصلياً وفرعياً.

فـ«تعوذ بالله من شر شياطين الجن والإنس»[2] تعوذاً حقيقياً لئلا تكون ممن قال الله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ...﴾ - ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ...﴾[3] بل تكون ممن قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4] وصغيُ الباطل وسقي الحق بصيغة للحق هما غايتان في خِضم الابتلاء لذلك الجعل الحكيم.

فليست وساوس شياطين الإنس والجن بالتي تسيِّر القلوب إلى

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.
(٢) الدر المنثور ٣: ٣٩ - أخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي أمامة قال: «قال رسول الله ﷺ يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الجن والإنس قال يا نبي الله وهل للإنس شياطين؟ قال: نعم شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً».
(٣) سورة الحج، الآية: ٥٣.
(٤) سورة الحج، الآية: ٥٤.

شيطناتهم، إلّا القلوب المقلوبة من ذي قبل، وأما القلوب الصافية الضافية بمعرفة الله فتزداد إيماناً وإيقاناً: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾(١).

شياطين الإنس هنا يتقدمون ذكراً على شياطين الجن حيث البعض منهم أشطن من أولاء «وجوههم وجوه الآدميين وقلوبهم قلوب الشياطين»(٢) نفاقاً عارماً في شيطناتهم، وقد يروى عن الرسول ﷺ «هم شر من شياطين الجن»(٣).

ذلك، وإنهم بصورة واسعة على دركاتهم «من لم يجعله الله من أهل صفة الحق فأولئك هم شياطين الإنس والجن»(٤).

وترى شياطين الجن هم - فقط - من ذرية الشيطان الرجيم؟ أم ومن ذرية سائر الجن؟، «أتتخذونه وذريته أولياء وهم لكم عدو» تؤيد الأوّل، فسائر الجن ليسوا من الشياطين مهما فسقوا، فهم طرائق قِدَد، لا يولد شيطان منهم إلّا من شيطان: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾(٥).

ذلك مهما كان الشيطان الأول هو من الجن: ﴿... إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾(٦).

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٢) نور الثقلين ١: ٧٥٩ في كتاب الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الإنس على ثلاثة أجزاء فجزءٌ تحت ظل العرش يوم لا ظل إلّا ظله وجزءٌ عليهم الحساب والعذاب وجزءٌ وجوههم وجوه الآدميين وقلوبهم قلوب الشياطين.

(٣) تفسير الفخر الرازي ١٣: ١٥٤ روي عن النبي ﷺ أنه قال لأبي ذر: «هل تعوذت بالله من شر شياطين الجن والإنس؟ قال قلت: وهل للإنس من شياطين؟ قال: نعم هم...».

(٤) نور الثقلين ١: ٧٥٩ الكافي بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام: «فإن من لم يجعله الله...».

(٥) سورة الجن، الآية: ١١.

(٦) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

فرغم أن في الإنس قد يولد شيطان من مؤمن أو مؤمن من شيطان، فليس في الجن هكذا توالد، فإنما يولد شياطين الجن من أنفسهم، والوالد الأول فيهم هو إبليس الشيطان الأول رأس زوايا الشيطنة.

ذلك، وقد تعني ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ - إلى ما عنت - الشياطين المختصين بإضلال الإنس، والآخرين المختصين بإضلال الجن، من إضافة الصفة إلى مفعوله، إذاً فشياطين الجن فريقان مقتسمان بين الإنس والجن ليضلوهم، فكما أن شياطين الإنس يضلون الإنس والجن، كذلك شياطين الجن يضلون الجن والإنس، شيطنات مدروسة موحاة ومستوحاة فيما بينهم، تحلّق على الإنس والجن أصلية وفرعية.

فالوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس، ذلك الوسواس أعم من الجنة والناس دون اختصاص بجنة أو ناس، وسوسة من الشياطين بمختلف صنوفهم كما إلى صدور الجنة، كذلك إلى صدور الناس.

فهنا ﴿يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ توحي أنهم يوسوس بعضهم إلى بعض تضليلاً له أكثر مما هو، ثم تشجيعاً لتضليل الآخرين من الإنس والجن.

ويا ليت أهل الحق اتخذوا ذلك المسلك الصامد لبثِّ الهدى أن يوحي بعضهم إلى بعض مسالك الهدى ليزيدوهم هدىً على هدىً، وليصلحوا لذلك الإيحاءَ إلى الآخرين، تعاوناً على البر والتقوى كما يتعاون الشياطين على الإثم والعدوان ليتحقق الكفاح الصارم في الحق أمام الكفاح العارم في الباطل، دفاعاً صالحاً عن حوزة الحق: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(١).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

فالموازنة بين دعاية الحق والباطل تؤمِّن أهل الحق عواناً، وتغلُّب الدعايات الباطلة تشكلّ عليهم خطراً جاسماً حاسماً، ثم تغلُّب الدعايات الحقة تحسم مادة الباطل، وهكذا يجب أن يكون أهل الحق صامدين غير خامدين أو هامدين، ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ . .﴾[1].

فكما أن أمر شياطين الإنس والجن شورى بينهم في تلك المواحاة المضلة المدللة في زخرف القول الغرور، كذلك فليكن أمر المؤمنين شورى بينهم في المواحاة المهتدية الهادية بحق القول، بل وأوسع نطاقاً ورفاقاً من أولئك الشياطين تحقيقاً لدولة الحق وتمحيقاً لدولة الباطل.

ذلك والشيطان هو المتمرد عن الحق المتمحض في الباطل أياً كان، وقد يوصف به الحيوان المتمرد والجرثومة الخطرة وكلّ متمرد عن وجه الصواب.

ونكران وجود شياطين الجن كأصل الجن سناداً إلى عدم رؤيتهم ولمسهم كسائر المرئي، نكران جاهل ورمي في الظلام، فإن حوزة الإحساس الخاص لنا، هي ما يمكن أن يحس بحواسنا، دون المواد الرقيقة كالروح والجن والملائكة، وما أشبه.

فأولئك الناكرون المتترسون بالعلوم التجربية على مَ يرتكنون، أعلى علمهم المحدد بالمحسوس من الكون؟ فذلك جهل! فإنه لا يحيط بعالم المحسوس لهم فضلاً عن غير المحسوس بالحواس البشرية، فمن التحكُّم والتبجُّح أن ينفي أحد باسم «العلم» كائنات غير محسوسة به، رغم قاطع البرهان على كونها.

فكما أن من شياطين الإنس غير محسوس كالأنفس الأمارة بالسوء،

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.

المَوَسْوِسة في الصدور حيث نلمسها نفسياً مهما لا نلمسها حسياً، كذلك شياطين الجن غير المحسوسين بواقعهم، فـ ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾(١) بهذه الأبصار البشرية.

فكما أن وحي الفطرة والعقلية ووحي العلم والشرعة الربانية أثبتت وجود الله وهو غير محسوس ولا مدرك بأي إدراك، كذلك وحي الشرعة أثبتت لنا وجود الملائكة والجن وسائر الغيب، ومن ميِّزات الإنسان ومَن أشبهه الإيمان بالغيب قضيةَ براهينه الساطعة.

ذلك وإن معركة الكفاح بين المؤمنين والشياطين معركة مصيرية، تتجمع فيها من ناحية تخطيطات الشيطنات لإمضاء خُطة مقررة مغرِّرة هي معاداة الحق الممثَّل في النبيين وسائر عباد الله الصالحين، يمد بعضهم بعضاً بكلّ وسائل الخداع والإعلام، امتداداً للضلالة الموحاة بين بعضهم إلى بعض، وإلى سائر عباد الله لينضموا إلى حزبهم فيحلِّق الشر على الكون كله.

ولكنه كيد غير طليق فإن ربك لهم بالمرصاد، وإن حملة الرسالات إلهيةً برصيد الرسالة بكلّ المساعي الرسالية - لهم بالمرصاد.

وحين يتقاعد المؤمنون ويتقاعسون فهم الذين يَخسرون أنفسهم ويُخسرون، وأما الله بشرعته وآياته فلا يَخسر، ولكن الله لم يشرِّع شرعته لنفسه أن يتشرع بها ويحققها في نفسه، فإنما ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ ولها حفيظان اثنان: حفيظ رباني يحفظها في قلوب المتشرعين، وحفيظ منَّا نحافظ عليها بمساعينا وكفاحنا الصارم في كلّ ميادين النضال بين الحق والباطل.

فمشهد تجمُّع الشياطين بإيحاءاتهم الشيطانية لتحقيق خُطتهم المقررة

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

المرسومة بمواصلة الإيحاءات والدعايات بزخرف القول غروراً، جدير بأن يسترعي وعيَ أهل الحق ليعرفوا طبيعة هذه الخطة اللعينة وأبعادها، وليكرِّسوا كلّ طاقاتهم وإمكانياتهم للقضاء عليها كما يستطيعون.

كما ومشهد إحاطة المشيئة الربانية بخُطة الشياطين، جدير بأن يملأ قلوب أهل الحق الثقة بالله، تعليقاً لقلوبهم وأبصارهم بتلك القدرة القاهرة الباهرة، وتحليقاً لإمكانياتهم على تحقيق الحق وإبطال الباطل فـ ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1] و﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[2]، فلذلك:

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾:

«أفـ» إذ يترك الله حكماً يحكم بيني وبينكم ويحكم لصالح رسالتي عليكم - إذاً - غير ﴿اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ حيث ليس ليحكم، أم هو يحكم بغير صالح لي؟، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ﴾ دون سواه حتى أبتغي للحفاظ عليه وعلي حَكَماً سواه، وقد فصل الكتاب بما لا مزيد عليه ولا منقصة فيه ولا شبهة تعتريه، كتاباً مفصلاً بنفسه، مفسَّراً في نفسه، مبيَّناً ببيناته، قمةً في الفصاحة والبلاغة في آياته، فيه تبيان كلّ شيء وتفصيله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[3].

فذلك الكتاب المفصَّل من لدن حكيم خبير يفصل الآيات، تفصيلاً للحق عن الباطل، دون أيَّة عماية ولا غواية: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[4] ﴿... لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[5] ﴿... لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[6] ﴿لِقَوْمٍ

(١) سورة محمد، الآية: ٧.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٣) سورة هود، الآية: ١.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٧.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٩٨.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٢٦.

﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾[١] ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢] و﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[٣] وعلى الجملة ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾[٤] لكلِّ من ألقى السمع وهو شهيد.

أترى حين يكون القرآن مفصلاً في نفسه وبنفسه، ونوراً ومنيراً وتبياناً لكلِّ شيء فما هو الحاجة إلى مفسر سواه يفصله تفسيراً، اللّهم إلّا بياناً لتأويله وتبياناً!.

ذلك، ولأن ﴿حَكَمًا﴾ هو الحاكم الحكيم الفضل العليم فلا يقضي إلّا بالحق المطلق، وليس هو إلّا الله، أو المرسَل من عند الله فإنه حَكَم بحكم الله.

ومن حَكَميته تعالى إنزال الكتاب مفصلاً، تبييناً لمعانيه كأفضله دون أي تخليط وتداخل، وهو أفضل شهيد على حكمته تعالى الوحيدة غير الوهيدة.

لذلك ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ فإنهم عارفون طبيعة وحي الكتاب ولغته، والقرآن هو القمة المرموقة منه، إضافة إلى بشارات الكتاب المحلِّقة على قرآن محمد ومحمد القرآن ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أيها الناظر إلى القرآن نبياً وسواه، فالنهي بالنسبة للنبي تأكيد للبقاء على إيقانه القمة، من باب التهييج والإلهاب كـ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٥] أو لا تكونن من الممترين فـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أو من باب (إياك اعني واسمعي يا جارة) فما امترى رسول الهدى ﷺ في رسالته لحظة ما، وقد روي أنه ﷺ عند ما نزل عليه ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٢.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٤.

جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾(١) قال ﷺ: لا أشك ولا أسأل، تدليلاً على أنه لا واقع لشكه وامترائه، فإنما يعني من هذه السلبية المؤكدة غيره شخصياً.

ثم ولغيره تثبيت لدلالة ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ والقرآن نفسه على وحي القرآن، وقد يتأيد بـ ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ...﴾(٢) فهنا أيضاً قل ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ أيها الناظر إلى القرآن ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ في هذه الرسالة السامية، وتأكيد النهي هو بمناسبة أكيد الآية القاطعة لهذه الرسالة قرآناً ورسولاً.

إذاً فـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ...﴾ تحوُّلٌ في الخطاب إلى صاحب الخطاب العتاب.

واستفهام الإنكار هذا ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ...﴾ موجَّه إلى هؤلاء الذين يتطلبون آية على هذه الرسالة السامية، ويكأن القرآن ليس آية، وهو الآية الأم بين كافة آيات الرسالات، فتركه كآية رسالية شاملةٍ تركٌ لآيات الله كلها، أفتريدون أن أبتغي حَكَماً لرسالتي غير الله، وهو الحَكَم عليها بالقرآن؟! وهو أكبر شهيد بيني وبينكم فأنى تؤفكون ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾(٣)!.

ذلك، و﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾(٤) هي كما هنا استدلال بشاهدي رسالته: القرآن وسائر الكتاب.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾:

إن ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ الدالة على رسالتك العظيمة الغالية، الشاملة لكلّ ما

(١) سورة يونس، الآية: ٩٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤.
(٣) سورة الصافات، الآية: ٨٦.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٤٣.

يحتاجه المكلفون منذ بزوغها إلى يوم الدين، إنها تمت بهذا القرآن العظيم، «تمت.. صدقاً» و«تمت.. عدلاً» فكلّ قضايا الصدق والعدل الرباني مدلولةٌ لكلمات ربك: القرآن ونبيِّه ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ السالفة على أنبيائه رغم أنها كانت محددة لزمن خاص فضلاً عن هذه الكلمة التامة الخالدة.

وهنا ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بإفراد تعني محمداً والقرآن فإنهما كلمة واحدة تحملان هذه الشرعة الأخيرة شرعة وداعية.

صحيح أن كلمات الرب رسولياً ورسالياً على مدار الزمن تامة صدقاً وعدلاً، ولكنها تمامية صالحة لردح من الزمن لكلّ رسول برسالته، وليست تمامية طليقة، فـ «تمت» هنا تعني التمامية الطليقة التي ليس فوقها تمام، فليس معها أو بعدها كلمة رسولية أو رسالية إلى يوم الدين، إذ لا مبدل لهذه الكلمة إلهياً ولا خُلقياً، مهما كان لسائر الكلمات الربانية مبدل إلهي، فـ ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ تستغرق أي تبديل للكلمة الأخيرة، وتختص سلب التبديل الحق في سائر كلماته بغير الإلهية حيث تبدَّلت إلهياً، كما وتبدلت بشرياً بغير حق، ولكن هذه الكلمة لا مبدل لها إلهياً، ولا بشرياً لا حقّاً ولا باطلاً إذ لا تحريف فيها ولا تجديف.

أجل فلا مبدل لها ربانياً فضلاً عن مبدل سواه ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ مقالات الممترين ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالاتهم، سمعاً وعلماً بكلّ مجالاتهم وبما يقوله أهل الحق ويعلمون ويعملون.

فهنا ﴿كَلِمَتُ﴾ - جنساً - تعم كافة الدالات والدلالات الرسولية والرسالية أمّاهية، الدالة على كامل الربوبية تكوينية وتشريعية في هذه الرسالة الأخيرة و﴿رَبِّكَ﴾ - دون «رَبِّ الْعالَمِينَ» وما أشبه - تلمح إلى بالغ الربوبية، المتمثلة في التربية المحمدية رسولياً ورسالياً فإنها القمة العالية منها، فـ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ إذاً ختمٌ للتربيات الربانية في كلّ حلقاتها وحقولها،

فلا تمام بعدها ولا تبديل، مما يبرهن على خاتمية خاتم النبيين رسولياً وخاتمية القرآن رسالياً، وكلّ ذلك ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ فليس بعد تمام كلمت ربك صدقاً وعدلاً إلّا كلمة الشيطان كذباً وظلماً، وهي كافة المختلقات الزور والغرور من كتابات وسواها بعد القرآن مما يدعى كونه وحياً.

أجل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ في كلّ مصاديقها الصادقة لفظية أو عينية، فحين يكون المسيح كلمة من الله كما هو رسوله جمعاً بين كلمتي الرسالة والآية الرسالية: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ﴾(١) فمحمد ﷺ بقرآنه العظيم أحرى تماماً وكمالاً وختماً للكلمات الرسولية والرسالية، فلا آية بعد القرآن كما لا رسالة بعد رسول القرآن.

وحين ﴿ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾(٢) فابتلاء محمد ﷺ بكلمات أنبل وأعلى حيث تمت بها الكلمات.

إذاً فيا متمم الكلمات في نفسه وفي كتابه، في ابتلاءاته وكلّ كلماته ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾(٣)، وذلك، لأنها ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ فكما أنك ﴿أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾(٤) والعارفين لربك بتربيتك القمة، كذلك ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ لك ولكلّ العالمين إلى يوم الدين.

فذلك التمام تمام في كلّ حقوله، زمناً وكمالاً وحالاً ومآلاً وعلى أية حال، والكلمة العليا في هذه الرسالة هي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ حيث تحلّق على كلّ جنباتها لأتم درجاتها ومنها كسر الأصنام بكلّ صنوفها وصفوفها، فقد

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٧.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

«دخل النبي ﷺ المسجد الحرام يوم فتح مكة ومعه مخصرة ولكل قوم منهم صنم يعبدونه فجعل يأتيها صنماً صنماً ويطعن في صدر الصنم بعصا ثم يعقره كلما صرع صنم أتبعه الناس ضرباً بالفؤوس حتى يكسرونه ويطرحونه خارجاً من المسجد والنبي ﷺ يقول: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[١] [٢].

وكان يعوذ نفسه والحسنين عليهما السلام وغيرهما بكلمات الله التامة من كلّ شيطان وهامة ومن كلّ عين لامة..[٣].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

(٢) الدر المنثور ٣: ٤٠ - أخرج ابن مردويه عن أبي اليمان جابر بن عبد الله قال دخل النبي ﷺ..

(٣) فمن تعويذه الحسنين ما في الدر المنثور ٣: ٤٠ من ابن عباس قال كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين عليهما السلام أعيذكما بكلمات الله التامة من كلّ شيطان وهامة ومن كلّ عين لامة ثم يقول كان أبوكم إبراهيم يعوذ بها إسماعيل وإسحاق.

ومن تعويذه نفسه ما أخرجه النسائي والبيهقي عن ابن مسعود قال لما كان ليلة الجن أقبل عفريت من الجن في يده شعلة من نار فجعل النبي ﷺ يقرأ القرآن فلا يزداد إلّا قرباً فقال له جبرائيل ألا أعلمك كلمات تقولهن ينكب منها لفيه وتطفأ شعلته قل أعوذ بوجه الله الكريم وكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن شر ما ذرأ في الأرض ومن شر ما يخرج منها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر طوارق الليل ومن شر كلّ طارق إلّا طارقاً يطرق بخير يا رحمن فقال لها فانكب لفيه وطفئت شعلته، وأخرج أبو داود والنسائي وابن أبي الدنيا والبيهقي عن علي عليه السلام عن رسول الله ﷺ كان يقول عند مضجعه: اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم وكلماتك التامة من شر ما أنت آخذ بناصيته أنت تكشف المغرم والمأثم اللهم لا يهزم جندك ولا يخلف وعدك ولا ينفع ذا الجد منك سبحانك وبحمدك.

ومن تعويذه ﷺ غيره ما عن خولة بنت حكيم سمعت رسول الله ﷺ يقول: من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك، وعن أبي هريرة قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله ﷺ ما لقيت من عقرب لدغتني البارحة؟ قال: أما إنّك لو قلت حين أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرك.

فلقد تمت كلمة التوحيد بكلمته على شروطها، وكلمة الرسالة بمحمد ﷺ بنفسه وبكلمة القرآن، وكلمة الخلافة المعصومة عنه ﷺ [١] وهكذا كلّ كلمة من الله تعالى.

لقد قال الله وفعل وكوَّن كلّ كلماته التي كان من الصالح أن يقولها ويفعلها ويكوِّنها للعالمين فلم تبق له كلمة إلّا وقد قالها في هذه الرسالة السامية دون إبقاء.

صحيح أن آيات الله ورسالاته كلها من كلمات الله، وهي كلمة واحدة تدل على ربوبية واحدة برسالة واحدة، ولكنها قبل الكلمة الأخيرة القرآنية المحمدية كانت تترى متكاملة في فتراتها الزمنية، رسالة بعد رسالة وشرعة بعد شرعة، ثم تمت كوناً وكياناً وزماناً بهذه الكلمة الأخيرة ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ تبديل النسخ أو التكميل أم أي تبديل بتحريف وتجديف، حيث القرآن هو الوحيد بين كتابات الوحي في ميِّزاتٍ ومنها عدم تحرُّفه كما ضمن الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٢].

وهنا ﴿لَا مُبَدِّلَ﴾ نهي إلى نفي، إخباراً بعدم تبدل كلماته ونهياً عنه، تبديلاً عن جهات أشراعه بكلّ تأويل عليل، أو تبديلاً لمواضعه أن تؤلف نسخة غير ما بأيدينا منذ تأليفه من الرسول ﷺ بوحي من الله.

ذلك، ولأنها تمت جملة وتفصيلاً وحصولاً وتحصيلاً في ردح الوحي بكرة وأصيلاً دون أن يتدخل فيها غير الله، سبحانه وتعالى عما يشركون.

وقد تعني - فيما عنت - «صدقا» كلمة الإخبار، و«عدلا» كلمة

(١) نور الثقلين ١: ٧٦٠ في أحاديث عدة أن هذه الآية مكتوبة على جبين والعضد الأيمن من كلّ إمام من الاثني عشر حين ولدوا، رواه أبو بصير والحسن بن راشد ويونس بن ظبيان ومحمد ابن مروان كلّ عن أبي عبد الله عليه السلام.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.

الإنشاء، ولا تخلو كلمة القرآن ونبي القرآن عن إخبار أو إنشاء، أو جمعاً بينهما، فقد أنشأ القرآن إنشاء كما أنشأ إنشاء، وأخبر أخباراً كما أخبر - فيما أخبر بكله - إخباراً، أنه الآية الوحيدة الخالدة غير الوهيدة على مدار الزمن إلى يوم الدين: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾(1).

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾:

هذه قضاءٌ من القضاء على ﴿أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنهم على شتات أهواءهم ضالون ومضلون، فإنهم ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وبالنتيجة ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ تخميناً دون علم ويقين، فهم - إذاً - يكذبون، مهما اتفق منهم صدق فيما يظنون، فإن اتباع الظن كذب في الاتباع مهما اتفق صدقه، كما اتباع العلم صدق فيه مهما أخطأ.

فالفتيا الصادرة عن اتباع الظن لا تُتَّبع مهما كانت شهيرة أو مجمعاً عليها، ثم الصادرة عن اتباع العلم تتبع مهما كانت وحيدة شاذة عن الجمع فإنها غير وهيدة.

وكيف يَتَّبع رسول الهدى الحاصل على علم الوحي أكثر من في الأرض فيما يظنون؟ وسبيل الله هي سبيل العلم أو إثارة من علم! سبيل عاصمة معصومة إلّا لغير المعصوم، ولكنه تقل أخطاؤه حين يستند إلى الكتاب المعصوم والنبي المعصوم.

(1) سورة العنكبوت، الآيتان: ٥١، ٥٢.

ذلك فقد «ذم الله الكثرة»[1] اللّهم إلّا كثرة متّبعة للعلم، فليست الكثرة بما هي كثرة أصلاً يتّبع، إنما هو الحق في قلة أو كثرة.

وترى كيف يحذّر الرسول ﷺ عن أن يطيع أكثر من في الأرض وهو كيانه بقاله وحاله ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[2]؟ علّه قطعاً لآمال الأكثرية الضالة إعلاماً وإعلاناً صارخاً في هذه الإذاعة القرآنية، أم إنه من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة» أو أن الخطاب يعم كافة المكلفين دون اختصاص بالرسول ﷺ كلاً على قدْره وقَدَره.

ولأن النهي معلَّل بـ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، فليس التنديد بالأكثر إلّا لأن الأكثر من الأكثر عليلون بهذه العلة، فلو أن الأكثرية تتبع العلم فلا ضير في اتباعها لمن ليس على علم وليس ليحصل عليه بجهوده، فاتباع العلم ضابطة عامة في حقلي الاجتهاد والتقليد، كما أن اتباع الظن هابطة عامة في الحقلين جميعاً، اللّهم إلّا ظناً يؤمر باتباعه بدليل قاطع كالأصول الأحكامية الموضوعة في موارد الشك.

والآيات في حرمة اتباع الظن - كأصل - وحرمة قفْو غير العلم أو إثارة من علم، عديدة في عدة مجالات، واتباع الظن - حتى فيما يُضطر إليه - محظور إلّا أن يتبع فيه دليل العلم من كتاب أو سنة قطعية كأدلة الاستصحاب والاشتغال والبراءة والظاهر وقاعدة الفراغ والتجاوز، فليس اتباع الظن فيها إلّا باتباع العلم فيما لا سبيل علمياً إليه، فهي بين تهدير هذير أم تقرير منير.

---

(١) نور الثقلين ١ : ٧٦١ في أصول الكافي بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام يا هشام ثم ذكر الله الكثرة فقال: وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.

ذلك ولأن أمثال الإجماع والشهرة والقياس والاستحسان والاستصلاح لا دليل على حجيتها في الظنون الحاصلة منها، بل والدليل قائم على ألّا حجية فيها، فالظنون الحاصلة منها مردودة بل والقطع الذي يحصل من غير دليل شرعي عقلياً وسواه، مَثَله كمثل تلك الظنون، وقيلة ألا سبيل إلى نقض القطع للقاطع أياً كان، عليلة، حيث القاطع ليس ليدعي الحيطة القاطعة العلمية غير المتخلفة عن الواقع، فللشارع نصب الوسائل كما يراها صالحة للحصول على القطع، وقد نصب الكتاب وعلى ضوئه السنة طريقين لا ثالث لهما للعلم الحجة، فسائر العلم ليست إلّا في لجَّة، سواء الحاصلة برؤيا أو في يقظة.

وقد سمي غير الحاصل من علم أو إثارة من علم ظناً لا يتبع، ثم الظن الحاصل من أحدهما كما أمرنا يتبع، وقد بحثنا عنها بطيّات الآيات الواردة فيها.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾:

ولأنه هو أعلم بالمهتدين، لذلك يأمر باتباع العلم اليقين وينهى عن إتباع الظن التخمين، وهنا ﴿مَن يَضِلُّ﴾ دون جارٍ قد يكون لنصبه دون خافض، بقرينة ﴿أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ هنا و﴿أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ﴾[1] في النجم: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾[2].

و﴿أَعْلَمُ﴾ هنا - الطليقة عن المفضل عليه - كما يحتمل طليق العلم الخاص به تعالى، أنه هو العالم لا سواه، كذلك يحتمل العلم المفضل على

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة النجم، الآيات: ٢٨-٣٠.

من سواه، فإن منهم من يعلم الضال عمن اهتدى مهما بان البون بين العلمين.

ولأن طليق العلم دون خلط بجهل يختص بالله سبحانه، فهو وحده صاحب الحق في وضع الميزان بين الضال والمهتدي ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1].

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾:

هنا ﴿فَكُلُوا...﴾ أمر تجويز لما هو في موقف الحظْر جاهلياً، حيث الجاهلية حرَّمت أكلّ ما ذكر اسم الله عليه في حين أحلت أكل الميتة وما أهل لغير الله به، محتجاً بأنه كيف لا نأكل ما قتله الله ونأكل ما قتله خلق الله، وليس ذكر اسم الله - فقط - مما يحلّل ما قتلناه، كما وكانوا يفضّلون ذكر اسم غير الله على ما يقتلون كأنه يحلّله دون ذكر اسم الله؟! وهنا ﴿إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ خطاب لمن آمن ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم، إذ كانوا ينحون منحى الجاهلية في حظر الأكل عما ذكر اسم الله عليه.

ثم ﴿فَكُلُوا﴾ تفريع على حظر الاتِّباع للأكثرية الغائلة القائلة بحظر الأكل مما ذكر اسم الله عليه، أن اتباع الحق يقتضي رفض ما فر أهل الباطل مهما كانوا كثرةً.

ثم ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ تنديد بكلّ هؤلاء الذين كانوا لا يأكلون مما ذكر اسم الله عليه، مسلمين أو أهل كتاب أو مشركين، قضية التخيُّلية الجاهلية أن ما قتله الله أولى بالأكل مما قتله الناس وذكر اسم الله عليه.

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

وهنا ﴿ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ مجهولاً يُطلق حِلّ ما ذكر اسم الله عليه مهما كان الذاكر الذابح كتابياً، كما ويُطلق حرمة ما لم يذكر اسم الله عليه مهما كان الذابح مسلماً، وقد احتج باقر العلوم عليه السلام بالآية في طليق الحل والحرمة(١).

﴿وَقَدۡ فَصَّلَ﴾ إشارة إلى تفصيل قبل الأنعام وليس إلّا في النحل النازلة قبلها، ثم بعدهما تفصيل في المدنيتين: البقرة والمائدة، وهذه الأربع مشتركة في تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، وتفصيل النحل من ذي قبل هو ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾(٢).

---

(١) نور الثقلين ١: ٧٦١ في من لا يحضره الفقيه روى أبو بكر الحضرمي عن الورد بن زيد قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام حدثني حديثاً وأمله عليّ حتى أكتبه قال أين حفظتكم يا أهل الكوفة؟ قلت: حتى لا يردّه علي أحد ما تقول في مجوسي قال بسم الله وذبح؟ فقال: كل، فقلت: مسلم ذبح ولم يسم؟ فقال: لا تأكل، أن الله تعالى يقول: فكلوا مما ذكر اسم الله عليه - ويقول: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ [الأنعام: ١٢١] أقول: قدمنا تفصيل البحث حول اشتراط كون الذابح مسلماً وعدمه على ضوء قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾ [المَائدة: ٣] ومختلف الأحاديث الواردة فيه في المائدة فلا نعيد، والحكم ما قدمنا من الحل بدليل هذه الآية ﴿فَكُلُواْ. . .﴾ [الأنعام: ١١٨] والسنة الظاهرة المتظافرة ومنها التالية:

١ - هنا أحاديث مطلقة في المنع عن ذبائح أهل الكتاب وهي ٢٦ حديثاً.

٢ - المطلقة في الجواز وهي ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ ب ٢٨.

٣ - المفصلة بين ما ذكر اسم الله عليه فجائز وما لم يذكر فحرام وهي ٣٥ حديثاً.

٤ - الناهية عنه وإن سمى وهي اثنان.

ففي ص ٣٤١ ب ٢٦ ح ١ و٣ لا يؤمن على الذبيحة إلّا أهل التوحيد وح ٣ - إلّا أهلها وح ٤ و٦ و٧ - ١٠ وب ٣٧ ح ٣ - ٣ - ٤ - ٨ - ١١: لا بأس إذا ذكروا اسم الله وح ١٤ - ١٥ - ١٧: لا بأس إذا سمعوا و١٨ - ٢٢ - ٢٣ - ٢٤ - ٢٧ - ٢٩ - ٣١ - ٣٢ - ٣٤: لا بأس به إطلاقاً و٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤١ مطلق في الجواز و٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ و٢٨ ب ح ٧ - إذاً فالأقوى عدم اشتراط الإسلام في الذابح إلّا لإحراز شروط الذبح.

(٢) سورة النحل، الآيتان: ١١٥، ١١٦.

وهنا «ما لكم» تنديد عام هام يحلق على كلّ هؤلاء الذين لا يأكلون ما ذكر اسم الله عليه ومنهم المتحذِّر عن ذبائح أهل الكتاب المذكور عليها اسم الله بسائر شروط التذكية، أن حرمتها بكونها ذبيحة غير المسلم غير واردة في تفاصيل التحريم الذاتي في القرآن بحقل بهيمة الأنعام، وكذلك السنة.

ولا تصلح ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾[١] في المائدة بياناً لشريطة إسلام الذابح كما فصلناه عند تفسيرها، فلا يدخل في الحصر فعل المخاطَبين وإلّا لكان ما ذكاه غيرك من المسلمين محرماً عليك، فإنما الخطاب هنا للمسلمين حيث المخاطَبون هنا هم المسلمون في هذه الأحكام، وأنهم هم الذين يطبِّقون شروطات الذبح الشرعية.

وهنا - بين شروط الذبح - ذكر اسم الله، يحتلُّ الموقع الأعلى، المخصوص بالذكر في الذكر الحكيم، ثم التوجيه إلى القبلة وفري الأوداج الأربعة يستفادان من السنة القطيعة، وما شرط الإسلام إلّا للشرط الأوَّل كأصل والآخرين فرعاً له.

ولقد كانت هذه النصوص تواجه قضية حاضرة في البيئة الجاهلة حيث كانوا يمتنعون من ذبائح أحلها الله ويُحلُّون ذبائح وميتات حرمها الله ويزعمونه من شرعة الله تخرصاً على غيب الله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ اعتداءً على شرعة الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ فـ«اعلموا عباد الله أن المؤمن يستحل العام ما استحل عاماً أوَّل ويحرم العام ما حرم عاماً أوَّل، وأن ما أحدث الناس لا يُحل لكم شيئاً مما حرم عليكم ولكن الحلال ما أحل الله والحرام ما حرّم الله.. وإنما الناس رجلان: متّبع شِرعة ومبتدع بدعة وليس معه من الله سبحانه برهان سنة ولا ضياء حجة..»[٢].

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٢) الخطبة ١٧٤/ ٣١٦.

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾:

﴿ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ قد تعني - إضافة إلى إضافة الصفة: الإثم الظاهر والإثم الباطن - تعني واجهتي كلّ إثم ظاهراً وباطناً، فهي تحلّق على كلّ الإثم في كلّ إثم، وهو كلّ ما يبطئُ عن الثواب ظاهريّاً أم باطنياً، بظاهر من الإثم أو باطنه، بالإثم الظاهر والإثم الباطن، وثالث هو كون ﴿ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ صفة لمحذوف هو العصيان الظاهر إثمه أو باطنه وهذا أليق بظاهر الصلة بين الآية وما قبلها وما بعدها.

ف ﴿ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ - إذاً - ما ظهر إثمه للناظر سواء أكان ظاهراً كالقتل أم باطناً كالشرك، وباطنه ما لا يظهر إثمه سواء أكان ظاهراً كالأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، وترك الأكل مما ذكر اسم الله عليه وأكل لحم الخنزير، أم باطناً كالحسد غير الظاهر فاعليته.

وقد ينتظمها كلها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ﴾ أياً كان وبأية حالة وأية مجالة ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾.

ذلك ومن باطن الإثم إثم القلب: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾[1] و﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[2] ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾[3] ومن أنحس باطن الإثم الإشراك بالله[4].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٣.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٢.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ٨.
(٤) نور الثقلين ١: ٧٦١ عن تفسير القمي في الآية قال: الظاهر من الإثم المعاصي والباطن الشرك والشك في القلب وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠] أي: يعملون.
وفيه في روضة الكافي في رسالة طويلة لأبي عبد الله عليه السلام يقول فيها: واعلموا أن الله لم يذكره أحد من عباده المؤمنين إلّا ذكره بخير فأعطوا الله من أنفسكم الاجتهاد في طاعة فإن =

ومن الإثم الظاهر: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾(١) والحظر يشمل ﴿ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ فإن لظاهره باطناً ولباطنه ظاهراً، وحتى إذا اختص الإثم بظاهر أم باطن فهو إثم كيفما كان، إبطاءٌ عن الثواب أياً كان، وكلّ مبطئ عن واجب الثواب فهو محرم لهذه الضابطة ثم ﴿ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ قد تعني فيما عنت ظاهر الإثم متظاهراً فيه فـ ﴿ظَاهِرَ الْإِثْمِ﴾ ومتخفياً فـ ﴿بَاطِنَهُ﴾.

وما هو - بعد - ظاهر الإثم وباطنه في حقل الأكل هنا؟ من ظاهر الإثم ترك الأكل مما ذكر اسم الله عليه، والأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، ومن باطنه تحريم الأول وتجويز الثاني تشريعاً وإن لم يظهر في العمل، كما وإن من ظاهر الظاهر اقترافه متظاهراً، ومن باطنه اقترافه خُفيةً(٢) كما أن من ظاهره الأكل مما يضر صحياً أم هو خيانة، ومن باطنه الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه غير الظاهر إثمه إلّا بوحي وقد أوحي.

فقد يخيل إلى ناس أن ليس ترك الأكل من المباح والأكل من الحرام محظوراً إن لم يعتقد في حل أو حرمة خلاف شرعة الله، أم ليست العقيدة المتخلفة في الأكل محظورة إن لم تظهر في العمل، أم لا يحرم العمل ما لم يتظاهر فيه، أم لا يحرم لعدم ظهور إثمه، فنزلت الآية حاسمة إياها منددة بها مهما كانت دركات، ثم الجمع بين ظاهر الإثم وباطنه هنا وفي سواه أسفل دركاً، ثم باطن الإثم اعتقاداً، ثم ظاهره اقترافاً، ثالوث منحوس من الإثم تشمله ﴿ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾.

= الله لا يدرك بشيء من الخير عنده إلّا بطاعته واجتناب محارمه التي حرم الله في ظاهر القرآن وباطنه فإن الله تبارك وتعالى قال في كتابه وقوله الحق: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) قال الضحاك كان أهل الجاهلية يرون الزنا حلالاً ما كان سراً فحرم الله تعالى بهذه الآية السر منه والعلانية.

ذلك، وليس يختص الحظر هنا بإثم الأكل المحرم وتحليله، بل هو ضابطة ثابتة تحلِّق على كل إثم في كلّ الحقول، حيث الإثم: المبطئ عن الثواب هو محرم ككلّ في شرعة الله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(١).

ففي كلّ محظور إثم، سواء أكان ظاهر الإثم أم باطنه، فإن الله لا يحظر على شيء إلّا وهو إثم، وفي كلّ محبور ثواب مهما لم يظهر لأهل الظاهر، فإن الله لا يأمر بشيء إلّا وهو ثواب.

وترى أن نية السوء هي من باطن الإثم؟ كلّا، فـ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢) والعمل مهما شمل العقيدة ليس ليشمل النية فإنها نية العمل وليس من نفس العمل، ولكن العقيدة الصالحة والطالحة هما مورد الأمر والنهي.

ثم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ ليست لتشمل النية لأنها نية الكسب وليست نفس الكسب، كما وليست اقترافاً للإثم بل هي قصده ولمّا يقترف، ولو أن نية الإثم كانت هي - أيضاً - من باطن الإثم فهو - إذاً - إثم مغفور.

صحيح أن العقيدة الفاسدة هي اقتراف لإثم القلب: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ ولكن نية الإثم خارج عن إثم القلب والقالب، فكم من طاهر قلبه ينوى الإثم ثم يتركه لطهارته.

وصحيح أن نية الخير لها جزاءَ الخير ولكنه من فضل الله، وقضية العدل في نية الشر ألا تقابل بعمل الشر، وأما العقيدة الشريرة فهي عمل القلب

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٣.
(٢) سورة النمل، الآية: ٩٠.

المقلوب إلحاداً أو إشراكاً أم كفراً لكتابي وسواه، أم عقيدة فاسدة لمسلم، فإنها محسوبة بحساب العمل الطالح، وهو يشملها حين يفرد مهما ينفصل عنها حين يتقارنان.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾:

﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾[1] و﴿مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي على تذكيته وذبحه، تعم ما ذكر اسم غير الله عليه وما لم يذكر عليه أي اسم، فإنَّ ذكر اسم الله على الذبيحة مفروض وعدمه مرفوض سواء لم يذكر عليه أي اسم أم ذكرت عليه أسماء الأوثان أم أي اسم ذكره إثم ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾: خروج عن طاعة الله وعبوديته إشراكاً بالله أو عصياناً إياه.

وقد يعم ضمير الغائب في «إنه» كلا الأكل وعدم ذكر اسم الله على الذبيحة، بل الثاني أقرب أدبياً ومعنوياً مهما كان الأول أقرب معنوياً، فإنه محور التحريم الأول، فلا يحرم الأكل ما لم يذكر اسم الله عليه إلّا إذا ترك فسقاً، لا نسياناً أو جهلاً اللهم إلّا نسيان التساهل أو جهله المقصر فإنه داخل في الفسق، ويؤيده ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾[2]، كما لا يحرم الأكلّ منه إلّا إذا تعمده دون اضطرار، فالجاهل أحكام الذبح وهو عالم جهله لا يجوز له الذبح، فإن ذبح تركاً لبعض شروطه كان فسقاً لا يجوز الأكل منه، ذلك ولكن ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ لا يعني طليق الفسق، بل هو الفسق في ترك ذكر اسم الله الذي هو أفسق الفسق، فلا يعني - إذاً - إلّا العامد في ترك ذكر الاسم، وكما تلمح إليه لام التأكيد، فكلا الأكل مما لم يذكر اسم

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٨.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

الله عليه وعدم ذكر الله عليه ﴿لَفِسْقٌ﴾ فسق مؤكد لا يعني إلّا ترك ذكر الاسم عمداً، والأكل منه عمداً، ثم ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ راجع - فيما يرجع - إلى عدم ذكر الاسم وليس هو فسقاً لغير العامد مهما كان جاهلاً أو ساهياً أو ناسياً مقصراً، فهؤلاء خارجون عن الأمر وغير داخلين في النهي كما ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ تؤيده ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ الحواشي الإمعات، يوحون من زخرف القول كـ «كيف يؤكل ما يذبحه خلق الله ولا يؤكل ما يقتله الله»[1]؟ تصور من تصورات الجاهلية المنكوسة التي لا حدَّ لسخافتها وتهافتها في جميع الجاهليات.

﴿... لَيُوحُونَ... لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ في وحي الله ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ عقيدياً أو عملياً ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ بالله عقيدياً أو عملياً أم فيهما، فطاعة الشيطان دركات وكلها إشراكات بالله بدركاتها.

فذلك نص قرآني قاطع يوحي أن طاعة غير الله تخلفاً عن طاعة الله تخرجه عن الإسلام إلى الشرك إن كان مسلماً.

وترى إذا شُكَّ في ذبيحة أنه ذكر اسم الله عليه أم لا فما هو دورها؟ إذاً كانت في أرض الإسلام أو يد مسلم أو سوق المسلمين فهي محكومة بالتذكية الكاملة، وإلّا فلا تحل لأن ذكر اسم الله غير محرز لا واقعياً ولا بإمارة شرعية.

فهنا حالات للذبيحة: أن يذكر اسم الله عليه فحِلٌّ دون ريب، أو لم يذكر اسم الله عليه سواء لم يذكر أي اسم أو ذكر من أسماء الأصنام

(١) الدر المنثور ٣: ٤٢ عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١] أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمداً فقولوا له: ما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال وما ذبح الله بمسمار من ذهب يعني الميتة فهو حرام؟ فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [الأنعام: ١٢١]...

والطواغيت أو الصالحين، فحرام دون ريب، والفرق بين موارد الثانية لا فارق له حسب النص، والرواية المنسوبة إلى النبي ﷺ أن «ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر إنه إن ذكر لم يذكر إلّا اسم الله»(١) مطروحة أو مؤولة بالنسيان ويؤيده «إن ذكر» حيث تلمح إلى النسيان حيث لم يذكره، وكما يروى عنه ﷺ قوله: «ذبيحة المسلم حلال سمى أو لم يسم ما لم يتعمد والصيد كذلك» وأما ذبيحة غير المسلم الذي لا يذكر اسم الله فهي محرمة حين ينساه فإن ذكره ونسيان على سواء، اللّهم إلّا أن يكون ممن يذكر اسم الله عليه فنسي فإنه نسيان مغفور لا يشمله.. وإنه لفسق.. فهو أيضاً حِلٌّ، وما لم يذكر اسم الله عليه عمداً هو رزق الشيطان(٢) وأتباعه، وهل يكفي ذكر اسم الله عليه عند أكله وإن لم يذكر عند ذبحه؟ كلّا! فإن ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾(٣) تجعل محور التسمية حالة الذبح دون حالة الأكل، فإن سمى عند الأكل على ما أهلَّ لغير الله به شمله نص التحريم دون ريب، كما وأن ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾(٤) و﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾(٥) فإنه تنديد شديد بمن لا يذكرون الله على الأنعام حيث يعني حين ذبحها، وهذه براهين قاطعة لا مردَّ لها على واجب ذكر الاسم على الذبائح حين ذَبحها لا حين الأكل من لحومها، وكذلك

---

(١) رواه أبو داود في المراسيل من حديث ثور بن يزيد عن الصلت السدوسي مولى سويد بن ميمون أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم بن حبان في كتاب الثقات قال: قال رسول الله ﷺ: ...

(٢) المصدر عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال قال إبليس يا رب كلّ خلقك بينت رزقه ففيم رزقي؟ قال: فيما لم يذكر اسمي عليه.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٤) سورة الحج، الآية: ٣٦.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٣٨.

﴿ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ مجهولاً يعني جواز الأكلّ مما ذكر اسم الله عليه وإن لم يكن الآكل هو المسمي.

فقد نهي عن ذكر اسم غير الله على الذبائح وأمر بذكر اسم الله عليها، فعند تعمد تركه تحرم على أية حال، أياً كان الذابح، وعند ذكره - بسائر الشروط - تحل أياً كان مسلماً وسواه.

وهل إن ﴿ٱسْمُ ٱللَّهِ﴾ الواجب ذكره على الذبيحة أو الصيد هو - فقط - «الله»؟ أم يكفي أي اسم من أسماء الله تعالى؟ قد تلمح ﴿ٱسْمُ ٱللَّهِ﴾ مفردة ألا يكفي غير «الله» ولكنه قد يعني جنس اسمه تعالى كما قال الله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[(١)] فما صدق عليه اسم الله - وهو الاسم المختص بالله - يكفي ذكره على الذبيحة وما أشبه[(٢)].

وهل يجب الجهر باسم الله لحد إسماع الغير؟ طليق ﴿ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يُطلقه عن قيد الإجهار، ولكنه على أية حال ذكر باللسان، لا - فقط - ذكر القلب، كما ويؤيده ﴿عَلَيْهِ﴾ فذكر القلب لا يتعدى بجار، فإنما هو ذكر اللسان.

وهل يكفي مجرد ذكر اسم الله عليه وان كان بمسجلة؟ كلّا! لمكان «فاذكروا اسم الله عليه» ولا يخاطب المسجلة فليكن الذاكر ممن يصح خطابه.

تلحيقة على ضوء ذكر اسم الله على الأنعام ذبحاً ونحراً: هنا شرط سلبي رئيسي في تذكية بهيمة الأنعام هو عدم الإهلال بها لغير الله، نجده في آيات أربع لأنه يحتمل القمة العليا بين شروطها، فرغم أنه ليس ركناً تحرُم

(١) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.
(٢) وتدل عليه صحيحة محمد بن مسلم قال سألته عن رجل ذبح فسبح أو كبر أو هلل أو حمد الله؟ فقال: هذا كله من أسماء الله ولا بأس به (الكافي ٦: ٢٣٣ والتهذيب ٣: ٣٥٣).

المذبوحة بتركه إلّا حال الذُّكر، ولكنه ركن في الفقه الأكبر، والسماح لأكلها في نسيان الذكر رعاية لحال القاصرين وصدٌّ عن التبذير، وذلك الإهلال يعم ما إذا كان أهل ذكراً لغير الله قالاً أو نية وحالاً، أم جمعاً بينهما فأضل سبيلاً، أياً كان غير الله، وفي حكمه ما إذا ذكر مع الله سواه، أو ذكر الله وينوي سواه، أو نوى الله وذكر سواه، فالإهلال لغير الله يعم كلّ هذه الموارد وأشباهها.

وشرط إيجابي رئيسي هو ذكر اسم الله على الذبيحة، ذكراً بكلا القال والحال، فالنسيان أو الجهل مغفوران لأنهما ليسا من الفسق مهما كانا عن تقصير، فسقاً في أصل التقصير دون ترك الذكر، والنص يعلل التحريم بـ ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ فقد انتقشت كلمة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(١) في الذبائح والمنحورات، وجانب السلب أقوى مهما كان الأصل جانب الإيجاب، ولكن السلب قدَر ما هو أقوى فالإيجاب على غراره أقوى، وحرمة ونحاسة ونجاسة ما أهل به لغير الله أشد مما لم يذكر عليه اسم الله ولا سواه.

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

﴿مَيْتًا﴾ علّها مخففة عن «ميِّت» وكما استعملتا في معنى واحد: «سقناه لبلد ميِّت - بلدة ميتاً» و«الميتة» هي مؤنثها، خففت في حالتيها عن ثقلها.

أم هي مصدر يعني طليق الموت في كلّ حقوله الفطرية والعقلية؟

ولكنه لا يناسب أدب اللفظ ولا المعنى، فـ «فعْلٌ قياس مصدر المعدى من ذي ثلاثة كعدًّ عدّا» ثم طليق الموت لا يناسب إلّا من مَثَلُه في الظلمات أن أصبح طليق الموت!.

(١) سورة الصافات، الآية: ٣٥.

وهنا قرنٌ بين أهل النور والظلمات، تفضيلاً لأهل النور: أن ﴿كَانَ مَيْتًا﴾ ليست له حياة إيمانية، ولكنه كان يعيش حياةً فطرية وعقلية، تحرِّياً عن حياة الإيمان ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ بها أن وفقناه للإيمان بما سعى وتحرَّى ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ وهو نور الإيمان الحاصلة على ضوئه بأعمال الإيمان، فلا يضل بين ظلمات الناس النسناس؟ ﴿... كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ فطرية وعقلية أماهية من ظلمات اللّاإيمان ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾(١) حيث انغمس فيها فأحاطت به ﴿كَذَٰلِكَ﴾ البعيد البعيد عن الإيمان ونوره ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أن حسبوها حسنة فهم من ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾(٢).

فهنالك الإحياء بالإيمان كآية أنفسية داخلية، و﴿نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ برسول الإيمان، والقرآن كآية آفاقية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾(٣) ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾(٤).

---

(١) المصدر عن المجمع قيل إنها نزلت في عمار بن ياسر حين آمن وأبي جهل وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام، وفيه ح ٢٧١ عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل: وقال الله عزّوجلّ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [يونس: ٣١] فالحي المؤمن الذي يخرج طينته من طينة الكافر والميت الذي يخرج من الحي هو الكافر الذي يخرج من طينة المؤمن، فالحي المؤمن والميت الكافر وذلك قوله عزّوجلّ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فكان موته اختلاط طينته مع طينة الكافر وكان حياته حين فرق الله عزّوجلّ بينهما بكلمته كذلك يخرج الله جلّ وعز المؤمن في الميلاد من الظلمة بعد دخوله فيها إلى النور ويخرج الكافر من النور إلى الظلمة بعد دخوله إلى النور وذلك قوله عزّوجلّ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٤.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

ويعاكسه الميْت عن الإيمان حيث تحيط به الظلمات آفاقية بالشياطين وأنفسية بنفسه الظالمة المظلمة.

أجل وإن الإيمان الصالح يُنشئ في القلب حياةً بعد موت، وتُطلق فيه نوراً بعد الظلمات، والكفر انقطاع عن هذه الحياة وتلك النور فهو موت طليق حليق على كيان الكافر كله.

والإيمان استعداد فسعيٌ فاستمدادٌ فهو حياة تتعالى.

والكفر موت عنها كلها حيث يحجب الروح عن كلّ تحركاتها الإنسانية السامية، والإيمان ظل ممدود من الرحيم الرحمن والكفر ضلال ممدود من اللعين الشيطان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]؟

أجل والإيمان حياة طيبة تسعى نوره في كلّ النشآت ولا سيما الآخرة: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾[2].

وكما للإيمان درجات متتاليات كذلك للنور درجات متواليات: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾[3] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4].

ذلك والحياة البدنية ونورها تنقضي بالموت ولكن حياة الإيمان ونوره يستمران إلى البرزخ والقيامة الكبرى دون اعتراض موت، اللهمّ إلّا تكاملاً

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.
(٢) سورة الحديد، الآيتان: ١٢، ١٣.
(٣) سورة التحريم، الآية: ٨.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٨.

وشفافية أكثر مما كان في الدنيا، أجل وإنها حياة فوق الحياة الشاملة لكلّ الأحياء العاقلة نتيجةَ العمل الصالح للإيمان وبالإيمان: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1] حياة طيبة روحية نورانية لا تشوبها أية قذارة أو موت، فـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[2].

فأين حياة الروح وموته من حياة البدن وموته، فرب حيٍّ بالبدن ميت في الروح وهو الكافر، أو ميت بالبدن حيٌّ في الروح وهو المؤمن.

ومن آثار تلك الحياة وذلك النور أن صاحبها ﴿يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ مشي الحي البصير على صراط مستقيم، حين يمشي سائر الناس مكبين على وجوههم: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

وكذلك كان المؤمنون ويكونون في مثلث الزمان دون اختصاص للنص بأيٍّ كان، فقبل أن ينفتح الإيمان في أرواحهم ويُطلق فيها هذه الطاقة الفخمة من الحيوية والحركة والتطلُّع والاستشراف كانت قلوبهم ميتة دون حراك إلّا تحرياً عن الإيمان، وكانت أرواحهم ظلاماً بكلّ عراك، فثم إذا قلوبهم ينضح عليها الإيمان فتهتز، وإذا أرواحهم يشرق فيها النور فتضيء ويفيض منها النور فتمشي في الناس هادية الضالين، ملتقطة الشاردين، مُطَمئنة الخائفين، محررة المستعبَدين، كاشفة معالم الطريق للناس أجمعين.

ذلك ومن غريب الوفق عددياً في القرآن ما بين الموت والحياة بمختلف صيغهما أن كلّاً منهما يذكر (٧١) مرة، وعله لأنهما معاً بلوى كما يقول الله: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[4].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الملك، الآية: ٢٢.
(٤) سورة الملك، الآية: ٢.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا
يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن
نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ
رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا
كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن
يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ
كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا
صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ
السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ
رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ
مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ
نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ
أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ
هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ
أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ
وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ
عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ

وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾:

وكما ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ...﴾(١). و﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٢) وجعلنا من الناس أحياء بالإيمان ومنهم أمواتاً بالكفر، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا...﴾ جعلاً تكوينياً إن لم نصدَّهم عن تطاولاتهم المجرمة، بل أملينا لهم ﴿لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا...﴾ و﴿وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾(٣) ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(٤).

وذلك قضية حكمة الابتلاء الحكيمة ليتم الابتلاء بعظُم البلاء، وينفذ القدر المقدر، وتتحقق الحكمة من دار الابتلاء، فيمضي كلٌّ فيما هو ميسَّر له دون أن يكون مسيَّراً في خير أو شر.

فلأن شرعة الله تُمَحور القضاء على الأكابر المستكبرين، لذلك فهم يقفون أكثر ممن سواهم موقف العداء من شرعة الله، حيث تبدأ من نقطة تجريد هؤلاء من كبريائهم وعلوائهم.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٣.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٢٠.

فكما أن رسل الله هم أكابر العارفين بالله، العابدين الله، كذلك أعداءهم - في الأصل - هم أكابر الجاهلين بالله التاركين عبودية الله، سنة جارية في كلّ قرية، مستمرة حتى تقوم دولة الحق العالمية الكبرى بصاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

إنها معركة مصيرية محتومة بين كتلتي الإيمان والكفر، قائمة على أساس القضاء بين القاعدة الأولى لشرعة الله - وهي حصر الحاكمية كلها لدين الله - وبين أطماع أكابر المجرمين في القرى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[1].

ذلك، ولكنه لا خوف على أهل الإيمان من ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ إذ ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ - ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[2].

أجل، ولأنه ليس المؤمنون وحدهم يخوضون تلك المعارك المهالك، فالله وليهم فيها وهو حسبهم حيث يرد على أكابر المجرمين كيدهم وميدهم ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، فإن ضرر المكر راجع - أولاً - إلى أنفسهم دون رادع، ثم الله رادع مكرهم عن المؤمنين الصالحين، مهما لم يردع عمن «زاغوا فأزاغ الله قلوبهم» فإنهم من ذاك النمط.

ذلك و﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ تحلّق على كافة الكبراء والمستكبرين بدَولة الحال أو دُولة المال، والحاصلين على أية وسيلة من وسائل الاستكبار الاستعمار الاستثمار الاستحمار، والاستبداد الاستخفاف الاستضعاف، الأبواب السبع الجهنمية المفتحة من قبل الأكابر على سائر الناس.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٦.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

وهنا ﴿أَكَٰبِرَ﴾ مفعول ثان لـ ﴿جَعَلْنَا﴾ والأول هو ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ أن «جعلنا مجرميها أكابر» حيث الاسم الأوّل هو في الأصل مبتدأ فليكن معرفاً.

ولأن الإجرام ليس إلّا على قدر الكبر، فذلك الجعل يعني أنه تعالى لم يمنع الأكابر عن إجرامهم الكبير ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ كما يستطيعون حتى يخلص الغث من السمين والخائن من الأمين ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[1] ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[2].

وقد تعني اللام في ﴿لِيَمْكُرُوا﴾ العاقبة لذلك الجعل أتوماتيكياً، دون أن يريده الله توفيقاً لهم في مكرهم، كما لم يرد إجرامهم اللهم إلّا عدم الصد عما يفعلون، فهي كـ ﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[3] في قصة أخذ موسى من اليم، إذ لم يقصدوا منه إلّا خيراً: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[4] أم هي غاية لهم مقصودة، فـ ﴿جَعَلْنَا... لِيَمْكُرُوا﴾ تعني - إذاً - ما صددناهم عن مكرهم ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ مخيرين غير مسيرين.

ذلك وأكبر الإجرام ما إذا جمع ثالوث الذرائع إليه والدوافع له من دُولة المال ودَولة الحال والعلم بمختلف الأحوال ولا سيما ظاهرة علم الدين، فيا ويلاه من ذلك الإجرام المثلث حيث لا قِبَل له.

«ألا فالحذر الحذر من طاعة سادتكم وكبرائكم، الذين تكبروا عن حسبهم، وترفعوا فوق نسبهم، وألقوا الهجينة على ربهم، وجاحدوا الله على

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.
(٣) سورة القصص، الآية: ٨.
(٤) سورة القصص، الآية: ٩.

ما صنع بهم، مكابرة لقضائه، ومغالبةً لآلائه، فإنهم قواعد أساس العصبية، ودعائم أركان الفتنة، وسيوف اعتزاز الجاهلية»[1].

وهؤلاء الأكابر المجرمون، وحماقى الطغيان المتفرعنون، يحيلون إيمانهم بآية إلّا كما يشتهون:

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾:

هذا من أمكر المكر حيث يخيَّل إلى البسطاء أن صاحب آية غير ما أوتي رسل الله ليس من رسل الله، وكأنهم من مصدقي رسل الله إذا صدقت رسالاتهم بآياتهم المتواصلة المتشابهة، وأما إذا تخلفت آية عنها فليسوا هم بمصدقيها كآية القرآن العظيم، وكأنهم أعلم من الله بكيان الآية الرسولية التي تثبت الرسالة، و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ فحيثية الرسالة الختمية تتطلب آية خالدة تمشي مع الزمن وتهدي كلّ أهل الزمن، فلو أن الله بعث خاتم الرسل بآيات الرسالات الأخرى، المؤقتة لردح من الزمن الرسولي، لكانت آية ناقصة ناقضة لخلود الرسالة.

صحيح أن الآيات الرسالية السابقة كانت عابرة غير باقية عبر كلّ رسالة إلّا أن الرسل اللّاحقين كانوا بآياتهم مصدقين لكلّ سابقة، رسالات متواتية بآيات متشابكة يصدق بعضها بعضاً، ولكن الرسالة الأخيرة لا مصدق لها بعد ارتحال رسولها إلّا آيتها الخالدة: القرآن العظيم.

وهؤلاء الأكابر المجرمون المختلقون لهذه الشبهة الماكرة أصابوا بها القرآن صغاراً كأنه آية صغيرة غير كافية أم ليست آية، فـ ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾.

---

(١) الخطبة ١٩٠/ ٣٦١.

أجل، ولو كانوا هم أولاء - كما يدعون - عالمين حيث تُجعل رسالة الله فـ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منهم ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ لأنه هو الله العالم الغيب والشهادة، وهو المرسِل - كما يعلمون - سائر الرسل بسائر الآيات المعجزات.

وليست آية القرآن شاذة عن سائر الآيات إلّا في صورتها، وأما سيرتها فهي أقوى وأبقى دلالة خالدة على خلود هذه الرسالة السامية، فكيف تصبح الآية الأقوى والأبقى فعلية وفاعلية أبعد عن التصديق بعدم التشابه في صورتها مع الآيات الأخرى، ويكأنها هي الأصيلة التي تقاس عليها غيرها.

ذلك، ولو أن عدم التشابه الصوري بين آيات الرسالات يقضي على حجّية اللاحقة غير المشابهة للسابقة، فلتكن الآية الأولى هي المصدَّقة فقط، ثم اللّاحقة لها كلها مطرودة لعدم التشابه الكامل، ولا تشابَه بين فلْق البحر لموسى وإحياء الموتى لعيسى عليه السلام!.

ولئن قالوا إن الأصيلة هي الأولى بازغةَ الرسالات، يقال لهم بأية حجة هي الأصيلة والتالية ليست بها، رغم أن الرسالات بآياتها متدرجة إلى أعلى فأعلى حتى تنتهي إلى علياها الوحيدة الخالدة كما القرآن العظيم.

وهنا ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ لا تختص بآية الرسالة، بل هو الحيث الرسالي رسولاً ورسالة بآياتها المثبتة لها وأصلها وزمانها ومكانها حيث الحيث هنا يحلّق على كلّ حقول الرسالة وأبعادها، فقد نظر الله في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد وأصفاها وأضفاها فاصطفاه لنفسه فأضفاه لرسالته الأخيرة التي تحمل الرسالات كلها، وجعل لها آيتها الخالدة رسولية ورسالية: القرآن العظيم.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى

ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾(١).

فقد عنوا من قالتهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ المشابهة الطليقة بين الرسل بما أوتوا من آيات رسولية، وآيات رسالية هي شرعتهم وكتاباتهم، ووحدويةً في الرسالات بكلّ أبعادها دون أي اختلاف صوري في الأحكام ولا الآيات، مما ينقِّص وينقض كلّ الرسالات بعد الأولى، فإنها تختلف رسولياً ورسالياً في بعض المظاهر الأحكامية وآياتهم، وما أسخفه قولاً هو بظاهره صالح حيث يتظاهر بوحدة الرسالات، وفي باطنه مكرٌ يجتث كلّ الرسالات عن جذورها: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾(٢).

ويا للهول من مكرهم الماكر الحاكر في خِضِمّه كلَّ صنوف المكر، أنهم وهم أكابر المجرمين الناكرين للرسالات كلها يرفعون عَلَم الوحدوية الرسالية، محتاطين في الأخيرة لأنها لا تشبه سائر الرسالات؟ زعمَ أن المتقدمة هي الأصيلة لقدمتها!.

وما قيلتهم الغيلة، تلك الغائلة العليلة، إلّا كقيلة اليهود: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ . . .﴾(٣).

وقد تلمح ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أن تطلّبوا - فيما هم مقترحون - أن يُؤتوا رسالة كما أوتي رسل الله، و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ٥٠-٥٢.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.
(٣) سورة القصص، الآية: ٤٨.

رِسَالَتَهُۥ﴾ جواب قاطع لا مرد له أن محطة الرسالة الربانية لا بدَّ وأن تكون ربانية تناسب رسالة الله من القلوب الطاهرة الباهرة دون القلوب المقلوبة الباترة الهاترة(١): ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾(٢) فقد أرادوا أن تجمع لهم القيادة الروحية إلى القيادات الزمنية حتى يصبحوا أكابر في القيادتين، فلا تعارضهم القيادات الروحية في كبريائهم وعلوائهم الظالم المظلم جو الإنسانية جمعاء.

والحق أن ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ. . .﴾ إجابة عن كلّ الشطحات الثلاث المحتملة لاقتراحهم «حتى نؤتى ما أوتي رسل الله» حيث الحيثُ تعم حيث الرسالة وآيتها الرسولية والرسالية، مثلث من الحيثيات في حقل الرسالة كانت مقتَرحة على مدار الزمن الرسالي بصيغ مختلفة تجمعها بجواباتها هذه الجملة الجميلة الشاملة.

والقول إن تعميم الوحي لكافة المكلفين كان أصلح للإصلاح؟ غولٌ وتأثيم من القول!، حيث الرسالة والوحي أمانة ربانية لا تحل إلّا محلها المناسب لها، والمناسبة للرسالة قابليةً وفاعليةً هي بين عصمة بشرية تحقيقاً لكلّ المساعي تحليقاً عليها للحصول على أصفى الصفاء، ومن ثم عصمة ربانية كما يراه الله ويرضاه.

وكيف تليق هذه القلوب المقلوبة العفنة النتنة، المستكبرة الرادة على الله رسالاته، كيف تليق أن تكون حمَلَة رسالات الله جمعاً بين النور والظلام، نقضاً لحكمة الملك العلام؟ كلا: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ. . .﴾.

فأقل ما يشرط في مهابط الوحي والتنزيل التخلية عن كلّ مكر وغدر ثم

(١) قال المفسرون قال الوليد بن المغيرة «والله لو كانت النبوة حقاً لكنت أنا أحق بها من محمد ﷺ فإني أكثر منه مالاً وولداً فنزلت هذه الآية».

(٢) سورة المدثر، الآية: ٥٢.

التحلية بحلية الإيمان، ومن ثم الإيمان القمة المصفاة عن أية كُدرة، وهؤلاء الكبراء المجرمون ماكرون وغادرون في قولتهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ﴾ فكيف يحمِّلون رسالة الوحي؟.

فهؤلاء الأكابر المجرمون سيصيبهم صغار عند الله، كما خيِّل إليهم أنهم كبار عند الله، يجب عليه أن يكون عند متطلباتهم الجاهلة الغائلة، صغار باستكبارهم وأنهم جعلوا رسالة الله وحكمه صغاراً يستصغرونه لحدّ يتطلبونه لأنفسهم الحضيضة البغيضة.

ويا ليتهم لمسوا جانباً من طبيعة الرسالة الربانية والوحي حتى لا يلفظوا بهذه الشطحات، فالقلب المتجرد عن كافة الحظوظ الذاتية والعرضية، المتحلي بحب الله ومرضاته، والمتجلي لمعرفة الله وعبوديته، المتفئد بنور الله، هو اللائق لتحمل رسالة الله، دون القلوب المقلوبة عن إنسانيتها، المتفئدة بنيران الشهوات والحيوَنات.

ثم الله هو وحده الذي يصطفي من أصفائه من يصلح لحمل الرسالة، بصالح القابلية والفاعلية الرسالية، بالعصمة البشرية والإلهية، دون الناس الصالحين أياً كانوا فضلاً عن هؤلاء الطالحين الكالحين! ذلك:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾:

والصدر هنا هو صدر الروح الكامن في صدر الجسم، وهكذا العقل في المخ، والقلب في القلب، الذي هو نفسه في الصدر، وكما يُشرح صدر الجسم بسطاً للحمه ونشراً، كذلك صدر الروح الذي هو مصدر الإيمان والكفر وسيطاً بين العقل والقلب، فالفطرة والعقل والصدر والقلب هي مراكز المعرفة كلٌّ تلو الأخرى مترتبة في تنقل المعرفة الحقة والباطلة، وإنما

يذكر القلب أكثر بكثير من زملائه لأنه قلب الروح، والمركز الرئيسي النهائي لكلّ محاصيل الروح بجنوده، فهو إمام الأئمة في كيان الإنسان، فـ «القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء» وهنا ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ...﴾ تفريع بياني لـ ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾(١).

وكما ينشرح الصدر ويلين لذكر الله وبذكر الله، كذلك - وبأحرى - القلب: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ...﴾(٢).

وليس الشرح إلّا للمعقد الغامض إيماناً وكفراً حيث هما قَدَر القدرة الخلقية معقّدان، فالله يشرح الإيمان فينشرح كما يريده، ويشرح الكفر فينشرح جزاءً وفاقاً.

ثم إن هداية الله وإضلاله ليسا فوضى جزاف، فإنما يحل كلٌّ محلّه جزاءً وفاقاً، وفي الهدى زيادة قضيةَ فضل الله ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ «بإيمانه»(٣) وهو المريد لهدى الله، المتحرّي عنها، المحاول في إسلامه لله ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ إخراجاً له عن مضايقه ومزالقه قدر ما أعدَّ له حيث عدَّل صدره ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(٤).

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٣) نور الثقلين ١: ٧٦٥ في عيون الأخبار بسند متصل عن حمدان بن سليمان النيسابوري قال: سألت أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ...﴾ قال: من يرد الله أن يهديه بإيمانه في الدنيا إلى جنته ودار كرامته في الآخرة يشرح صدره للتسليم لله والثقة به والسكون إلى ما وعده من ثوابه حتى يطمئن إليه ومن يرد أن يضله عن جنته ودار كرامته في الآخرة لكفره به وعصيانه في الدين يجعل صدره ضيقاً حرجاً حتى يشك في كفره ويضطرب من اعتقاد قلبه حتى يصير كأنما يصعد في السماء ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(٤) سورة النجم، الآية: ٣٩.

وذلك الشرح مما لا يقدر عليه أي محاول له إلّا بما أعدَّ له ثم الله ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ بدرجاته حسب الدرجات.

فأين شرح صدور الأنبياء كموسى عليه السلام وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيث تطلبه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى...﴾[1].

فاستجيب ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾[2] يا موسى وأعطاه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ...﴾[3]. وقد يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه «نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح له»[4].

وأين شرح سائر الصدور غير الحاصلة على ما حصلوا غير الواصلة إلى ما وصلوا؟، من شرح الصدور الحاصلة الواصلة؟!.

وحين ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[5] لا يضل عن هداه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[6] [7]، ومن شرح الصدر «أن الله إذا أراد

---

(١) سورة طه، الآية: ٢٥.

(٢) سورة يونس، الآية: ٨٩.

(٣) سورة الشرح، الآية: ١.

(٤) لتوضيح أكثر حول العقل واللب والصدر والقلب والفؤاد راجع ج ٢٣: ٣٢١ من الفرقان.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

(٧) في الدر المنثور ٣: ٤٤ - سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أي المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرهم ذكراً للموت وأحسنهم لما بعده استعداداً، وسئل صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الآية ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]؟ قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟
قال: نور. قالوا: فهل لذلك من إمارة يعرب بها؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت».
أقول رواه عنه صلى الله عليه وآله وسلم جماعة منهم جعفر المدائني عن رجل من بني هاشم عنه صلى الله عليه وآله وسلم وعبد بن حميد عن الفضيل عنه صلى الله عليه وآله وسلم وابن مسعود عنه صلى الله عليه وآله وسلم وعبد الله بن السور وكان من ولد جعفر بن أبي طالب عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

بعبد خيراً نكت في قلبه نكتة من نور فأضاء لها سمعه وقلبه حتى يكون أحرص على ما في أيديكم منكم...»[١].

ذلك ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ عن الإسلام والنور ﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾: ضيقاً لا ينفتح لمحاصيل العقل السليم وسواها من هدىً آفاقية أو أنفسية، و﴿حَرَجًا﴾ «كالشيء المصمت الذي لا يدخل فيه شيء ولا يخرج منه شيءٌ»[٢] فهو أضيق الضيق الذي لا مدخل فيه ولا مَخرج عنه، وأصل الحرج الوادي الكثير الشجر المشتبك الذي لا طريق فيه، والشجرة تحدق بها الأشجار فلا يصل إليها رعية ولا وحشية، وكذلك قلب الكافر.

فهي نهاية الضيق حيث لا مجال له ولا منفذ لنور المعرفة والإسلام حيث احتله كله الظلام.

و«حَرَجاً» مصدراً دون «حَرِجاً» صفةً مشبهةً، تعني المبالغة في إحراجه لحد كأنه نفس الحرج، صدر لا يستطيع أن يتنفس نفس الرحمن وإنما يتنحَّس بنفس الشيطان ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ﴾ صاحبه ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ والتصعُّد هو صعوبة الصعود ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ التي لا مجال للصعود فيها حيث لا مادة للتنفس فيها يستفيد منها صاحب الصدر المتنفس، أم ولا وسيلة صالحة لذلك الصعود.

ذلك وهي حالة نفسية تجسم في حالة حسية من ضيق النفس وكربة الصدر والرهق المضني من التصعد في السماء.

وهنا ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ دون «إلى السماء» لمحة إلى أن الصعود إلى السماء منه ميسور كما نتصعد إليه نحن بالطائرات والصواريخ، ففي السماء

---

(١) نور الثقلين ١: ٧٦٥ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله عزّ وجلّ...

(٢) نور الثقلين ١: ٧٦٦ في تفسير العياشي قال أبو عبد الله عليه السلام لموسى بن أشيم: أتدري ما الحرج؟ قال: قلت: لا، فقال بيده وضم أصابعه: كالشيء المصمت..

وفيه عنه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ...﴾ [الأنعام: ١٢٥] قال: قد يكون ضيقاً وله منفذ يسمع منه ويبصر والحرج هو اللثام الذي لا منفذ له يسمع به ولا يبصر منه.

- خارجاً عن فضاء التنفس والممكن الصعود إليه منها بحالة غير محرجة - فضاءٌ لا يمكِّن الصاعد إليه للتنفس أو التلبث والتريُّث إلّا بصورة محرجة مخرجة للإنسان عن طوقه، وهذا من الملاحم القرآنية: إمكانية الصعود في السّماء، وصعوبته من حيث مضائق النفس وسواها.

وهكذا يكون مثل من ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ ليس له مجال للتصعد إلى سماء المعرفة بوحي وسواه، حيث الفطرة منه مستورة والعقلية معقولة بطوع الهوى، والصدر ضيق حَرَج والقلب مقلوب، والفؤاد متفئد بنيران الشهوات والحيوَنات، حيث الله «نكت في قلبه نكتة سوداء وسد مسامع قلبه ووكل به شيطاناً يضله»(١): ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧﴾(٢).

وذلك رجس على تلك الصدور غير المؤمنة، فـ ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ رجسٌ لا محيد عنه على أية حال و﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فالرجس يمثل لنا رَيناً وقذارة: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾(٣) فكما أن القلوب ترين كذلك الصدور كلٌّ حسبها وبحساب تضيُّقها.

ولأن القلوب هي في الصدور: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾(٤) فضيق الصدر الحرج يضيق القلب، كما و«أن القلب ليتجلجل في الجوف يطلب الحق فإذا أصابه اطمأن»(٥).

---

(١) نور الثقلين ١: ٧٦٥ عن أبي عبد الله عليه السلام - مضى صدره في شرح صدر المؤمن - وإذا أراد بعبد سوء نكت... ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ...﴾ [الأنعام: ١٢٥].

(٢) سورة الزخرف، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٣) سورة المطففين، الآية: ١٤.

(٤) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٥) المصدر في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن القلب..

وهكذا الله يُطَمئن القلوب المؤمنة أن يشرح الصدور وهي برّانيات القلوب، تحصل فيها حُصالة ما في الصدور «فإذا أعطاه ذلك نطق لسانه بالحق وعقد قلبه عليه فعمل به...»[1]. ويضيق الصدور فتضيق القلوب التي في الصدور، ومن مِيّزات المنشرح صدره للإسلام معرفة لطائف القرآن التي لا يعرفها وينتبه لها إلّا من شرح الله صدره للإسلام حيث «صفا ذهنه ولطف حسّه وصح تمييزه»[2].

ذلك، وهنا قيلات - هي ويلات على السذج المجاهيل - حول هذه الآية وأشباهها، ك: إن الهداية والضلالة إنما هما من الله وليس للمهتدي والضال أية حيلة في هداية أو ضلال؟ والقرآن يجيب في عشرات من الآيات عن أمثال هذه الشطحات أن هذه الهداية والضلالة اللتين ينسبهما الله إلى نفسه، إنهما ليستا بدائيتين دون سابقة، بل هما جزاء، ف ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[3] ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[4] فإنما يريد الله أن يشرح صدور

---

(١) المصدر ٧٦٦ في روضة الكافي بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه: واعلموا أن الله إذا أراد بعبد خيراً شرح الله صدره للإسلام فإذا أعطاه ذلك نطق... فإذا جمع الله له ذلك تمَّ له إسلامه وكان عند الله أن مات على ذلك الحال من المسلمين حقاً وإذا لم يرد الله بعبد خيراً وكله إلى نفسه وكان صدره ضيقاً حرجاً فإن جرى على لسانه حق لم يعقد قلبه عليه فإذا لم يعقد قلبه عليه لم يعطه الله العمل به فإذا اجتمع ذلك عليه حتى يموت وهو على تلك الحال كان عند الله من المنافقين وصار ما جرى على لسانه من الحق الذي لم يعطه الله أن يعقد قلبه ولم يعطه العمل به حجة عليه فاتقوا الله وسلوه أن يشرح صدوركم للإسلام وأن يجعل ألسنتكم تنطق بالحق حتى يتوفاكم وأنتم على ذلك.

(٢) المصدر ح ٧٦٧ في كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه: ثم أن الله جلّ ذكره لسعة رحمته ورأفته بخلقه وعلمه بما يحدث المبدلون من تغيير كلامه قسم كلامه ثلاثة أقسام: فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل وقسماً لا يعرفه إلّا من صفاً.. ممن شرح صدره للإسلام» أقول: «تغيير كلامه» يعني تغيير المعنى دون اللفظ لمكان صيانة القرآن عن التحريف بقاطع الأدلة.

(٣) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٤) سورة الصف، الآية: ٥.

الذين هم في طريق الهدى فيؤيدهم ويوفقهم لها من فضله، ويريد تضييق صدور الذين هم في طريق الردى مصرِّين عليها فيسد عليهم أبواب الهدى فتحاً لأبواب الردى جزاءً وفاقاً من عدله.

ففي البداية يزيِّن الله الإيمان في قلوب المكلفين، فإذا زاغت بما تخلفت أزاغها الله، وإن صاغت وتابعت شروطاً للإيمان هداها الله، فـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾(١) ﴿... وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾(٢) وعلى الجملة: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٣).

أجل ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وأما الذين يؤمنون فقد يشرح صدورهم للإسلام، فليس من الله إلّا العدل بالنسبة للذين لا يؤمنون والفضل للذين يؤمنون: فـ ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾(٤) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾(٥) ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ﴾(٦).

إذاً ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ هو المهتدي أولاً أو القابل لها في صميمه والساعي لها، والهدى الثانية هي الإسلام لله حقاً بعد ظاهر الإسلام والايمان، ثم ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ هو من الذين لا يؤمنون، كما قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فليس ذلك الموقف من المؤمن الهداية الأولى المتحري عنها، ولا من

---

(١) سورة النمل، الآية: ٤.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.
(٤) سورة التغابن، الآية: ١١.
(٥) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٦) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

الكافر الضلالة الأولى العامل لها، إنما هما هدىً بعد هدىً وضلالة بعد ضلالة جزاءً من ربك عطاءً حساباً أو عقاباً وفاقاً.

ذلك، ولأن المهتدي لا يسطع على طليق الهدى إلّا قدر ما يسطع فالله هو الذي يُطلق هداه بما يشرح صدره للإسلام، وكذلك الضال لا يسطع أن يجعل ضلاله طليقاً فالله هو الذي يُطلق ضلاله حتى لا يسطع - بعدُ - على هدىً ذلك، والمنشرحة صدورهم، النيرة قلوبهم: «هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترَفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى»(١).

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًاۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾:

إن ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ صراطان، صراط ربوبيته الخاصة به: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢) ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾(٣).

وصراط جعله للسالكين إلى مرضاته: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾(٤) وأين صراط من صراط؟.

والمعني هنا من ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ هو الأول، صراط الابتلاء لعباده شرحاً لصدور وتضييقاً لأخرى، ﴿مُسْتَقِيمًاۗ﴾ لا عوج له إذ ليس ظلماً بالعباد بل هو فضل لطائفة وعدل لآخرين.

وقد يعني ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًاۗ﴾ إضافة إلى هذا، الصراط الثاني فإنهما لا يختلفان في كونهما ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ مهما اختص سلوك الأوّل به تعالى في ربوبيته والثاني بخلقه في مربوبيتهم.

---

(١) ١٤٧ ح/٥٩.
(٢) سورة هود، الآية: ٥٦.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٤١.
(٤) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

و﴿رَبِّكَ﴾ دون «رَبِّ الْعالَمِينَ» وما أشبه، لمحة إلى الصراط الثاني حيث الأوَّل لا يختلف بالنسبة له تعالى في جميع المكلفين، والثاني تختلف في درجاته، أو يقال إن صراطه تعالى في ربوبيته تشريعاً لهذه الشرعة الأخيرة يختلف عما لسائر الشرائع، كما يختلف صراط السالكين في هذه الشرعة عما قبلهم.

و﴿صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ هنا بتلك الإضافة المطمئنة توحي بالثقة والطمأنينة المبشرة بالنهاية المرغوبة، فهذه هي سنة الله في الهدى والضلالة، وتلك هي شرعة الله في الحل والحرمة، كلاهما من ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ سواء في ميزان الله، لحمة في سياق كتاب الله.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ في ذلك الصراط ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ الهدى عن الضلال.

فقوم يذكرون هم على صراط مستقيم من صراط ربك المستقيم فلهم ما لأصحاب الصراط المستقيم:

﴿۞ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾:

﴿دَارُ السَّلَامِ﴾ وما أدراك ما هي دار السلام؟ إنها دار يدعو الله إليها عباده الصالحين السالكين صراطه المستقيم ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١) وهذا من إضافة الموصوف إلى صفته.

دار تستروح فيها أرواحهم بروَح المعرفة والزلفى ورُوح الطمأنينة العليا، سلاماً طليقاً يحلق على كيانهم ككلّ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ عندية الحضور كما يمكن، ناظرين رحمته، حاضرين عنايته، لا تغيب عنهم ولا يغيبون عنها ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ يلي أمرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولاية بولايتهم لله وحماية بحمايتهم شِرعة الله.

(١) سورة يونس، الآية: ٢٥.

ولأن ﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾ اسم من أسماء الله فقد تعني فيما عنت «دار الله السلام» ولكن قد تبعده ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حيث العبارة «لهم دار الله عند الله» أو يقال ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾: الله السلام، ودار السلام ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لمكان ربوبيته المقتضية لكونه تعالى سلاماً ولكون داره سلاماً، «وهو» الرب السلام والسلام الرب ﴿وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ذلك ودارهم في كلّ النشآت الثلاث هي دار السلام مهما كان الأخرى هي أحرى بالسلام، لأنها خالص السلام دون كالسه كما في الأولى.

ويا للمؤمنين المستقيمين على صراط مستقيم من تشريفات:

١ - أن ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ مختصة بهم قضيةَ تقدم الظرف.

٢ - وأنها الدار المخصوصة بالسلام: الله، أو السلامة الطليقة.

٣ - و﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لمحة لامعة إلى قربهم إليه.

٤ - ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ إلى قربه الخاص إليهم برحمته الخاصة.

وذلك ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قلباً وقالباً حيث انقطعوا إلى الله عما سواه، فما كان رجوعهم إلّا إليه، ولا توكلهم إلّا عليه، ولا أنسهم إلّا به، ولا تخضُّعهم إلّا له، فلما تعلقوا به بكلّ كيانهم لم يتولوا إلّا إياه ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾: كلّ العالمين المكلفين، مخاطِباً الثقلين ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ فما هو استكثارهم منهم؟ هل هو أنهم أكثر منهم؟ وليس موضع سؤال تنديد فإنه تعالى هو الذي خلقهم قبلهم ﴿وَٱلْجَآنَّ

خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[١] وهو الذي عمَّرهم أكثر منهم! ثم العبارة الصالحة له ليست ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم﴾ إذ لم يكونوا هم الذين أكثروا أنفسهم، ولا ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ بل «على الإنس»!.

فإنما استكثارهم استخدامهم كثيراً الإنس عِدَّة وعُدَّة وهم كفرة الجن وفسقتهم، دون المؤمنين منهم فضلاً عن مرسليهم، إذا فالتنديد وارد مورده: أن الجن الضالين استكثروا من إضلال الإنس وكما قال الله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[٢] إضافة إلى سائر طرق الإضلال الرَّهَق.

وهنا جواب معشر الجن مسكوت عنه إلى أوليائهم من الإنس: «وقال أولياءهم من الإنس» وهم الذين كانوا يتولونهم في حقل الضلالة: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾: متعةَ الحياة الضالة، تعاوناً في تلك المتعة اللعينة المعنية من حيونة الحياة، الخليطة من شهوات الجن والإنس واللَّهوات.

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ وهو أجل الموت الذي ينقطع به التكليف، ثم أجل البرزخ قضية ﴿يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ الخاصة بيوم الجمع وليس كذلك البرزخ.

إلّا أن البرزخ ليس أجلاً في مجال التكليف، وذلك التساءل يوم الجمع قضية ناره والأجل هو أجل الموت.

﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إخراجاً لبعض عنها إلى الجنة إذا ذاق وبال أمره، وإحراجاً لآخرين إدخالاً لهم لردحٍ في الزمهرير، وإفناء للنار مع أهل النار الآبدين، وكلّ ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ حيث

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الجن، الآية: ٦.

الحكمة العليمة تقتضي عدم التسوية بين أهل النار حيث هم مختلفون في استحقاق النار بين هذا المثلث بمراحل متفاضلة لكلّ ضلع ضليع.

وقد يلمح طليق ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ لإمكانية متعة الجنس - وما أشبه - بينهما، إلى سائر المُتَع المحظورة، من مُتَع الخدمة والاستخدام والاستعلام في خفايا الأمور، إلى سائر الشيطنات أعاذنا الله منها.

ذلك وفي رجعة أخرى إلى الآية نرى أن المشهد يبدأ معروضاً في المستقبل ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ...﴾ ولكن تقدير «يقول» يحوِّل السياق من مستقبل يُنتظر إلى واقع ينظر.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ...﴾ وكأنهم الآن حضور ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ تنديد شديد باستكثارهم في إضلالهم قصداً إلى تسجيل تلكم الجريمة النكراء في نفس الأجل المؤجل لهم.

ثم لا نجد هنا جواباً من الجن حيث المظلِّل ليس له عذر، ولكن قد يخيّل إلى المضلَّل عذرٌ ما زعم أنه مستضعف في ذلك الحقل: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ...﴾ إقرار بالغفلة العاطلة والغفوة الباطلة التي جعلت فيهم مجالاً لذلك الاستمتاع المزدوج، مدخلاً للشياطين إلى نفوسهم في ﴿أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ فمن منفذ الاستمتاع دخِل فيهم الشياطين، حيث كانوا يتمتعون باستهوائهم والعبث بهم، كما كان الإنس يتمتع بذلك الاستهواء، وكأنها معاملة بين الجانبين في مختلف المُتَع المحظورة حتى ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ محتوماً أو معلقاً، مختوماً أو مغلقاً.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الاستمتاع المتبادل ﴿نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ تولية للظالمين المضلِّلين ولايةً على الظالمين المضلَّلين: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ

شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾(١) - ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾(٢).

وتولية للظالمين المضلَّلين حيث يتبعون المضلِّلين، توالياً ظالماً في هذا البين ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، فمكاسب السوء المغلَّظ تجعل الأوَّلين يسعون في إضلال الآخرين، ومكاسب الآخرين في إحناء ظهورهم لركب الشياطين تجعلهم بهم مضلَّلين فـ ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ﴾(٣) ولا يظلمون نقيراً.

ذلك وكما يروى عن النبي ﷺ قوله في حقل الولاية: «كما تكونون يولَّى عليكم»(٤).

فالمؤمن ولي المؤمن أيّاً كان وأيان، والكافر ولي الكافر أيّاً كان وأيان، فليس الإيمان بالله بالتمني ولا بالتحلّي، فلعمري لو عملت بطاعة الله ولم تعرف أهل طاعة الله لم يضرك، ولو عملت بمعصية الله وتوليت أهل طاعة الله لم ينفعك.

فهنالك الله ولي الصالحين بما صلحوا وأصلحوا، وهنا الظالمون بعضهم أولياء بعض ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فكلّ ولاية - إذاً - مكسب لأهليها دون فوضى جزاف.

أجل و﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟

---

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٥.

(٣) سورة النور، الآية: ١١.

(٤) الدر المنثور ٣: ٤٦ - أخرج الحاكم في التاريخ والبيهقي في شعب الإيمان من طريق يحيى ابن هاشم ثنا يونس بن أبي إسحاق عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: ...

أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[1].

وهذه سنة ربانية لا حِوَل عنها في الولاية خيِّرة وشرِّيرة، إذ لا بدَّ في نجاح الأهداف جماهيرية وفردية من ولاية، كفاحاً قاصداً لتحقيق المُرام في أي مَرام خيراً أو شراً.

ذلك، فالحق أحرى بحق الولاية تحقيقاً لدولة الحق وتسحيقاً لدولة الباطل، وهو من أهم الواجبات الجماعية لكتلة الإيمان، سلباً لعرقلة الكفر فإيجاباً لدولة الإيمان، والله هو المستعان.

﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾:

آية وحيدة في صراح التعبير عن كيان الرسالة بين معشر الجن والإنس، يتساءلون فيها يوم الحساب عن إتيان رسل منهم.

ولأن معشر الجن والإنس هما صفتان اثنتان فقضية ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أن يكون رسلهم صنفين اثنين[2] مهما كان أصل الرسالة في الإنس، اللهم إلّا عند اختتام الوحي بالرسول إلى العالمين أجمعين محمد ﷺ حيث انقطع به الوحي[3] فرسل الجن عنده لا يحملون وحياً من الله، إنما

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٢) نور الثقلين ١ : ٧٦٨ في عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من خبر الشامي وما سأل عنه أمير المؤمنين عليه السلام في جامع الكوفة حديث طويل وفيه سألته هل بعث الله تعالى نبياً إلى الجن؟ فقال: نعم بعث إليهم نبياً يقال له يوسف فدعاهم إلى الله فقتلوه.

(٣) المصدر عن أبي جعفر عليه السلام قال في حديث طويل: إن الله عزّ وجلّ أرسل محمداً ﷺ إلى الجن والإنس.

هم ممثِّلون للرسول ﷺ بين قبيلهم كما تدل عليه آيات الجن والأحقاف: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)﴾[(١)] ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩)﴾[(٢)] - ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢)﴾[(٣)] ولقد تكفي العصمة في الداعية لكي يكون أسوة للمدعوين دون اشتراط عصمة الرسالة، مهما كان لدعاة الجن قبل الرسالة الأخيرة عصمة الرسالة، فالعصمة للداعية على أية حال هي قاطعة الأعذار.

فـ «هو الذي أسكن الدنيا خلقه وبعث إلى الجن والإنس رسله ليكشفوا لهم عن غطائها وليحذروهم من ضرائها، وليضربوا لهم أمثالها، وليبصروهم عيوبها، ولينهجوا عليهم بمعتَبر من تصرف مصائبها وأسقامها وحلالها وحرامها وما أعد الله سبحانه للمطيعين منهم والعصاة من جنة ونار وكرامة هوان»[(٤)].

---

(١) سورة الجن، الآيتان: ١، ٢.

(٢) سورة الجن، الآيتان: ٨، ٩.

(٣) سورة الأحقاف، الآيات: ٢٩-٣٢.

(٤) نور الثقلين ١: ٧٦٨ عن نهج البلاغة عن علي أمير المؤمنين عليه السلام، وفيه... واصطفى سبحانه من ولده (آدم) أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لمّا بدّل أكثر خلقه عهد الله إليهم، فجهلوا حقه واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبيائه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسيّ نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، =

وهنا ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ المندد بهم في الخطاب العتاب ليسوا هم كلهم، بل هم شياطين الجن والإنس لمكان ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ وسابق الخطاب العتاب ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾ وإن المعشر هم كلّ جماعة أمرهم واحد عِشرة واحدة في أمرهم كفاراً أو مسلمين، فجواباً عما قاله «أولياءهم من الإنس» يخاطبون تساءلاً ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ. . .﴾ والجواب ﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ فلا عذر لهم في شيطناتهم بتمتعاتهم المتبادلة المحظورة ودعاياتهم الضالة المضلة.

هنا «منكم» تقتسم الرسالة بين معشر الجن والإنس إلى رسل من الجن ورسل من الإنس، إذ لو اختصت الرسالة برسل الإنس فـ «منكم» في قبيل الجن مسلوبة، كما لو اختصت برسل الجن كانت «منكم» في قبيل الإنس مسلوبة.

والقول إن ﴿مِّنكُمۡ﴾ لا تدل على أزيد من كون الرسل من جنس المخاطبين وهم مجموع الجن والإنس لا من غيرهم كالملائكة حتى

= ويُروهم الآيات المقدَّرة، من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم، وآجال تفنيهم، وأوصاب تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم، ولم يخل سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزَل، أو حجة لازمة، أو محجة قائمة، رسل لا تقصِّر بهم قلَّة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم، من سابق سُميَ له مَن بعده، أو غابر عرَّفه مَن قبله، على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء، وخلفت الأبناء» (الخطبة ١ / ٣١).

ذلك «وليقيم الحجة به (آدم) على عباده، ولم يُخلهم بعد أن قبضه، مما يؤكد حجة ربوبيته، ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه، ومتحملي ودائع رسالاته، قرناً فقرناً، حتى تمت بنبينا محمد ﷺ حجتُه، وبلغ المقطع عذره ونذره» (الخطبة ٨٩ / ٣ / ١٧٤) «فاستودعهم في أفضل مستودع، وأقرهم في خير مستقر تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام، كلما مضى منهم سلف قام منهم بدين الله خَلف، حتى أفضت كرامة الله سبحانه إلى محمد ﷺ . . أرسله على حين فترة من الرسل، وهفوة عن العمل، وغباوة من الأمم» (٩٢ / ١٨٥).

يستوحشوا منهم ولا يستأنسوا بهم ولا يفقهوا قولهم.. إنه غريب في موقفه، فإن مجانسة الرسول مع مجموع المخاطبين تتطلب إما كون الرسول إليهم من الجن كما هو من الإنس، رسولاً ذا بعدين! أم إن لكلٍّ رسولاً منهم.

كما وأن مجانسة الرسول مع المرسل إليهم من قواطع الأعذار استئصالاً لها عن بكرتها حتى لا يقول جني لو أن رسولنا منا لكنا نعرف المسؤولية الكبرى فإنه أسوة لنا، وكذلك الإنس، فليكن لكلّ معشر عشيرة من جنسه اجتثاثاً لجذور الأعذار.

ذلك، وقد تلمح لاختلاف الرسل بين مختلف الجن والانس آيات كـ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(١) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾(٢) ومن البيِّن اختلاف أمتي الجن والإنس.

وكذلك ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾(٣) حيث المسانخة المؤنسة القاطعة للعذر، هي مما يكمل بالغ الحجة الربانية.

ولا تدل آيات اصطفاء الرسل من الناس كـ: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾(٤) و﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(٥) إنها لا تدل على اختصاص الاصطفاء الرسالي بالإنس والملائكة، فإنما تدل على أن الرسل الملائكي والإنساني أصفى من سائر الرسل، فرسل الجن هم على ضوء رسل الملائكة والإنس قضيةَ هذه الآيات وآية المعشر هذه.

ولأن رسل الرسل رسل من الله تعالى كما في رسل المسيح عليه السلام فرسل

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٤.
(٢) سورة يونس، الآية: ٤٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩.
(٤) سورة الحج، الآية: ٧٥.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٣٣.

الجن - ولا سيما قبل الرسالة الأخيرة - هم رسل الله بما يحملون رسالة الله مهما كانت فرعاً لرسول البشر، وأما بعد ختم الرسالة فقد تعني رسالة الجن رسالة العصمة دون وحي مهما كان فرعاً على وحي القرآن إلى محمد ﷺ ثم لا عصمة حاضرة زمن الغيبة، إذاً فرسالة الجن قبل ختم الرسالة هي رسالة فرعية بوحي على ضوء رسول الإنس وهي عند ختم الرسالة هيه دون وحي، فإنما هي عصمة كافلة لأداء أمانة الوحي، أم إن ربانيِّي الجن في زمن الغيبة الكبرى هم النواب العامون للإمام الغائب كربانيِّي الإنس بين الإنس.

وهنا ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ في استجوابهم عن إتيان الرسل، شهادة على أنفسهم أنهم أتتهم رسل منهم بكامل القصِّ لآيات الله وإنذارهم لقاء يومهم هذا.

ثم ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ شهادة ثانية بعد معترضة الجملة: ﴿وَغَرَّتْهُمُ...﴾ إنهم تركوا دعوة الرسل وغرتهم الحياة الدنيا فهم أولاء كافرون غير معذورين.

ولا تغر الحياة الدنيا إلّا من ينغرُّ بها ويغترُّ، فلأنهم اغتروا بها حسن أن يقال إنها غرتهم، كما و﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾(١).

والقول إن ضرورة المجانسة منقطعة في الرسول الملك إلى رسل الإنس والجن فلا ضرورة مطلقاً؟ مردود بأن المجانسة مفروضة بين الرسول والمرسل إليهم، وليست الرسل هم من المرسل إليهم لملائكة الوحي بل هم حملة الوحي إليهم، رسالةً منهم أولاء كوسطاء إلى سائر المرسل إليهم، ثم ولا عاذرة لهؤلاء الرسل ولو كانوا مرسلاً إليهم في رسالة الملائكة إليهم.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾:

(١) سورة الحديد، الآية: ١٤.

فالغفلة القاصرة هي العاذرة لأهليها دون المقصرة، وهي الغفلة التغافل في جوِّ الرسالة الربانية، فـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإرسال المتواتر لرسل الجن والإنس يعنى فيما عناه أن يكون إهلاك القرى بظلمهم دون غفلة قاصرة، بل على تقصير منها بغفلة مقصرة، إذاً فـ ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ تعني الغفلة القاصرة.

وقد تُخرج ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ غير الغافلين عما يتوجب عليهم أو يحرم عند الله وإن لم تصلهم دعوات الرسل، حيث الفطرة والعقلية الإنسانية مبصرة لأهليها، ولكن الغفلة المقصرة في غير ما دعوة رسالية لا تتطلب الإهلاك مهما تطلبت حساباً يوم الحساب كما في كلّ الأحياء.

ذلك، لأن الإهلاك يوم الدنيا ليس إلّا لعظيم العصيان حيث يعمَّد في جو البلاغات الرسالية: ﴿. . .وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾(١) ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾(٢) ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾(٣)، إذاً فالغفلة المغفورة بالنسبة لذلك الإهلاك تجمع المقصرة إلى القاصرة عند عدم البلاغ الرسالي ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾(٤).

ذلك، ولا يخص إهلاك القرى بتدميرها بأهليها، بل وبإضلاله إياها أن يجعل صدورهم ضيقاً حَرَجاً، إهلاكان في الأولى وآخران في الأخرى، في البرزخ والقيامة الكبرى، جزاءً وفاقاً.

ثم ﴿بِظُلْمٍ﴾ قد تعني إلى ظلمه سبحانه ظلمَهم عن غفلة دون رسالة

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٠٨.
(٣) سورة طه، الآية: ١٣٤.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

هادية، فإهلاكهم وهم غافلون بظلم ظلمٌ في غير جو الرسالة الربانية، مهما كان لظلمهم جزاءً وفاقاً، ولكنه ليس ذلك الإهلاك: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾(١) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾(٢).

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾:

﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الصالحين والطالحين من الجن والإنس، ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ مهما كانت درجات الطالحين دركات: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾(٣).

فكما الإيمان والعمل الصالح درجات، كذلك لأصحابهما درجات حسبها، وكما للكفر والعمل الطالح دركات فكذلك لأصحابها دركات تجمعها في صيغة واحدة درجات إما إلى الجنة وإما إلى النار.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾:

﴿وَرَبُّكَ﴾ أنت يا أفضل المربوبين وأول العارفين والعابدين ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ - فقط - دون من سواه، فلو كان غني سواه لكان النص «غني» قضية تنكير الخبر، ثم وهو على غناه ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ على عباده دون مقابل، لا رحيم سواه، وليست العبادة إلّا لصالح العابدين فـ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أنتم المتخلفين عن شرعته ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ إنساناً وغير إنسان

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٥.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٧.
(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٢، ١٦٣.

﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ و﴿ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ﴾ قد تعني من نطفة قوم آخرين أذهبهم ربّهم بموت أو إهلاك.

وهنا ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ دون «من يشاء» لمحة إلى واسعة رحمته ومنطلقته في إنشائه، فليس يختص خلقه بكم أنتم الناس، أو أنكم القمة التي لا بديل عنها فـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾[1] ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾[2].

هنا ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾ كـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾[3] وتعريف ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ يعرفه إنه هو فقط ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ حيث «غني» لا يحصر فيه الغنى، كما الناس محصورون في الفقر ليس لهم إلّا الفقر.

فـ ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ تحصر الغني والرّحمة فيه، فكلّ غنى ورحمة لأي غني ذي رحمة إنما تنشأ من رحمته وغناه لا سواه.

فالغني الطليق في غناه لا يحتاج إلى عباده أم أية فاعلية ممن سواه، ولا يحتاج إلى ظلم من سواه، فإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف في غناه قدرة وعلماً ورحمة أماهية من قضايا غناه.

ولو كان بعض الأغنياء أغبياء يظلمون لا لحاجة وإنما لشقوة وقساوة، فـ ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ فطليق الغنى والرّحمة يقتضيان كامل العدل والفضيلة، فلا يفعل أو يقول ما يفعله أو يقول إلّا عن غنى ورحمة، رحمة لا يطلب بها جزاءً لغناه، وغنى يفيض به لرحمته، فما هكذا الرّب بحاجة

---

(١) سورة فاطر، الآيات: ١٥-١٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٣.
(٣) سورة فاطر، الآية: ١٥.

إلى مربوبية أم بحاجة إلى ظلمهم، إلّا رحمة أو عذاباً هو في الحق رحمة تأديباً للمتخلفين وتعديلاً في العدل بين المخلوقين.

ذلك، ومن رحمته أن يكلف عباده بما يكلِّفهم، ومن رحمته إثابة من أطاعه وعقاب من عصاه، كما من رحمته مزيد الثواب للمطيعين وأقل العذاب للعاصين وقبول التوبة وسائر التكفير للعصات ما هو عدل وفضل خارجاً عن أية ظلامة بحقهم وبحق الآخرين.

وقد يعني تلحيق ﴿ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ بـ ﴿إِن يَشَأْ...﴾ تكملة المعني منهما، أنه غني عنا رغم أننا في أحسن تقويم، ولا تخص رحمته العالية بنا رغم أنه لم يخلق أفضل من تقويمنا أي تقويم فـ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾.

والاستخلاف هنا كما الاستخلاف في ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١) لا يجعل خلق خليفة لنفسه وسبحانه، بل خليفة عمن أذهبه هناك وعمن يذهبه إن شاء هنا.

فـ ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ على وحدة الجنس، فقد ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ إنشاءً كإنشاءٍ حيث يشتركان في أصل الإنشاء مهما اختلفا في مادته الفعلية، فهنا المادة ﴿ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ وهناك التراب الذي هو أصل كلّ ذرية بأصولها.

ذلك، فلا ينسَ الإنسان النسيان أنه باق برحمة الله ومشيئته، فما لأحد في نشأته وبقائه من يد، ولا لله منه من يد ونعمة، فإذهابهم واستخلاف ما يشاء من بعدهم هو عليه هين كما هان عليه إنشاؤكم من ذرية قوم آخرين.

فلا يخيَّلْ إلى شياطين الجن والإنس أنهم لهم طاقة ذاتية يتغلبون فيها

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

على الله فيضرونه، أو أن المطيعين له ينصرونه وينفعونه، فإنما هي أيام قلائل فيها يبتلون، ثم:

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (١٣٤)﴾:

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ - أنتم المكلفين صالحين وطالحين - من موت وحياة البرزخ والقيامة بعده حساباً فثواباً وعقاباً ﴿لَآتٍ﴾ لا محالة ولات حين مناص إذ فات يوم خلاص، ولا تعلم نفس متى هو آت «والذي نفسي بيده ما طنت عيناي وظننت أن شفريَّ يلتقيان حتى أقبض، ولا رفعت طرفي وظننت أني واضعه حتى أقبض، ولا لقمت لقمة فظننت أني أسيغها حتى أغص بالموت، يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم في الموتى والذي نفسي بيده إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين»[1].

﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ الله في هذه الفترة القليلة إذ لا تغيبون عن علمه تعالى وقدرته ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾[2].

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥)﴾:

﴿قُلْ﴾ يا رسول الهدى ﴿يَا قَوْمِ﴾ في حقل الدعوة الرّسالية الأخيرة ﴿اعْمَلُوا﴾ خيراً أو شراً ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: إمكانيتكم وكيانكم، فإنها لغوياً أبلغ التمكن الشامل لكليهما، فـ ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾[3].

---

(١) الدر المنثور ٣: ٤٧ - أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب كامل الأمل وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري قال: اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت النبي ﷺ يقول: ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر أن أسامة لطويل الأمل والذي نفسي بيده. . .

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٤.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عين اليقين أنتم الصالحون بعد علم اليقين، وتعلمون علم اليقين إلى عين اليقين أنتم الطالحون. ﴿تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ الدنيا، وكلمة واحدة فاصلة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وعاقبة الدار هي الحياة العاقبة، فهي حياة الرّجعة الصالحة في دولة الحق، وحياة البرزخ والقيامة و«له» تعني لصالحه ويقابلها «عليه» و﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بيان لمن هي عليه، فإنما الإفلاح في الحياة للصالحين وللطالحين فلّج وإفلاج.

وهنا الأمر ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ للصالحين أمر تشريع وترغيب ف ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ إخبار بالعمل الرّباني لهم توفيقاً هنا وجزاءً في الأخرى، و﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ إخبار ثان بالعمل الرّسولي مواصلة في الدعوة الرّسالية وشفاعة لأهليها يوم يقوم الأشهاد.

وهو للطالحين أمر تقريع هو أشد من صراح النهي، ف ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ إخبار بتقريع ربّاني هنا وفي الأخرى، وتقريع رسالي تحقيقاً لواجبه أمام الناكرين ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ...﴾ وهذه الآية على غرار الآية: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١) و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٢).

ذلك، وقد يختص هكذا خطاب بالطالحين كما يخاطب هودٌ قومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾(٣) ويخاطب الرسول ﷺ

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٠.
(٣) سورة هود، الآية: ٩٣.

كافة الكافرين: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾[1].

ذلك، ولكنَّ الأبرز في ميادين الخطاب: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ هم الطالحون مهما شمل البعض منها الصالحين.

ذلك، ولو لم يكن الرّسول ﷺ واثقاً من الحق في دعوته وما يلحقها هنا وفي الأخرى، الصالحين صلاحاً والطالحين طلاحاً، لم يكن من المعقول أن يأمر الفريقين أن يعملوا على مكانتهم، ولا سيما الطالحين أن يعرقلوا سبيل الدعوة كما يستطيعون بـ ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ عمل المرسِل، والرّسول بما أمره وأيده، رسول يهدِّدهم بشخصه على رعاية ربّه دونما تخوف من جمعهم أولاء الشياطين المعارضين لهذه الدعوة القدسية.

(١) سورة هود، الآية: ١٢١.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟
هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا
يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ
سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ
قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ
شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ
وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ
ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا
كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ
لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ
سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟
أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ
ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ
وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ
مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ
حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ
حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ
إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ

ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ
ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ
وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ
أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ
أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ
طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ
فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ
فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾﴾

تنديدات شديدة بالجاهلية العمياء الحمقاء في افتعالاتها وتشريعاتها وافترآتها فيها على الله، تخيُّلات قاحلة جاهلة لا تستند إلى علم أو إثارة من علم إلّا اتباع الظّن الخاوي عن أي دليل إلّا تقاليد الآباء القدامى ليس إلّا.

فهؤلاء الحماقى جمعوا كافة الانحرافات والانجرافات في تخلُّفاتهم عن حق التوحيد والتوحيد الحق، فجعلوا أنفسهم آلهة لله كما هم آلهة صنعوا آلهتهم من دون الله، مهما ادعوا أنهم يعبدون من دون الله سواه وسواهم، فإن هم إلّا عابدي أنفسهم في افتعالاتهم العقيدية والعملية.

هؤلاء يشركون بالله ما لم ينزل به سلطاناً وهم يرون الألوهية الأصيلة لله، ولكنهم في عبادتهم يوحدونها عملياً لشركائهم دون الله، كما ويختصون نصيباً لله ممّا رزقوا بغير الله، فلا يعبدون الله - إذاً - مع شركائهم ولا يشركونه في الأنصبة المزعومة:

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ

بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾:

فالذرء هو إظهار الله تعالى ما أبدأه وأبدعه، فهو الذارء للزرع والضرع: الأنعام، أو الإنسان وسائر الكون: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1].

صحيح أن للإنسان دخلاً في الحرث ولكن الزارع في الحق هو الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾[2]: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾[3].

ف «ما ذرأ» من الحرث «هو لله أصلاً وفصلاً، وقد جعلهم الله مستخلفين فيه ولكنهم بحمقهم في عمقهم «جعلوا لله مما ذرأ من الحرث نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم» رغم أنه كله لله لا خصوص ما جعلوه لله، وإذا كان هذا لله بزعمهم فليصرف - إذاً - في سبيل الله دون شركائهم، فذلك - إذاً - زعمٌ على زعم في ﴿هَٰذَا لِلَّهِ﴾ إذ لا يبقى نصيب فيما يزعمونه - عملياً - لله.

إنهم ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ فليصل نصيب كلٍّ إليه، فما كان لله يُصرف في سبيله، وما كان لشركائهم يصرف في سبيلهم، ولكن ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ اختصاصاً لها أولاً وأخيراً لشركائهم ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ قائلين إن الله غني لا يحتاج إلى نصيبه، وشركاءنا فقراء فليكن الكلّ لهم دون الله ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أصلاً وفصلاً، فأصل تقسيمهم باطل عاطل إذ المال كله لله، وفصله بين الله بين شركائهم باطل ثان إذ لا يسوى بالله سواه في أصل أو

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٧٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

(٣) سورة الواقعة، الآيتان: ٦٣، ٦٤.

فصل، وتخصيصه بعد باطل الفصل والأصل بشركائهم باطل، ثالوث من باطل الحكم تهكماً وزوراً زين لهم كأنه هو الحق، تبريراً له أن الله غني عن نصيبه، فلماذا جعلتم له نصيباً؟ ألأنه فقير حين جعلتم ثم أصبح غنياً عند إيصاله إليه!.

ولقد كانوا «إذا اختلط ما جعل للأصنام بما جعل لله ردوده، وإذا اختلط ما جعل لله بما جعلوه للأصنام تركوه وقالوا: الله غني، وإذا تخرق الماء من الذي لله في الأصنام لم يسدوه، وإذا تخرق من الذي للأصنام في الذي لله سدوه وقالوا: الله أغنى»(١).

وهنا «شركائنا» و«شركائهم» دون «شركاء الله» كيلا تكون تصديقاً ضمنياً للإشراك ولا لمحة، فإنما الشركاء المختلَقة هي شركاءهم فإنهم هم المختلقون إياهم، كما وهم شركاءهم في الانتفاع مما جعلوه لهم نصيباً دون الله، وكما هم شركاءهم في أنهم من خلق الله، وليسوا بالله أو شركائه، فذلك ثالوث من الشركاء تعنيه «شركائهم - و - شركائنا».

ذلك، وهنا التقاءات لبسطاء من أهل الكتاب والمسلمين ومجاهيلهم مع المشركين في هذه القسمة الضيزى، أن يتجهوا إلى أنبياء الله وأولياءه أكثر من الله، وأن يختصوا التجاءاتهم ونذورهم وعهودهم وأيمانهم بهم من دون الله إلّا أحياناً قلائل، وترجيحاً عملياً لأمكنة خاصة على بيوت الله، ولذكر

---

(١) نور الثقلين ١ : ٧٦٨ عن المجمع أنه المروي عن أئمتنا عليهم السلام، وفي الدر المنثور ٣: ٤٧ - أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ...﴾ [الأنعام: ١٠٠] قال: جعلوا لله من ثمارهم ومائهم نصيباً وللشيطان والأوثان نصيباً فإن سقط من ثمرة ما جعلوه لله في نصيب الشيطان تركوه وإن سقط مما جعلوا للشيطان في نصيب الله ردوه إلى نصيب الشيطان فإن انفجر من سقي ما جعلوا لله في نصيب الشيطان تركوه وإن انفجر من سقي ما جعلوه للشيطان في نصيب الله سرحوه فهذا ما جعل لله من الحرث وسقي الماء وأما ما جعلوه للشيطان من الأنعام فهو قول الله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ...﴾ [المائدة: ١٠٣].

الرسل وأئمة الدين وولايتهم على ذكر الله وولايته، التقاء في ذلك كلِّه مع جاهلية الإشراك بالله في الأصل والقاعدة.

ولئن سألتهم ما هذه الترجيحات المناحرة لعقيدة التوحيد؟ يجيبون أن الواصل إليهم واصل إلى الله، والحاصل منهم حاصل من الله، وأن ولايتهم هي ولاية الله ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾!:

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ البعيد عن الهدى ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾ خشية إملاق أم تقريباً لشركائهم ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ في أنهم مخلوقون كما هم، وفي زعمهم أنهم شركاء الله ﴿زَيَّنَ...﴾ ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ إرداءً إلى الردى وإبعاداً عن الهدى ﴿وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ لباس الحق في ذلك القتل الفداء افتراءً على الله كأنه هو الذي سمح لهم قتلهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ ولكنه ما سيّرهم على تركه قضية الاختيار الاختبار ﴿فَذَرْهُمْ﴾ في خوضهم يلعبون ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ حين لا تنفعهم الذكرى ولا يشعرون.

فهنا ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾ دون «بناتهم» توحي بأنه لا يعني خصوص وأد البنات، بل ويعمه إلى قتل سائر الأولاد ذكراناً وإناثاً خشية إملاق أو خوفة هوان إمساكاً لهن على هون، أو تقريباً للآلهة كما يضبطه تاريخ الوثنيين في ثالوث قتلهم أولادهم، والقرآن يصرح بها في آيات كـ ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾(١) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾

(١) سورة التكوير، الآيتان: ٨، ٩.

يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ ﴿٥٩﴾﴾[١] ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾[٢]، ذلك وهنا ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾ يعمهما وفداء عن الآلهة.

وأما ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ فقد تعني ثالوث الشركاء من آلهتهم التي ألهتهم أوثاناً وطواغيت، تزييناً من كلٍّ حَسَبه، ومن شياطين المشركين المشاركين لهم في الإشراك إذ يوحون إليهم زخرف القول غروراً، ومن سائر شركاءهم في الإشراك.

ذلك، ولكن ﴿لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قد لا يناسب ثالث ثلاثة، فهم هم الكثير أنفسهم والقليل هم المضلِّلون لهم، معبودين لهم أم مضللين يشاركونهم في الإشراك بالله، فإنهم هم القلة القليلة المضلِّلة للكثرة الكثيرة المضلَّلة.

فقد كانوا ينذرون لآلهتهم أن يقدموا البعض من أولادهم لهم سفهاً بغير علـم: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾[٣] - ﴿زَيَّنَ... لِيُرْدُوهُمْ﴾ وهـو الإهلاك نفسياً وجسدياً، أن يهلكوهم في الدارين، فقد يتمثل ذلك الإرداء الإهلاك في قتلهم أولادهم، ثم في إفساد حياتهم الاجتماعية جملة وتفصيلاً، وصيرورتهم ماشية ضالة يوجهها رعاتها الشياطين، تحكيماً مضللاً عليهم في كلّ حيوية إنسانية، ﴿وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ﴾ الطارئ وهو الإشراك، ليلبسوه لباس الدين الحق فإن فيه التضحية في سبيل الله وهم يضحون في سبيل آلهتهم، ودينهم الأصيل الفطري حيث يلبسون بهذه

---

(١) سورة النحل، الآيتان: ٥٨، ٥٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤٠.

الخرافات اللامعقولة دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ودينهم الذي كانوا عليه من الشرعة الإبراهيمية كما ويفتخرون بإبراهيم عليه السلام.

ثالوث من شركائهم زينوا لهم ليلبسوا عليهم مثلثاً من دينهم في ثالوث من قتل أولادهم سفهاً بغير علم!.

فالتصوَّرات المتلبسة بالدين قد تنشئ ثقلاً ساحقاً لا تقف له جمهرة الناس البسطاء ما لم يعتصموا بالدين الحق، وهذه التصوَّرات الجاهلية قد نمت في الجاهلية المتحضرة قدر تقدمها في علومها التجريبية وشهواتها الحيوانية، جاهلية تختلف أشكالها ومشاكلها، وتتحد جذورها ومنابعها، وتتماثل قواعدها وقوائمها.

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾:

﴿وَقَالُواْ﴾ بين أقاويلهم المشرّعة افتراء على الله ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ محجور عليها كالأربع المذكورة في المائدة: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(١) فهي حِجر في حقل الأكل ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ كخدمة الآلهة من الرجال دون النساء وسائر الرجال، وحجر في حقْل الركوب: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ على أي راكب ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ ومنها التي كانوا يُهلُّون بها لغير الله، والتي كانوا لا يركبونها في الحج، فقد كانت أنعاماً خاصة لردفها بـ«أنعام لا يطعمها وأنعام حرمت ظهورها» فهي التي كانوا يحرمون ذكر اسم الله عليها دون سائر الأنعام التي يتركونه عليها دون تحريم، ذكراً لاسم غير الله أو تركاً لذكر أي اسم عليها.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٣.

وذلك كله ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾: الله، كأنه هو الذي حرم ما حرموه ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ المفتري على الله ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ جزاءً وفاقاً.

فقد كانوا يعيِّنون قسماً من أنعامهم وحرثهم لآلهتهم فيحرمونها على غير الرجال الخادمين لها السادنين إياها، وأنعام يحرمون ظهورها كالأربعة المذكورة في المائدة، المبيَّنة فيها، وأنعام يركبونها ولكنهم لا يذكرون اسم الله عليها ذبحاً وركوباً فلا يحجون عليها ولا يلبُّون، بل يُذكر أسماء أصنامهم عليها في الحالتين!.

والفرية على الله في شرعِة تشرع بالأهواء، هي أخطر مِن سنِّ شرعة محادة لشرعة الله، حيث الأولى تضلِّل البسطاء حيث تتنقب بنقاب شرعة الله، ولكن الثانية ظاهرة جاهرة لا تضلل إلّا قليلاً منهم لا يرجون لله وقاراً فيحادُّونه جهاراً، ومن المفترين على الله هؤلاء الذين يزعمون أن الله فوَّض إلى رسوله ربوبية التشريع حكومية أو أحكامية، وأنحس منهم مَن هم يحوِّلون هذه الولاية التشريعية - بزعمهم - إلى فقهاء الأمة، أن لهم سنَّ أحكام حسب المصالح المستجدة، وأن ولايتهم أهم من أحكام الله الفرعية، فلهم أن يبدِّلوها إلى ما يستصلحون، وحكمهم فيما حكموا هو حكم الله!.

ذلك! رغم اختلاف أحكام الفقهاء روحية وزمنية، فهل أن في أحكام الله اختلاف؟ أو أن شرعة الله ناقصة تحتاج إلى مصلحيات الفقهاء؟!.

هنا آية صارحة بحق ولاية الرسول ﷺ الشرعية هي ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾(١) فهل هو أولى منهم بأصل الإيمان فله أن يحوله كيف يشاء، فهذه أولوية بأحكام الله من نفسها، والنتيجة الحاسمة هي أولوية بالله من الله في أحكامه!.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

كلا! إنما هي أولويته بالمؤمنين من أنفسهم في حقل رسالته الشرعية، وهذه الأولوية الشرعية الطليقة هي قضية عصمته الطليقة، وأنهم قد يقصّرون في شرعة الله أو يقصّرون، فهو الذي يسد كلّ الفراغات والثغرات الإيمانية بمسد الرسالة المعصومة تبييناً متيناً لا يجهلون، وتسديداً لهم عما يتجاهلون، فقد تُختصر ولايته الرسالية وتُحتصر في تبيين أحكام الله وتحكيمها، دون زيادة عليها ولا نقيصة عنها، فإنهما وأية تخلفة أخرى هي كلّها تخلُّف عن رسالة الله، إذ لا تفويض إياه في أي حكم روحي أو زمني، وإنما ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾[1] ليس إلّا.

فقد بيّن الله في كتابه وسنة نبيه كلما تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة من احكام أولية أو ثانوية أماهية وليس للرسول ﷺ فضلاً عن الفقهاء سنُّ أحكام من عند أنفسهم. وطنطنة أصالة أصول الدين ومنها الولاية الرسالية المحولة إلى فقهاء الأمة، وأن الفروع هي فروع لها، فلتتقدم ولاية الفقيه التشريعية على الأحكام الفرعية، إنها طنطنة حمقاء والله منها براء، حيث الرسالة التي هي من أصول الدين لا تعني في أصلها إلّا بيان الوحي الرسالي، فأين المعارضة بين الرسالة وأحكامها حتى يأتي دور تقدم الأصل على الفرع؟ ثم ولا أصالة للرسالة إلّا بيان أحكام الله دون مناحرة لها بمصلحيات مختلَقة، فلو أن الرسول تخلف عن حكم من أحكام الله لخرج عن الرسالة إلى الربوبية.

ومن ثم إن قضية خلود الشرعة الإسلامية عدم التبدل في أحكامها ولا قيد شعرة، فالله نفسه إذ ختم دينه بهذه الشرعة لا يرى لنفسه ولاية تشريعية في تبديلها، فكيف تكون هذه الولاية المصلحية لفقهاء الأمة؟!.

كلّا وألف كلّا، فإن الضوابط المسرودة في الكتاب والسنة فيها الكفاية

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

للمكلفين إلى يوم الدين، وليس للفقيه إلّا استفراغ الوسع لاستنباطها من الكتاب والسنة.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾:

﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾ قد تعم ألبانها إلى أجنَّتها إلّا أن الألبان هي - بالفعل - في الضروع لا في البطون، مهما كان أصلها في البطون، وأن ﴿وَإِن يَكُن مَيْتَةً﴾ تخص الأجنة دون الألبان، ثم الألبان لم تحرم في وقت مّا على صغار البنات ولا سواهن من الإناث، ومن ثَمَّ «أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين» تقرر المعني مما في بطون هذه الأنعام أنها الأجنة.

﴿خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا﴾ فقط ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ وهن كلّ الإناث، تزوجت أم لمّا أم لا، لمقابلتهن بـ«ذكورنا» ﴿وَإِن يَكُن﴾ و﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾ ﴿مَيْتَةً﴾ ماتت في بطونها أو عند موتها أو ذَبحها، أم وبعد وِلادها ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ أزواجهم ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ هذا افتراءً على الله، فرقاً بين الذكور والإناث فيما في بطون هذه الأنعام «إنه عليم» بما قالوا ﴿حَكِيمٌ﴾ بما يجزيهم، وترى ما هو دور ﴿هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾ دون «الأنعام»؟

قد تعني ﴿هَذِهِ﴾ أنعاماً خاصة كالبحيرة: التي درُّها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة: التي كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يُحمل عليها شيءٌ.

ثم كيف هي ﴿خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ وكلا الخالصة والمحرم وصفان لما في بطون هذه الأنعام؟ قد تكون تاء ﴿خَالِصَةٌ﴾ للمبالغة، أم هي للتأنيث اعتباراً بالأجنة المعنية من ﴿مَا فِي بُطُونِ﴾

﴿وَمُحَرَّمٌ﴾ مذكراً اعتباراً بلفظ «ما» أم ولأن كلا الوجهين جائزان حيث الموصوف المؤنث في عناية «ما» ليس إلّا مجازياً.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾:

تلحيقة لما سلف حقيقةٌ بالذكر في ختام العرض لبعض ما تقولوه خلافَ شرعة الله، ذكراً لأهم الخطرات الخاسرة الأنفسية: ﴿قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ثم تحريم قسم ما رزقهم الله افتراءً على الله أنه هو الذي حرَّمه ﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾ عن الحق ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ إلى الحق.

وهنا ﴿قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ﴾ تعم ثالوثَ قتلهم دون اختصاص ببعض دون بعض لمكان ﴿أَوْلَٰدَهُمْ﴾ دون «بناتهم» ولا تقييد لـ ﴿أَوْلَٰدَهُمْ﴾ في حقل القتل بجانب دون آخر.

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾:

هذه من غرر الآيات المعمِّمة للزكاة على كافة الثمرات، وقد سبقت نظيرتها بفارق عدم التصريح بحقه يوم حصاده حيث استبدل عنه بـ ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾(١): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢) حيث الأمر بالنظر يعم النظر

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٩.

المعرفي والمصرفي إيتاءً لحقه يوم حصاده دون إسراف سلبياً أو إيجابياً.

فقد يتقدم النظر المعرفي إلى ثمره إذا أثمر وينعه على النظر المصرفي إذناً في الأكل منه: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ وأمراً بإيتاء حقه يوم حصاده: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ فهما متشابهتان تفسر بعضهما بعضاً و﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

﴿وَهُوَ﴾ لا سواه ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ﴾ تكويناً بديعاً ﴿جَنَّٰتٍ﴾ البساتين تجن شجراتها حيث تلتف من فوق الأرض في فضائها ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ عرشها إنسانها كالأعناب، أم ربها كالنابتات الملتفَّة بالأشجار، المجتنَّة مع بعضها البعض من فوقها ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ كسائر الأعناب غير المعروشة وسائر الأشجار دون عروش لها إنسانية ولا ربانية.

ومن غير المعروشات وهي المستقلة في قيامها ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا﴾ كلٌّ في أثمارها، في طعومها واشكالها وألوانها وسائر أقدارها، وغير متشابه في هذه بعضها أو كلها.

﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾: من ثمر المنشإ بأمر الله، أو من ثمر ما ذكر دون اختصاص بالأخير وهو الرمان، إذ لا اختصاص له بسماح الأكل وإيتاء الحق، وحتى لو اختص بالأخير لكفى تدليلاً على واجب الزكاة في الرمان نقضاً لاختصاصها بالغلات الأربع.

والأمر بأكله إذا أثمر سماحٌ له حيث الموقف موقف الحظر، لأن المنشئ لها هو الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ﴾ فهو المالك لها فلا يجوز الأكل منها إلّا بإذنه، ثم ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ﴾ دليل أن الفقراء هم شركاءهم فيه، فهذا محظور ثان للأكل منه قبل إيتاء حقه.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٩.

ولكنه تعالى رحمة منه، وتقديماً لصاحبه على غيره في الأكل منه، يأمرنا سماحاً ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ تلحيقاً له بإيتاء حقه: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وهو الزكاة المفروضة ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في الأكل من ثمره تجاوزاً عن حق الأكل: العدل المعتدل، إسرافاً في قدره فوق الحاجة، أم إسرافاً في صرفه وإنْ قليلاً في المعصية، أم إسرافاً في إشراك الأصنام في الحرث والأنعام، ثم تقتيراً في التصدق منه(١).

كما ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في الإيتاء منه أن تؤتوا كلَّه أو كثيراً منه بلا إبقاء لقدر الحاجة(٢)، أم في ترك الأكلّ منه كالعادة(٣) أم في إيتائه لغير مستحقيه، أم في تقسيمه بلا تسوية بين المحاويج قدر الحاجة، فكلوا منه عدلاً وآتوا حقه يوم حصاده عدلاً وفضلاً ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أيّاً كانوا وفي أيّ كان وأيان.

هنا ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾: حقَّ ما ذكر وحقَّ الله - فحق الله حق فيما ذكر لأهل الله - برهان ساطع لا مرد له على حق مقدَّر معلوم يُؤمر

---

(١) نور الثقلين ١: ٧٧١ عن القمي بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام: وفي غير آية من كتاب الله يقول: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فنهاهم عن الإسراف ونهاهم عن التقتير لكن أمر بين أمرين لا يعطي جميع ما عنده ثم يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له.

(٢) روى الطبري وغيره عن ابن جريج قال: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جذّ نخلاً فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلّا أطعمته فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة فأنزل الله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أقول: ذلك من باب الجري حيث الآية مكية وقصة ابن قيس مدنية، فقد ينطبق كلّ إسراف على الآية كما هي القاعدة في كلّ الآيات المبينة لمثلها من القواعد، أو الخطابات الخاصة بإلغاء الخصوصية لشمولية الأحكام القرآنية.

(٣) المصدر علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن المثنى قال: سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١] فقال: كان فلان ابن فلان الأنصاري - سماه - وكان له حرث وكان إذ أخذ يتصدق به ويبقى عياله بغير شيء فجعل الله عز وجل ذلك سرفاً.

صاحب الجنات والمزارع بإيتائه يوم حصاده، كما و﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾﴾[1] وإن كان أيضاً ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾[2] ولكنه أيضاً معلوم بـ ﴿حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾.

إذاً فـ ﴿حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ هو الحق الواجب إيتاءه دون إقتار ولا إسراف، وذلك من بدائيات الحق المعلوم، ومن ثم الأنصبة المسرودة في السنة مرحلة ثانية لحقه يوم حصاده.

والقول «إنه حق غير واجب الزكاة، إذ ليس في بعض ما ذكر في الآية زكاة، على أن الآية مكية وحكم الزكاة مدني»[3]، إنه غريب في نوعه، إذ إن «ليس في بعض ما ذكر في الآية زكاة» هي في نفسها مصادرة ودعوى دون برهان إلّا ضده كتاباً وسنة، ومن الكتاب الآية نفسها الفارضة الزكاة على غير الغلات الأربع وإن لم تأت فيها صيغة الزكاة، إذ نحن مع واجب الإيتاء، نتابع دليله أيّاً كانت صيغته، إيتاءً وإعطاءً وإنفاقاً وصدقة وخمساً وزكاة، فلا تهمنا صيغة خاصة في واجب الأداء مهما اختلفت تقديراته كضرائب مستقيمة وغير مستقيمة.

فالإيتاءات الشرعية كلُّها إعطاءات وصدقات وإنفاقات وزكوات، بل والكلّ كذلك زكوات حيث الزكاة هي المعطاة المزكية لنفس المزكي ونفيسه، والمزكية لدنس الفقر فردياً وجماعياً، حالياً ومالياً، الجاعلة المجموعة المتفاوتة المتهافتة متعارفة متآلفة كأسنان المشط حيث تعيش بذلاً

(١) سورة المعارج، الآيتان: ٢٤، ٢٥.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ١٩.
(٣) كما في الميزان للمغفور له العلامة الطباطبائي قدس الله روحه ٧: ٣١٣ وغيره من المفسرين ومؤلفي آيات الأحكام وسائر الفقهاء، فقد تناقله العلامة الطباطبائي دون مراجعة إلى الآيات المكية للزكاة اعتماداً على النقل.

دون أية منَّة أو جور، وسماحاً متعالياً قد يجعل الفقير في حرمة أكثر من الغني.

ثم حكم الزكاة ليس حكماً مدنياً حتى يستغرب ذكره في هذه المكية، فإن عشرات من آيات الزكاة تحلّق على العهدين، من مكيات تسع تفرضها(١) ومدنيات أربع تتحدث عن فرضها في الشرائع السالفة(٢) فإنها تنجر إلى شرعة الإسلام ما لم تنسخ، ثم مكيات ثلاث منها هذه ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ وآية المعارج ﴿فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾(٣) والذاريات (١٩) باستثناء «معلوم» الذي هو معلوم من آية المعارج، والجمع: (١٦) آية مكية في فرض الزكاة مكياً، ثم المدنية الخاصة بها (١٤) آية تعني الزكاة بوجه عام، فأين اختصاص فرض الزكاة بالعهد المدني، اللهم إلّا الأنصبة الخاصة المدنية قضيةَ المرحلية في بيان الأحكام.

ذلك، بل هي من أوّليات الفرائض المكية، نراها مع الصلاة قرينتين في كثير من آياتها(٤) ونحن لا نعرف سوى الخمس - إن كان غير الزكاة -

---

(١) وهي ٧: ١٥٦ و٢٣: ٤ و٢٧: ٣ و٣٠: ٣٩ و٣١: ٤ و٤١: ٧ و٨٧: ١٤ و٧٣: ٢٠ و٩٢: ١٨.

(٢) وهي ٢: ٤٣ و١٩: ٣١ و٥٥ و٢١: ٧٣.

(٣) سورة المعارج، الآيتان: ٢٤، ٢٥.

(٤) وكما في وسائل الشيعة ٦: ٥ صحيحة الفضلاء الأربع محمد بن مسلم وأبي بصير وبريد وفضيل كلهم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالا: فرض الله الزكاة مع الصلاة، وعن نهج البلاغة عن علي عليه السلام: تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها..
ثم إن الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام فمن أعطاها طيب النفس بها فإنها تجعل له كفارة ومن النار حجاباً ووقاية فلا يتبعها أحد نفسه ولا يكثرن عليها لهفه وإن من أعطاها غير طيب النفس بها يرجو بها ما هو أفضل منها فهو جاهل بالسنة مغبون الأجر ضال العمل طويل الندم «وفيه عنه عليه السلام سوسوا إيمانكم بالصدقة وحصنوا أموالكم بالزكاة وادفعوا أمواج البلاء بالدعاء».

ضريبة إسلامية مفروضة بصورة عامة سوى الزكاة، وكما يروى عن النبي ﷺ «ليس في المال حق سوى الزكاة»[١].

صحيح أن هنالك آيات تأمر بالإنفاق والإيتاء والتصدق والإعطاء والتخميس خالية عن لفظ الزكاة، ولكنها تعم الضريبة المستقيمة الشاملة وهي الزكاة المعبر عنها بـ ﴿حَقَّهُۥ﴾ و﴿حَقٌّ مَّعۡلُومٌ﴾ والضريبة غير المستقيمة الخاصة بموارد الحاجة كما ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾[٢] وهو الزائد عن الحاجة المتعوّدة دون إسراف ولا تبذير أو تقتير.

وعلى أية حال لا مشاحة في لفظة الزكاة وسواها فإنها تعم كلّ إيتاء يزكّي المال والحال والمجتمع عن مختلف الأدران الفردية والجماعية ونكباتها.

فهذه الآية هي من الآيات التي تثبت حقاً ثابتاً في كلّ الثمرات، دون اختصاص بالغلات الأربع المخصَّصة في الفتاوى في حقل الزكاة، فعليك إيتاء حقه ثم سمِّه ما شئت زكاةً أو غير زكاة.

أجل قد تختلف حالة الزكاة في العهد المكي عن العهد المدني كما اختلفت في نفس العهد المدني، اختلافاً في أنصبة الزكاة ومواردها، سياسة تدريجية في أخذ الزكاة، مرحلية في أبعادها، أداءً وأخذاً وقدراً كما تأتي في آيتي الصدقات: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ...﴾[٣] ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ...﴾[٤].

ومختلف الحديث حول ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ معروض على

(١) تفسير الفخر الرازي ١٣ : ٢١٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

القرآن فيصدّق ما وافقه[١] ويؤوِّل أو يطرح ما خالفه[٢] ذلك، وآيات الزكاة

(١) من الموافق للآية ما في الدر المنثور ٣: ٥٠ - أخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١] قال: الصدقة التي فيه ذكر لنا أن نبي الله ﷺ سن فيما سقت السماء أو العين السائحة أو سقى النيل أو كان بعلاً العشر كاملاً وفيما سقى بالرشا نصف العشر وهذا فيما كان يكال من الثمر...».

وفيه أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ يعني الزكاة المفروضة يوم يكال ويعلم كيله، وفيه عن طاوس مثله وعن الحسن في الآية قال هو الصدقة من الحب والثمار، وذهب إليه سعيد بن المسيب والضحاك.

ومن طريق أصحابنا في نور الثقلين ١: ٧٧٠ عن الكافي عن القمي عن أبيه عن حماد بن عيسى عن حريز عن زرارة ومحمد بن مسلم وأبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ «فقالوا جميعاً قال أبو جعفر عليه السلام هذا من الصدقة تعطي المسكين القبضة بعد القبضة ومن الجذاذ الحفنة بعد الحفنة حتى يفرغ ويعطى الحارث أجراً معلوماً فيترك من النخل معافارة وأم جعرور ويترك للحارسين يكون في الحائط العذق والعذقان والثلاثة لحفظه إياه.

وفيه عن تفسير العياشي عن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه عن النبي ﷺ أنه كان يكره أن يصرم النخل بالليل وأن يحصد الزرع بالليل لأن الله يقول: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قيل يا نبي الله وما حقه؟ قال: ناول منه المسكين والسائل، وفيه عنه عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية: فسماه الله حقاً، قال قلت: وما حقه يوم حصاده؟ قال: الضغث وتناوله من حضرك من أهل الخاصة، ورواه مثله أبو الجارود عن أبي جعفر عليه السلام، وفي الصحيح عن زرارة ومحمد بن مسلم وأبي بصير في الآية هذا من الصدقة يعطى المسكين القبضة بعد القبضة ومن الجذاذ الحفنة بعد الحفنة حتى يفرغ.

(٢) في الدر المنثور ٣: ٤٩ عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في الآية قال: ما سقط من السنبل، وفيه أخرج أبو عبيد وابن المنذر عن أنس أن رجلاً من بني تميم قال يا رسول الله ﷺ أنا رجل ذو مال كثير وأهل وولد وحاضرة فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع؟ قال: تخرج زكاة مالك فإنها طهرة تطهرك وتصل أقاربك وتعرف حق السائل والجار والمسكين.

ومن طريق أصحابنا في الوسائل (٦: ١٣٤) عن أبي مريم عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: تعطي المسكين يوم حصادك الضغث ثم إذا وقع في البيدر ثم إذا وقع في الصاع العشر ونصف العشر، وفي نور الثقلين ١: ٧٧٠ عن الكافي عن معاوية بن شريح قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: في الزرع حقان حق يؤخذ به وحق تعطيه، قلت: وما الذي أؤخذ به وما الذي أعطيه؟ قال: أما الذي تؤخذ به فالعشر ونصف العشر وأما الذي تعطيه فقول الله عز وجل: =

كلها طليقة أو عامة في كلّ الأموال ولا تقبل التخصيص بالتسع المشهورة فإنه تخصص للأكثرية الساحقة من الأموال، مع أن روايات التسع معارَضة - على قتلها وعلتها - بزهاء مائة حديث تدل على عمومية الزكاة، وتلك زهاء عشرة متضاربة ومعارضة للقرآن والسنة، اللّهم إلّا أن تفسر بمرحلية الزكاة في «عفى رسول الله ﷺ عما سوى ذلك» حيث يدل على أن فرض الله في الزكاة يحلِّق على كلّ الأموال، فعفى رسول الله ﷺ عما سوى التسع كسياسة المرحلية في تطبيق فرضها، إذ لا يحق للرسول ﷺ أن يعفو عما فرض الله إلّا تدريجاً في تحقيق ما فرض الله.

ذلك، ولأن الزكاة حسب المستفاد من الآيات والروايات تكفي مؤونة فقراء المسلمين وسائر الحاجيات الفردية والجماعية الإسلامية المذكورة في مصارف ثمانية، وحين تختص بالتسعة الشهيرة على قلتها القليلة وعلتها العليلة ليست لتكفي مؤونة الفقراء من هؤلاء الثمان فقط، بل ولا مؤونة يوم واحد من السنة، فكيف يعقل اختصاصها بهذه التسعة، وكما قد يأتي القول الفصل في موارد الزكاة في آيتي ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ و﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ...﴾ ونكتفي هنا بما تقتضيه آيتنا.

وقد يقال إن الزكاة ليست حق يوم الحصاد بل هو حق يوم الجمع، فحق يوم حصاده حق سوى الزكاة؟ ولكن ﴿حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ كما تعني ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ كما في البعض من الثمار، كذلك تعني ﴿حَقَّهُۥ

= ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١] يعني من حصدك الشيء بعد الشيء ولا أعلمه إلّا قال الضغث ثم الضغث حتى يفرغ».

أقول: من الملاحظ في أحاديث الحقين أنهما يتعلقان بما ذكر في الآية ككلّ، فقد دلت - على أية حال - على تحليق واجب الزكاة على كلّ الثمار.

ثم قد يعني الحقان أن الأوّل هو الفرض المكي والثاني هو الفرض المدني، وحتى أن كانا في المدنية فالحق المكي هو الأوّل.

﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ وهو الحق المتعلق بالثمار يوم الحصاد، ثم «آتوا» طليقة - فكما - تناسب إيتاءه يوم حصاده، كذلك تناسب أصل إيتاءه في وقته المقرر له كيوم جمعه لجمع من الثمار.

ولا أشمل من ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ حيث تجمع الاثنين، يوم حصاده لما يجمع في الوقت نفسه من الخضر، ويوم جمعه لما لا يجمع يوم حصاده.

والقول إن الحصاد لا يشمل الفواكه من الزيتون والرمان، مردود بأن الحصاد هو القطع ولا يختص بشيء خاص وكما ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾[1] وقول النبي ﷺ يوم فتح مكة: «ترون أوباش قريش احصدوهم حصداً» فيوم حصاده هو يوم قطعه فاكهة وحباً وما أشبه مما يقطع ويقطف من الثمار.

وأما المروي عنه ﷺ: ليس في الخضروات صدقة[2] فساقط لمخالفته آيات الصدقات والزكوات المتعلقة بكلّ الأموال، وهنا «الزرع» طليقة تشمل كلّ الزروع دون استثناء، وترى ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ تعني يوم حصاد كلّ الثمر، فما حصده قبل ليس فيه حق؟ الظاهر من ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ أن ليس فيما يأكله قبل حصاد الكلّ حق، اللهم إلّا فيما يحصده تدريجياً لأجل بيعه فإنه داخل في ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ حيث القصد هو الحصاد من أجل البيع أو الإبقاء لأكلّ الأيام التالية حتى آخر السنة، إذاً فالمستثنى من إيتاء حقه هو ما يؤكلّ تدريجياً قبل حصاد الكلّ أو الحصاد للبيع.

فقد يقتسم كلّ ذلك إلى ما يُؤكل منه كالعادة المستمرة، وما يباع، وحقه يوم حصاده يختص بالثاني.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٥.

(٢) آيات الأحكام للجصاص ٣: ١٤ بسند عن موسى بن طلحة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال:

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرۡشًاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ١٤٢﴾:

كما من الأنعام أكل كذلك ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرۡشًاۚ﴾ يتعوّد فرشها والحمل عليها، فالحمولة هي المعتدَّة للحمل ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾[1] كما وتحملكم، ﴿وَفَرۡشًاۚ﴾ من أصوافها وأوبارها حيث تصنعون بها فرشكم، وفرشاً تفترش لصغرها، أم عدم تحملها للحمل كالضبي وما أشبه، ومنها ما تجمع كونها حمولة لكم ولأثقالكم وفرشا من أوبارها كالإبل.

وهنا «من الأنعام» عطف على ﴿أَنشَأَ جَنَّٰتٍ﴾ و﴿أَنشَأَ لَكُمُ﴾[2] ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرۡشًاۚ﴾ أم و﴿كُلُواْ...﴾ وكلاهما صالحان والجمع أجمل.

وقد تلمح ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أن ﴿وَفَرۡشًاۚ﴾ لا تعني فرش الأصواف والأوبار حيث لا تناسب الأكل، إضافة إلى أن ﴿حَمُولَةً﴾ تلمح إلى أن «فرشاً» هي نفس الأنعام دون أجزاءها الصوفية والوبرية.

فمن الأنعام ما هي حمولة للأثقال وفرش للرَّكْب، ومنها ما هي فرش للركب لا تستعمل لحمل الأثقال كأفراس الركوب، أم لا تصلح لأي حمل كالضأن والمعز فهي فرش في أصوافها، وفرش تُفرش للذبح أم هي كالفرش لصغرها فهي أمثال الفرش المفروش عليها.

وهل يجوز الأكل منها على كونها حمولة وفرشاً؟ ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ نعم جلَّ الأكلّ كأصل اللهمَّ إن لطوارئ وملابسات، مثل الفرس الذي يسوى آلافاً وما قيمة لحمه إلّا عشرات، فإن أكل لحمه سَرَفٌ وهناك عنه

(١) سورة النحل، الآية: ٧.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٧٨.

بديل كالأنعام الأكل بثمن قليل وطعم ألّذ، فالتحليل - إذاً - ليس إلّا بالنسبة لأصول الحمولة والفرش مع غض النظر عن الحالات الطارئة.

﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ محلَّلة إلّا ما حظر عليه الله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ تحريماً لما أحله الله أو تحليلاً لما حرمه الله، تشريعياً أو عملياً، فإن للشيطان خطواتٍ فيما رزقكم الله من قصيرة يسيرة إلى وسيعة عسيرة وإلى أوسع وأعسر حتى يوردكم موارد الهلكة إجلاساً لكم على كرسي التشريع افتراءً على الله أو محادة ومشاقة لله ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ يبين عداءه فيما يخطو بكم من خطواته المظللة المزللة.

هذا رزق الله وخلقه، والشيطان لم يخلق شيئاً ولم يرزق، فما لكم تتبعونه في رزق الله وخلقه وهو لكم عدو مبين!.

ومن غريب الوفق عددياً توافق الشيطان والملك في القرآن بمختلف صيغهما، في (٦٨) مرة، كفاحاً بينهما كما هو قضية العدل ولكن النجاح للملائكة حيث هم مؤيدون من عند الله العزيز الحكيم.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾:

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ هنا بدل البعض عن الكلّ حيث الأنعام الحمولة والفرش أكثر من هذه الثمانية الأزواج التي هي أربعة: ضأن ومعز وإبل وبقر، ذكراً وأنثى، حيث الأفراس والحمير وأشباههما من الإنعام - ولا سيما صيدها - خارجة عن هذه الأربعة، فـ «الأنعام» تعم كافة ذوات القوائم الأربع المحلَّلة أُكُلاً وحمولةً وفرَشاً دون اختصاص بهذه الأربع.

فهو الذي أنشأ هذه الأنعام، وأهمها هذه الأزواج الثمانية وأنتم تحرِّمون منها وتحللون وذلك شأن من أنشأها دونكم أنتم المنشَئِين كما هي، ثم:

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المجاهيل ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ من الشأن والمعز ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ وحين تدَّعون تحريماً بين هذه الثلاثة، إذاً فـ ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾ على ذلك وهو الوحي ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم.

ذلك، ولأن التحريم كما التحليل لرزق الله ومنشآته لا يحمله إلّا علم الله، وهو وحيه إلى أصحاب الوحي، فهل أنتم منهم فتدعون ما تدعون، أم أوحي إليّ ما لا أعلمه وأنتم تعلمون؟.

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾:

فما هو «علم» يثبت ما تدعون؟ أهو شهادة الله ووحيه؟ ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ ادعاءً لوحي يختص بكم أنتم المشركين وأنا الرسول من الله عنه محروم؟ وذلك افتراءٌ على الله أن يوحي إلى أمثالكم، أو يختصكم أنتم بما يحرم عنه رسله! ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: وجدانيّ، لا سبيل له إلى حكم الله، أو وحي يختص بأصحابه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(١)] الذين يظلمون شرعة الله وأهل الله.

وهنا ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ تعني الأربعة المزدوجة من الذكورة والأنوثة، حيث الذكر زوج الأنثى كما الأنثى زوج الذكر، واختصاص هذه الأربعة بالذكر هنا وفي الزمر: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[(٢)] لأهميتها البالغة بين الأنعام، وأن فيها حمولة وفرشاً وأكُلاً، وكلّ زوج من هذه الثمانية يعم الوحشية الجبلية منها إلى أهليتها، فلا يعني ﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[(٣)] الوحشي والجبلي

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٦.
(٣) سورة النساء، الآية: ١١.

لمكان ﴿ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾(١) وإلّا أصبحت ستة عشرة زوجاً(٢). لا، إنما هما الذكر والأنثى كما ﴿خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾(٣).

ذلك، وهذه مواجهة دقيقة رقيقة يتتبع بها مكامن أوهام الجاهلية الجَهلاء، استعراضاً لكلّ واحد من المواضيع والمواضع التي تجاهلوا عن حقها إلى أباطيلها، ليكشف فيها عن السُّخف الذي لا يقبل دفاعاً ولا تعليلاً إلّا عليلاً ضئيلاً لحدّ يخجل منه صاحبه حين ينكشف له النور ويرى ألّا سند له من علم أو اثارة من علم إلّا تقاليد عمياء.

لذلك هنا يقرر لهم ما حرمه الله لكيلا يتجاوزه إلى سُخف التشريع منهم افتراءً جاهلاً على الله:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٣.

(٢) نور الثقلين ١: ٧٧٤ عن تفسير القمي قال ﷺ: قوله: من الضأن اثنين، عنى «الأهلي والجبلي» ومن المعز اثنين «عنى الأهلي والوحشي الجبلي» ومن البقر اثنين «يعني الأهلي والوحشي الجبلي» ومن الإبل اثنين «يعني البخاتي والعراب فهذه أحلها الله» وفيه عن روضة الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام مثله قال: حمل نوح ﷺ في السفينة الأزواج الثمانية قال الله عزّ وجلّ: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ...﴾ [الأنعام: ١٤٣] وفيه عن الكافي عن داود الرقي قال: سألني بعض الخوارج عن هذه الآية ﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ...﴾ [الأنعام: ١٤٣] ما الذي أحل الله من ذلك وما الذي حرم؟ فلم يكن عندي فيه شيء فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام وأنا حاج فأخبرته بما كان فقال: إن الله تعالى أحل في الأضحية بمنى الضأن والمعز الأهلية وحرم أن يضحى بالجبلية وأما قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤] فإن الله تعالى أحل في الأضحية الإبل العراب وحرم فيها البخاتي وأحل البقر الأهلية أن يضحى بها وحرم الجبلية فانصرفت إلى الرجل فأخبرته بهذا الجواب فقال: هذا شيء حملته الإبل من الحجاز.

أقول: حرمة الجبلية في الأضحية لأنها من الصيد المحرم في الحرم والإحرام، وأما الحديثان الأولان فقد لا يناسبان ظاهر الآية حيث تعني كلّ ذكر وأنثى لأكل أهلي ووحشي، اللهم إلّا أن يعني «اثنين» كلا الاثنين، ذكراً وأنثى وأهلياً ووحشياً، ولكن الفصيح - إذاً - أن يقال ستة عشر أزواج، ثم الأهلي والوحشي من كلّ يعتبر واحداً.

(٣) سورة النجم، الآية: ٤٥.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾:

هنا ﴿مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ - تنكراً فيهما - تلمح لكون الآية هي أولى ما نزلت بشأن محرمات الأنعام، وقد نزلت بعدها مكية ثانية تشير إليها:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١) ثم في مدنية أولى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ...﴾ ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ...﴾(٢) ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣) ومن ثم في مدنية أخرى هي الأخيرة من السور ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ...فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

فالمحرمة من بهيمة الأنعام - وهي فقط حقل التحريم في هذه الآيات - ليست إلّا ما ذكر في الأنعام هنا وفي الثلاث الأخرى، وفي أخيرتها مزيد قضيةَ ختام الوحي بها، ولكنه مزيد إيضاح، حيث ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ إذا ماتت بهذه الأسباب فهي من مصاديق «الميتة» وإن لم تمت فـ ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ تحلّلها، ثم ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ وهي من مصاديق ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ وأما ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾

(١) سورة النحل، الآية: ١١٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٣.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٣.

فليست محرمة في خصوص حقل الأنعام بل هي من الميسر المحرم في آيتي البقرة والمائدة، إذاً فلا محرم في حقل الأنعام أصلياً من حيث المجموعة، دون أجزاءٍ من كلّ منها، إلّا «الميتة وما أهل لغير الله به» تذكيراً بشرط أصيل للحّل وهو الذبح الشرعي، وآخر كشعيرة توحيدية مضادة لشعيرة الشرك وهو ذكر اسم الله عليه، فلأن الإهلال حسب المتعوّد لم يكن يخرج من كونه لله أو لغير الله، فتحريم ما أهل لغير الله به إيجاب للإهلال لله كما فصلنا كلّ ذلك في المائدة، ذلك وفي احتمال ﴿لَّآ أَجِدُ﴾ الحالة الحاضرة تصبح آية المائدة مفصلة لهذه المحرمات أو مزيدة عليها ما لا يدخل فيها ظاهراً بيناً، ولكن الأول أظهر.

وهنا ﴿دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ كنصّ أولي لتحريم الدم، تحول حوله النصوص الثلاثة الأخرى النازلة بعدها «والدم» فاللّام فيها هي لعهد الذكر، فتعني ﴿دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ ذكر من ذي قبل، فلا يحرم من الدم إلّا المسفوح منه مهما أطلق في التوراة حرمة الدم دون تقيد بمسفوح وسواه[1] والتفصيل محول إلى آية المائدة فراجعها.

وقد تعني ﴿لَّآ أَجِدُ﴾ مضارعة - تشمل الحال والاستقبال - عدم وجدان محرم أصيل في حقل بهيمة الأنعام إلّا هذه المذكورات منذ نزول هذه الآية حتى الوحي الأخير على ذلك البشير النذير، فما ورد في تحريم لحوم الحمر الأهلية أو سواها مرفوضة[2]، فإنما يحرم المفترس من الحيوان

(١) في التوراة سفر اللاويين ١٧ : ١٢ «لذلك قلت لبني إسرائيل لا تأكل نفس منكم دماً ولا يأكل الغريب النازل في وسطكم دماً» ومثله في التكوين ٩: ٤.

(٢) مثل ما في آيات الأحكام للجصاص ٣: ٢٠ من حديث الزهري عن الحسن وعبد الله ابني محمد ابن الحنفية عن أبيهما أنه سمع علي بن أبي طالب عليه السلام يقول لابن عباس: «نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أكل لحوم الحمر الإنسية وعن متعة النساء» ورواه عنه صلى الله عليه وآله وسلم ابن عمر وجابر والبراء بن عازب وابن أبي أوفى وسلمة بن الأكوع وأبو هريرة وأبو ثعلبة، والمقداد =

لا سواه وكما ثبت عن النبي ﷺ إنه «نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع وعن كل ذي مخلب من الطير»(١) فكلّ ما ليس من الأنعام من حيوان البر محرم لكونها من السباع فـ ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾(٢).

و﴿لَّآ أَجِدُ﴾ لصاحب الوحي الأخير بوحي من الله بهكذا تعبير هي

= ابن معدي كرب وأبو ثعلبة الخشني وأنس بن مالك وسعيد بن جبير، رووه عنه ﷺ مثله، ويعارضه - بعد الآية - ما روي عن عبد الرحمن بن مغفل عن رجال من مزية فقال بعضهم غالب بن الأبجر وقال بعضهم الحر بن غالب أنه قال: يا رسول الله ﷺ أنه لم يبق من مالي شيء أستطيع أن أطعم فيه أهلي غير حمرات لي قال: فاطعم أهلك من سمين مالك فإنما كرهت لكم جوال القرية، أقول: بذلك يتبين المعنى من حرمة الحمر الأهلية أنه من باب الإسراف دون الحرمة الذاتية، وهكذا الأمر في الأفراس وأشباهها من الرّكوب التي هي أصلح للرّكوب من الأكلّ، وكما في نور الثقلين ١ : ٧٧٤ عن التهذيب عن أبي جعفر عليه السلام في حديث ونهى رسول الله ﷺ عن أكل لحم الحمير والخيل وإنما نهاهم لأجل ظهورهم أن يفنوه وليست الحمر بحرام ثم قرأ هذه الآية.

(١) المصدر ٢٢ عن ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ.. ورواه علي بن أبي طالب والمقداد ابن معدي كرب وأبو هريرة وغيرهما.

ومن طريق أصحابنا المرسل في محكي المقنع عن النبي ﷺ «كلّ ذي ناب من السباع ومخلب من الطير والحمير الإنسية حرام».

أقول: «حرمة الحمير الإنسية تبيت أنها لظهرها الذي هو أنفع وكما ورد في الخيل، عن أبي عبد الله عليه السلام عن لحوم الخيل؟ فقال: لا تأكلّ إلّا أن تصيبك ضرورة» (الكافي ٦: ٢٤٦ والتهذيب ٣: ٣٤٨) وصحيح ابن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام سألته عن أكل الخيل والبغال فقال: «نهى رسول الله ﷺ عنها فلا تأكلها إلّا أن تضطر إليها» (الكافي ٦: ٢٤٦ والتهذيب ٢: ٣٤٨) وصحيح سعد بن سعد عن الرضا عليه السلام سألته عن لحوم البرازين والخيل والبغال فقال: لا تأكلها.

وفي موثق سماعة سألت أبا عبد الله عليه السلام عن المأكول من الطير والوحش فقال: «حرم رسول الله ﷺ كلّ ذي مخلب من الطير وكلّ ذي ناب من الوحش فقلت أن الناس يقولون من السبع فقال لي يا سماعة السبع كله حرام وإن كان سبعاً لا ناب له وإنما قال رسول الله ﷺ هذا تفصيلاً» (الكافي ٦: ٢٤٧).

(٢) سورة النحل، الآية: ٥.

صيغة أخرى عن عدم وجود وحي يحمل تحريماً في حقل بهيمة الأنعام أكثر مما ذكرت في آية الأنعام.

إذ من المستحيل أن يوحي الله تعالى إليه محرماً في هذا الحقل سوى ما ذكر ثم هو لا يجده، اللهمّ إلّا ألا يوحي إليه الله ما حرَّمه وذلك ضِنَّة في الوحي ونقض لكمال الرسالة، مع أنه أوحي إليه ﴿قُل لَّآ أَجِدُ...﴾ أي لا يوجد وحي بهذا الصدد إلّا ما أوحي، فقد كفى النص ﴿قُل لَّآ أَجِدُ﴾ دلالة على حلِّية الدم غير المسفوح.

لذلك فالدم غير المسفوح من المحلَّل في شرعة القرآن أياً كان، اللهم إلّا من غير الحيوان المحلل، وأمّا الطير المحلل وما أشبه من غير بهيمة الأنعام فما له دمان فالمسفوح منه محرم، وما له دم لا يسفح أو غير المسفوح منه فمحلَّل، فإن ﴿دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ طليقة مهما كانت بهيمة الأنعام هي الأصل فيه، فلو لم يكن للسفح دخل في حرمة الدم لكان لاغياً في موضوع التحريم، ولسنا نستدل - فقط - على حل غير المسفوح من الدم بمفهوم الوصف، فإنما نقتصر على تحريم المسفوح بالنص ثم لا دليل على تحريم غيره، وإن كان الاستدلال به صحيحاً، حيث الدم غير خارج عن مسفوح وغير مسفوح، والمحور هو الذي له مسفوح وسواه، فالحيوان الذي ليس له دم مسفوح، أو الدم غير المسفوح من الذي له مسفوح وغير مسفوح، دمه حلال، ثم الدم من غير الحيوان أحرى بالحل، فإنما الحيوان المحرم يحرم دمه بدليل حرمته كله.

وهنا ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ قد يختص بـ ﴿لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ ولكنه يصلح شمولاً لـ ﴿مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ إلى ﴿لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ ولو كان القصد إلى خصوص ﴿لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ لكان صالح التعبير تقديم ﴿لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ ثم ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ حتى يختص به، وما تأخير ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ إلّا لأنه يحمل

مصداقين اثنين ثانيهما ﴿مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾[١] حيث فيه بقية الحياة، فليس - إذاً - رجساً بصورة طليقة مهما كان فسقاً مات بذلك الإهلال أم لم يمت.

ذلك حكم العامد غير المضطر ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

وهنا «أضطر» في بناء المجهول تقيِّد الحل بما كان الاضطرار دون اختيار، فقد يضطر الإنسان بما يقدمه هو باختيار فلا غفران ولا رحمة عليه في أكله اضطرارياً مهما وجب عليه حفاظاً على الأهم، ولكن الذي يُضطر دونما اختيار منه، وإنما أوقع في حالة الاضطرار دون أية محاولة ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

ثم المضطر لا عن اختيار قد يكون باغياً يبتغي أكلّ الحرام، أم عادياً عاصياً ففاجأه الاضطرار، أم عادياً في أكله أكثر من قدر الاضطرار، فهؤلاء هم كما المضطر باختيار لا تشملهم ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ مهما كان على المضطر المقصر أن يأكل قدر الضرورة حفاظاً على الأهم من نفسه وصحته.

وترى ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ...﴾ فهو غير آثم، كيف تناسبه ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؟ علّه لأن لذلك الإثم واقعين اثنين، واقع العقوبة الأخروية وهو خاص بباغ أو عاد أو من اضطر باختيار، وواقع الضرر أتوماتيكياً بتلك الأكلة المحظورة وهو مورد الغفر والرحمة الربانية بسند الاضطرار غير المقصر.

تلحيقة:

بهيمة الأنعام وهي غير السباع كلها محللة بنص القرآن، والمحرم هو كلّ مفترس من الحيوان ذي مخلب أو ناب كما ثبت في متواتر السنة،

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

وكذلك من حيوان البحر غير السماك والروبيان، والتفصيل إلى فقه السنة.

ذلك، ولأن حرمة البعض من بعض الأنعام في شرعة التوراة قد تصبح ذريعة للتحريم الجاهلي، لذلك يبين الله أنها كانت ابتلائية لردح من الزمن ثم أحلت.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ
حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا
اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) فَإِنْ كَذَّبُوكَ
فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ
(١٤٧) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا
حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ
هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ
إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩)
قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا
تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠) قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ
رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا
أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا
ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا
بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا
نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ
اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي

مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ
وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى
الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ
يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن
دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ
مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن
كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ
الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾:

أجل، فلم تحرم عليهم ما حرمت ذاتياً، إنما ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾(١) حيث ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ . . .﴾(٢).

و﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾ هم الذين رجعوا عن الحق بعد اهتدائهم إليه وهم ثلة وفي القرآن شيء كثير من تهودهم وتعندهم، ثم وهم الذين رجعوا إلى الحق

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٣.

وهم قلة، والفريقان معنيان هنا بـ ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ فقد حرم الله عليهم ككلّ - طالحين وصالحين - طيبات أحلت لهم ﴿فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾[(١)] فعلى الطالحين فتنة شر وابتلاء وعلى الصالحين فتنة خير واعتلاء، ومما حرمت عليهم هو صيد الحيتان يوم السبت: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾[(٢)].

﴿حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ﴾ من حيوان البر والطير وهي من أعظم النعم ﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ﴾ الشامل للإليات، وقد كانوا يبيعونها ويأكلون أثمانها، حيلة شرعية لا خبر في الشرع عنها، وقد لعنهم رسول الله ﷺ بحيلتهم الغيلة قائلاً: «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها»[(٣)] فإن ﴿حَرَّمۡنَا﴾ الواردة على موضوع لا تختص بوضع خاص له، بل تعم كلّ المحاولات فيه، وقد نص التوراة على حرمة الشحوم[(٤)].

﴿إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ﴾ من شحومهما ﴿أَوِ ٱلۡحَوَايَآ﴾ هي المباعر

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.

(٣) الدر المنثور ٣: ٥٣ - أخرج ابن مردويه عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: . . . ورواه عنه ﷺ مثله عمر بن الخطاب وأبو هريرة وابن عباس وفي الأخيرة زيادة: وإن الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلّا حرم عليهم ثمنه. .

(٤) كما في سفر اللاويين ٣: ١٤ - ١٧ ١٤ «ويقرب منه قربانه وقوداً للرب الشحم الذي يغشي الأحشاء وسائر الشحم الذي على الأحشاء ١٥ والكليتين والشحم الذي عليهما الذي على الخاصرتين وزيادة الكبد مع الكليتين ينزعها ١٦ ويوقد الكاهن على المذبح طعام وقود لرائحة سرور كلّ الشحم للرب ١٧ فريضة دهرية في أجيالكم في جميع مساكنكم لا تأكلوا شيئاً من الشحم ولا من الدم» وكذلك في ٧: ٢٤ - ٢٧.

والمصارين، واحدها الحوية أو الحاوية وهي الدوارة في بطن الشياه والأبقار، فهي - إذاً - الشحوم الملتصقة بالمباعر والمصارين ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾ فهذه الشحوم الثلاثة استثنيت عن ﴿شُحُومَهُمَآ﴾ و«ذلك» التحريم في حقل طيبات محللة في أصولها ﴿جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ﴾ المتواصل على عباد الله وشرعة الله ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في ذلك الجزاء والتحريم بسببه.

ذلك، وقد أحل الله في شرعة المسيح عليه السلام ما حرمه في التوراة على الذين هادوا: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(١).

فلا يحمل شرعة الإنجيل إلّا هكذا تحليل، فليس فيه - إذاً - غيره من نسخ لا جليل ولا قليل، اللهم إلّا مزيدات من تنظيمات خلقية من توجيهات السيد المسيح عليه السلام، فشرعة الإنجيل هي شرعة التورات في الأصل، كما يكرره السيد المسيح عليه السلام في الإنجيل، ويعتبر القرآن نفسه بعد التوراة تأشيراً عشيراً إلى هذه الوحدة: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾(٢).

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾:

فهو أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأعظم المتجبرين في موضع النكال والنقمة، ومن رحمته الواسعة تحليل الطيبات وتحريم

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٠.
(٢) سورة الأحقاف، الآيتان: ٢٩، ٣٠.

الخبائث، ومن نقمته تحريم طيبات على الذين هادوا ببغيهم، ومن نكاله على الذين يحرمون ما أحل الله ويحلون ما حرم الله نكال الآخرة والأولى.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾:

بعد كلّ هذه التنديدات بالإشراك بالله والحجاجات على المشركين بالله نسمعهم قد يبررون موقفهم من عقيدتهم وأعمالهم الشركية بأن المشيئة إنما هي لله، فلو شاء الله ألّا نشرك به ما أشركنا ولا حرمنا من شيء إذ لسنا نقدر أن نتغلب على مشيئة الله، فحين أشركنا وحرَّمنا علمنا أنه ليس خلاف مشيئة الله، بل هو الذي يشاء شركنا وتحريمنا، فشركنا توحيده وتحريمنا تحريمه وتوحيدنا خلاف مشيئته إشراك به.

هنا ﴿سَيَقُولُ﴾ إخبار بالمستقبل أنهم ما قالوه حتى الآن وسيقولونه بعد الآن كما: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[(١)].

ولأن النحل نازلة بعد الأنعام فآية النحل هي مما سيقولون، وهكذا يتبررون في عقيدتهم الجاهلة النكدة متظاهرين بالإخلاص لله والتسليم لمشيئة الله المتأكدة لإشراكهم بالله، فإن «لو» تُحيل مشيئته لترك الإشراك وتحتّم مشيئة الإشراك، فنحن - إذاً - عمال تحتيم الإشراك لله من الله.

وهؤلاء الأنكاد بين مجبرة ناكرة للاختيار في كلّ الأفعال، وغير مجبرة خالطة بين المشيئة التكوينية والتشريعية، وكلاهما كذب من القول وزور

(١) سورة النحل، الآية: ٣٥.

وغـرور: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾(١): ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾(٢) - ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ فنتقبل فريتكم علينا ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

ذلـــك ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾(٣) - ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٤) - ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾(٥).

وهنا عطف الظاهر ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ على الضمير في ﴿مَآ أَشْرَكْنَا﴾ دليل على أنه من صالح الأدب، إذاً فمن سوء الأدب قول بعض أهل الأدب إن عطف الظاهر على المضمر قبيح، حيث القائل هو القبيح السفيه(٦) والقرآن هو الوجيه.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾:

إنها ليست حجة الظن كما تزعمون، فإن الظن لا يغني عن الحق شيئاً، إنما هي علم أو إثارة من علم آفاقياً وأنفسياً(٧) ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ تبلغ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٢٠.
(٣) سورة هود، الآيتان: ١١٨، ١١٩.
(٤) سورة النحل، الآية: ٩٣.
(٥) سورة يونس، الآية: ٩٩.
(٦) وهو سيبويه وأضرابه ممن تقولوه.
(٧) نور الثقلين ١: ٧٧٥ عن أصول الكافي بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام يا هشام إن لله على الناس حجتين حجة ظاهرة وحجة باطنة فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام وأما الباطنة فالعقول.

الجاهل كما العالم مهما اختلفت حجة عن حجة(١) ولكنما ﴿ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ تبلغ إلى كافة المكلفين بالمبلغين الرساليين رسلاً وأئمة معصومين ﷺ(٢) والذين يحملون عنهم.

ذلك، وأبلغ حجج الله الطاهرة الظاهرة هو القرآن العظيم، فإنه الأكبر في الثقلين، وهو الظاهر لا يغيب والباقي مر الدهور مهما غاب الرسول والأئمة من آل الرسول ﷺ أم ماتوا، ولأن الرسول ﷺ وذويه حجة مع القرآن، فالسنة هي حجة هامشية مبينة للقرآن: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(٣).

فالرسول بجنب الكتاب حجة علمية وعملية، فهو أسوة فيهما كيلا يقال لم نفهم الكتاب كله، أم لا نستطيع أن نعمل بالكتاب كله، والرسول أمثولة للكتاب كله، حجة تقطع كلّ الأعذار.

ذلك - وفاء التفريع الأول فيه ﴿فَلِلَّهِ﴾ تقلّب حجتهم عليهم إذ لا حجة لهم على دعواهم فليس عندهم عليها من علم فيخرجوه، والتفريع الثاني في ﴿فَلَوْ شَآءَ﴾ حجة أخرى على غرقهم في لجّتهم أنه لا يشاء تسييراً على

(١) نور الثقلين المصدر في أمالي الشيخ الطوسي بإسناده إلى مسعدة بن صدقة قال سمعت جعفر ابن محمد ﷺ وقد سئل عن قول الله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] فقال: إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: عبدي أكنت عالماً؟ فإن قال: نعم قال له: أفلا عملت بما علمت وإن قال: كنت جاهلاً قال له: أفلا تعلمت حتى تعمل فيخصمه فتلك الحجة البالغة.

(٢) نور الثقلين ١: ٧٧٦ في أصول الكافي عن سدير عن أبي جعفر ﷺ قال قلت له ما أنتم؟ قال: نحن خزان علم الله ونحن تراجمة وحي الله ونحن الحجة البالغة على من دون السماء ومن فوق الأرض.

وفيه عن أبي عبد الله ﷺ قال كان أمير المؤمنين ﷺ باب الله الذي لا يؤتى إلا منه وسبيله الذي من سلك بغيره هلك وكذلك يجري أئمة الهدى واحداً بعد واحد جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بأهلها وحجته البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

الهدى بل هو تخيير اختياراً للهدى أو للردى ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وليس اختيارهم الشرك تحقيق مشيئة تشريعية أم وتكوينية مسيَّرة لهم على الشرك، ومن الحجَّة البالغة لله الفِطَر والعقول الحاكمة بتوحيد الله وهم تاركوهما إلى ظنون وتخيلات تخبلات تعارض كافة الحجج الآفاقية والأنفسية!.

فلأن ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ دونما تقصير أو قصور، وهو يشاء تشريعياً تحقيقها واقعياً، ﴿فَلَوْ شَآءَ﴾ ذلك تكويناً تسييراً ﴿لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولكنه على حجته البالغة في كلّ الحلقات يبتليكم بما تختارون.

فليس عدم صدِّه عن الإشراك به لرضاه به أو عجزه عن ذلك الصد، إنما هو حكمة بالغة تكليفاً حنيفاً عطيفاً في دار البلية والاختبار بالاختيار.

وهذه الآية هي من تلك التي تدلنا على واقع الأمر بين أمرين دون جبر ولا تفويض من جهات عدة: فإن ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ﴾ تنديد بالقول ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ في خرافة الجبر، ثم ومديده ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ ومن ثم التجهيل بفارغ الحجة ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ تدليلاً على سلبية العلم فيما هم يدعون بصورة طليقة، وسحقاً لما خيل إليهم من حجة ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ والخرص هو أقبح أنواع الكذب، حيث لا يملك حجة وهو فرية وقحة على الله.

ذلك، لأن الجبر يبطل رسالات الله، ويمس من كرامة الربوبية فضلاً وعدلاً، ويهدم صرح التشريعات عن بكرتها، وهم يدعون الجبر نكراناً للرسالات، وإباحية لكلّ الشهوات والشيطنات، وجمعاً لله حيث يسيِّر الكلّ على كلّ الشرور والخيرات، بين تحقيق المتضادات، وحيث يسيِّر جمعاً على التوحيد وآخرين على الإشراك، جمعاً بين وحدته وتعدده، وجمعاً بين إرساله رسل الخير النبيين ورسل الشر الشياطين، وذلك أقبح الافتراءات

على رب العالمين و﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الله ورسل الله «حتى ذاقوا وبال أمرهم».

إن الحجة البالغة الإلهية على ما يحمله المرسلون شهادة ربانية على صدقهم، فمن هم شهداءكم على ما تدعون من أصول وفروع؟:

﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١٥٠﴾:

﴿قُلۡ﴾ لهؤلاء المدعين الزور بكلّ تزوير وغرور لو كان لكم شهداء على ما تدعون فـ ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ﴾ الذي تحرّمون ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ فشهادتهم عاطلة باطلة إذ لا ترتكن إلى ركن وثيق من علم أو إثارة من علم ﴿فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾ إذ لم يوح إليك ما أوحي إلى شياطينهم ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ في هذه الشهادة الزور فإنهم في ثالوث منحوس: التكذيب بآيات الله قاعدته، ثم ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾: تهديماً لصرح التوحيد والنبوة والمعاد.

فإنهم يعدلون بالله من خلقه ما يشتهون وهم بالآخرة هم كافرون وهم بآيات الله هم يكذبون! ذلك! فكيف تقبل شهادة الخائضين في ثالوث الكفر، وليست لتقبل شهادة المؤمنين لو شهدوا بما يضاد ما أوحي إليك، فكما هم يتبعون أهواءهم لو شهدوا فأنت متبع أهواءهم لو قبلت شهادتهم!.

وإنها مواجهة فاصلة مستأصلة لمزاعم المتخلفين عن شرعة الله سواء المشركين الرسميين أو الذين يزاولون حق الحاكمية والتشريع للناس افتراءً على الله أم تشريعاً مشاقاً لتشريع الله بما لم يأذن به الله.

﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾:

هنا وفيما يتلو سردٌ مجمل جميل عن كافة المحرمات الأصلية والفرعية: الرئيسية في شرعة القرآن، وهي عشرة كاملة معظمها في صيغة النهي وأخرى في صيغة الأمر المستفاد منها النهي عن هذه، وهذه العشرة تحلِّق على كافة المرفوضات والمفروضات في شرعة الله كضوابط رئيسية يستنبط منها كافة الفروع استفساراً لها من سائر القرآن ومن السنة، وقد تلاها الرسول ﷺ على جموع حيث عرض عليهم نفسه رسولاً، كنموذج شامل عن رسالته القدسية[(١)].

(١) الدر المنثور ٣: ٥٤ - أخرج أبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: لما أمر الله نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج إلى منى وأنا معه وأبو بكر وكان أبو بكر رجلاً نسابة فوقف على منازلهم ومضاربهم بمنى فسلم عليهم وردوا السلام وكان في القوم مفروق بن عمر وهاني بن قبيصة والمثنى بن حارثة والنعمان بن شريك وكان أقرب القوم إلى أبي بكر مفروق وكان مفروق قد غلب عليهم بياناً ولساناً فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال له: إلى م تدعو يا أخا قريش؟ فتقدم رسول الله ﷺ فجلس وقام أبو بكر يظله بثوبه فقال النبي ﷺ أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وإني رسول الله وإن تؤوني وتنصروني وتمنعوني حتى أؤدي حق الله الذي أمرني به فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغني الحميد، قال له وإلى من تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: قل تعالوا - إلى - تتقون فقال له مفروق وإلى م تدعو أيضاً يا أخا قريش فو الله ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه فتلا رسول الله ﷺ: إن الله يأمر بالعدل والإحسان... فقال مفروق: دعوت والله يا قرشي إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال وقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك وقال هاني بن قبيصة قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش ويعجبني ما تكلمت به ثم قال لهم رسول الله ﷺ أن لم تلبثوا إلّا يسيراً حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم - يعني أرض فارس وإنها كسرى - ويفرشكم بناتهم أتسبحون الله وتقدسونه فقال له النعمان بن شريك اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش فتلا رسول الله ﷺ: «إنا أرسلناك =

ف ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء وكلّ هؤلاء المكلفين على مدار الزمن الرسالي إلى يوم الدين ﴿تَعَالَوْا﴾ إلى كرسول من الله ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾:

١ - ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ - كما لم يشرك الله بنفسه شيئاً - في أي من شؤون ربّكم بواسع ربوبيته المحلِّقة على كافة الشؤون الخاصة به، الخالصة له، تكويناً وتشريعاً، خالقية ومعبودية أماهية.

و﴿شَيْئًا﴾ هنا تستأصل أي شيء من شؤون ربّوبيته عن أي شيءٍ من خلقه ف «لا تشركوا شيئاً - به شيئاً» اجتثاثاً لكلّ بذور الإشراك بالله في كلّ دركاته، وحصيلته خالص التوحيد لله في كلّ درجاته، فعلى كلّ قدر إمكانيته طرد الإشراك بالله، وسرد توحيد الله في قاله وحاله وأفعاله ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

ذلك، فهي تبقية لضمير الفطرة على خالص التوحيد، وتنقية له من أو شاب الشرك، وتنقية العقل من أو شاب الخرافات، ومن تقاليد الجاهلية الجهلاء العمياء، وبصورة شاملة تخلية للحياة عن عبودية العباد تحلية لها بعبودية الله وحده لا شريك له، فإن الشرك في كلّ صورة هو المحرم الأول حيث يجر إلى كلّ محرم، والمنكر الأول الذي يجب حشد الإنكار له كله.

وترى كيف يكون مما حرم عليكم ربّكم ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا . . . وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فهل عدم الإشراك هناك وفعل الإحسان هنا مما حرم عليكم ربكم؟.

والجواب أولاً أن ﴿حَرَّمَ﴾ تعني جعل الحريم، ثم بيَّن ذلك الحريم بالنهي عن الحرام والأمر بالواجب، فلكلٍّ حريم بذلك التحريم.

= شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً». . . ثم نهض رسول الله ﷺ قابضاً على يد أبي بكر.

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

وثانياً: ﴿أَتْلُ﴾ قد تعني تلاوة ما يبين المحرمات سواء أكانت بصيغة النهي كما في مناهيها، أم بصيغة الأمر كما في أوامرها، وهما يجتمعان في بيان أصول المحرمات.

ولأن ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ﴾ هما المكمن الأوَّل للناشئة إيلاداً بإذن الله، وتربيةً وترقيةً، فلهما الدور الثاني بعد الله:

٢ - ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إذا فترك الإحسان بهما محرم، وليس فقط الإساءة إليهما، فهنا نعرف - كضابطة - أن الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضده العام وهو هنا ترك الإحسان، فإن أساءَ فمحظور مؤكد.

وقد عد الإحسان بالوالدين في عديدة كهذه بعد النهي عن الإشراك بالله والأمر بتوحيد الله كـ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[(١)] - ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴿١٤﴾﴾[(٢)].

ذلك، لأنهما - الشاملين لوالدي الروح كالدعاة إلى الله ووالدي الجسم - هما مَجريان لولادة الجسم والروحية الإنسانية السامية، فأفضل الوالدين هما النبي وعلي عليهما السلام [(٣)] كما يروى عنه «أنا وعلي أبوا هذه الأمة».

٣ - ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[(٤)] - ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾[(٥)]

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.
(٢) سورة لقمان، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٣) نور الثقلين ١: ٧٧٧ عن تفسير القمي قال: الوالدان رسول الله وأمير المؤمنين عليهما السلام.
أقول: راجع آيات الأسرى ولقمان تجد تفصيل البحث حول المفروض تجاه الوالدين.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٣١.

والإملاق هو الإنفاق أو كثرته لحد الافتقار، وهنا ﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ تعني واقعه، أن ثقل الإنفاق لحد الافتقار يحملكم على قتل أولادكم، ولكن المنفق عليهم في الحق هو الله ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾، وقد يعني ﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ خشيته إلى واقعه، كما و﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ﴾ قد تعني واقعه إلى خشيته، فلا الإملاق ولا خشيته بالذي يبرر قتل الأولاد إذ إن أقصى التكليف هنا أن يُنهي الإملاق إلى موت الأولاد جوعاً، فلماذا تقتلونهم - إذاً - أخوفاً من موتهم؟ وقتلهم أسوء حالاً! أم خوفاً من موتكم؟

فكذلك الأمر!، ثم الولد يأتي برزقه من الله، فثقله على الأرض ورزقه على الله.

وأصل الإملاق هنا واقعه الذي هو للآباء، فذلك يُطمْئِن الآباء هنا قبل الأولاد، وأصله في الأسرى الخشية التي هي في الأصل للأولاد، ولذلك يُطَمْئِن الأولاد هناك قبل الآباء، ولأن الإملاق تُستعمل لازماً ومتعدياً، فإملاق الأنعام لازم هو الإفلاس، وإملاق الأسرى متعدٍ هو الإنفاق حيث يفلس.

٤ - ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ والفواحش هي المتجاوزة حدها أم إلى غير صاحبها، ووا ويلاه إذا اجتمع فيها التجاوزان لا سيما إذا تجاوزت إلى المجتمع تشنيعاً لها بينهم بتشجيع فهو - إذاً - ثالوث الفاحشة: تجاوزاً حدها وإلى الغير ثم إلى المجموعة.

﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ حيث هو بالمرئي ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ في الباطن كالفواحش العقيدية[1] أم ﴿مَا ظَهَرَ﴾ على رؤوس الأشهاد مهما كانت

(١) نور الثقلين ١: ٧٧٧ عن المجمع عن أبي جعفر عليه السلام أن ما ظهر هو الزنا وما بطن هو المخالة.

تحديثاً عما بطن ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ عن الأشهاد مهما كان ظاهراً في خفاءٍ[(١)] وهما على أية حال تشملان كافة الفواحش لمثلث الأقوال والأحوال والأفعال، باطنةً في نفسها أو ظاهرة، متخفية أو متجاهرة، ما هي فواحش.

ثم ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ تأكيد للابتعاد عن الفواحش ألا تقترب إلى مقدماتها التي تجعلك تقترفها، فالمعاصي حمى الله فمن حام حول الحمى أو شك أن يدخل فيها، ففي مثل فاحشة الزنا يعني من قربها ما يقرِّب إليها من مقدمات وملابسات كالتبرج والتهتك والاختلاط المثير والكلمات والإشارات والحركات والنبرات والضحكات المثيرة وكلّ الإغراءات والتزيينات والاستثارات والاستهتارات، فإنها كلها مما تقرّب إلى فاحشة الزنا.

وهكذا سائر الفواحش العقيدية والأخلاقية والعملية، فردية وجماعية حيث القرب من مقدماتها يورد المقترب في أصولها.

٥ - ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وهنا ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ استثناء منقطع حيث المستثنى منه ﴿النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أو متصل إذا كان المستثنى منه فقط ﴿النَّفْسَ﴾ وبالحق إن دور ﴿بِالْحَقِّ﴾ حظر عن قتل النفوس كضابطة، سواء التي تعلم أنها محرمة فقد حرمها الله أصلياً، أو التي لا تعلم أنها محرمة أصلياً فإنها محرمة حسب ذلك الأصل: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فما لم تحقق هدر دم وأن الحق هدره ليس لك أن تهدره.

ومن الملاحَظ في السياق القرآني أن هذه المنكرات الثلاث، نجدها

---

(١) الدر المنثور ٣: ٥٥ عن ابن عباس قال: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنا بأساً في السر ويستقبحونه في العلانية فحرم الله الزنا في السر والعلانية، وفيه عن عكرمة في الآية ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [الأنعَام: ١٥١] قال: ظلم الناس ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعَام: ١٥١] قال: الزنا والسرقة.
وفي نور الثقلين ١: ٧٧٧ في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى غيور يحب كلّ غيور ولغيرته حرم الفواحش ظاهرها وباطنها.

متلاحقة مع بعض، ولأنها متشاركة متشابهة في الأخطار، فالنفس المشركة ميتة، والمجتمع الذي لا يحترم النفوس ولا يحترز عن الفحشاء ميت.

فالأصل في النفوس الإنسانية الحرمة اللّهم إلّا ما خرج بدليل يُحق الحق في هدرها، كالنفس القاتلة عمداً دون حق، أو الساعية في الأرض فساداً أو المرتدة عن الدين، أو المحصنة في زنا، وقد يروى عن النبي ﷺ أنه «لا يحل دم امرئٍ مسلم إلّا بإحدى ثلاث كفر بعد إيمان وزناً بعد إحصان وقتل نفس بغير حق»(١).

ذلك ومن غريب الوفق عددياً في القرآن أن عديد الغضب والفاحشة بمختلف صيغهما مثلان فلكلّ (٢٤) وهذه لمحة لطيفة بأنهما صنوان متماثلان حيث الفاحشة تستجر الغضب!.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ - ﴿ذَٰلِكُم﴾ من محظور محظور ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ ربكم توصية خاصة بين سائر التوصيات ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتربطون أنفسكم برباط التقوى، ضباطاً عن الطغوى، عقلاً عن الله ما يقيكم عن أصول المحرمات ومن ثم ما يليها:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾:

وهذه الأربع المتممة للخمس السابقة بواحدة تالية هي في عشرة كاملة، تكملةٌ لعقلية الإيمان أن نتذكرها ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فنحافظ عليها.

٦ - ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ وأحسن القرب هنا هو أحسنه نفعاً له وأقربه صالحاً لأجله، فلا يستدين الولي من

(١) تفسير الفخر الرازي ١٣ : ٢٣٣.

مال اليتيم دون فائدة محللة، ولا يأخذ أجرة على عمل الولاية إلّا إذا كان فقيراً فقدر الضرورة، ولا يبقي ماله دون عائدة ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ حيث يجب ردّه إليه وهو إيناس رشد منه وهنا يجوز القرب بالتي هي حسن كسائر الأموال لسائر البالغين لخروجه عن يتمه، وليس قرب الظلم فإنه محرم في أموال الناس ككلّ، و﴿أَشُدَّهُۥ﴾ جمع الشد هي شد الجسم والعقل والرشد، فلا يكفي بلوغه النكاح كما في آية النساء: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾(١) فحين يبلغ اليتيم أشده فلا يُتم حتّى يستمر ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ...﴾ فالقرب بالتي هي حسن كما السّيئ محظور حالة يتمه، ولكنه غير محظور بعد أشده، فبين القرب السيئ والحسن والأحسن، يؤمر بالنسبة لمال اليتيم بالقرب بالتي هي أحسن، ويُنهى عن الحسن كما السيئ، ثم إذا بلغ أشده يرفع الفرض عن الأحسن إلى الحسن كطبيعة الحال في كلّ الأموال، ومن الأحسن ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾(٢) حيث يجمعهما ترك الأجر المرسوم في مثله من عمل الولاية.

٧ - ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ وهو هنا العدل وزيادة، إيفاء لما يكال أو يوزن في التعاملات، والقسط هنا هو معيار الكيل والوزن، حيث الإيفاء بغير معيار قد لا يكون إيفاءً.

وليس هذا الأمر وذلك النهي إلّا قدر الوسع: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وكما في سائر التكاليف الشرعية، حيث الضابطة الثابتة فيها هي قدرُ المستطاع، وهو هنا: «من أوفى على يديه في الكيل والميزان والله يعلم صحة نيته بالوفاء فيها لم يؤاخذ وذلك تأويل وسعها»(٣).

(١) سورة النساء، الآية: ٦.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦.
(٣) الدر المنثور ٣: ٥٥ - أخرج ابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال تلا رسول الله ﷺ:=

فقد تشمل قاعدة الوسع واسع الظروف في مختلف التكاليف، مهما كان موردها هنا التكليف بالنسبة لمال اليتيم وإيفاء الكيل والميزان بالقسط.

فكما لا يكلف المسلم في إيفاء الكيل والميزان إلّا وسعه، كذلك لا يكلف في مال اليتيم إلّا وسعه، فالولي الذي لا يسعه - لمكان فقره - ألا يأخذ من مال اليتيم قوته لا يكلَّف إلّا وسعَه، وأمّا الغني فلا ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

٨ - ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ عدلاً في القول أياً كان دون أي إفراط فيه ولا تفريط، وعدلاً في المقول والمقول فيه، قولاً له أو عليه ﴿فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ﴾ المقول فيه ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ دون إفراط في صالحه تفريطاً على غيره، أو تفريطاً فيه إفراطاً على غيره، حيث القرابة ليست بالتي تحوّل القول عن العدل، فالحق لا يعرف قريباً عن غريب، كما الباطل لا يعرف غريباً عن قريب، ففي حقل الشهادة وهي أخطر الحقول نجد الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(١).

وفي حقل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾(٢) وهكذا الأمر في كافة الحقول قولاً باللسان أم بالكتابة أم بالأركان، فالميزان الوحيد في الكلّ هو العدل، دون نقيصة فإنها الظلم، وإن كان مزيدٌ فهو فضل.

= أوفوا الكيل والميزان. وفيه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: يا معشر التجار انكم قد وليتم أمراً هلكت فيها الأمم السالفة قبلكم المكيال والميزان، وفيه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ما نقص قوم المكيال والميزان إلّا سلط الله عليهم الجوع.

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

٩ - ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ۚ﴾ عهداً في الفِطَر والعقول والشرائع الإلهية، فيما عهده لنفسه علينا من توحيده وطاعته وعبادته، وهنا «بعهد الله» عهد علينا: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(١).

وعهداً منا له علينا وهنا «بعهد الله» عهدنا له علينا فيما سمح لنا: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾(٢) - ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ﴾(٣)، وعهوداً فيما بيننا حيث يمضيها الله وهنا ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ ما أمضاه بيننا، فإيجاب الوفاء بعهد الله هو مثلثة الجهات كما العقود: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِۚ﴾(٤) و﴿ٱلْعَهْدَ﴾: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾(٥).

ذلك، وفي تقديم الظرف: «بعهد الله» على المظروف: ﴿وَأَوْفُوا۟﴾ تقديم للزاوية العليا من مثلث العهود على الأخريين، أن نفَي بعهده علينا ثم بعهدنا له، ومن ثم بعهودنا فيما بيننا، وقد سبق من عهد الله عهد التوحيد والإحسان بالوالدين وعدم القتل إلّا بالحق وعدم قرب الفواحش وعدم قرب مال اليتيم إلّا بالتي هي أحسن والإيفاء بالكيل والميزان.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الأربع من أحكام الشرعة ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما كتب في كتاب الفطرة والعقلية السليمة من الست الأصلية التي وصاكم به لعلكم تعقلون.

١٠ - ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾:

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٠.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩١.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٣٤.

﴿هَٰذَا﴾ الذي وصاكم به من الخمس الأولى وهي النواميس الخمس والأربع الأخرى التي تكملها وهذا القرآن الحاوي لمسالك الهدى، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾ الخاص بي للسالكين إليّ حالكونه ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ لا عوج له أصلياً وفرعياً ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ فإنه السبيل المستقيم بين سائر السبل ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ سائر ﴿ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾: الصراط المستقيم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الصراط الحق وحق الصراط ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ سائر السبل، والسبل هي الطرق، ولا تتفرق هي بهم، وإنما هم الذين يفارقون نهجها ويتبعون عوجها.

فصراط الله واحد والسبل إليه عدة هي درجات، وهذه سبل المؤمنين، ثم تقابلها سبل المغضوب عليهم والضالين، وهما المعنيّان بالسبل المنهي عنها في ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾.

وقد تعني ﴿صِرَٰطِى﴾ إلى صراط الله صراطَ رسول الله إلى الله، فإنه من قوله حسب الأمر: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ... وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾[١٥١-١٥٣] مهما كان الصراط هو صراط الله، ولكن الرسول الهادي إليه المهتدي به وهو على صراط مستقيم، له الصراط رسولياً ورسالياً، كيف لا وهو من أنعم المنعَم عليهم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾(١).

وقد نستدعي ليل نهار أن يهدينا ربنا إلى صراطهم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾(٢).

ذلك ولكن نسبة الصراط إلى الله هي نسبة المسلوك إليه، ونسبته إلى

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.
(٢) سورة الفاتحة، الآيتان: ٦، ٧.

هؤلاء المنعم عليهم هي نسبته إلى سالكه، فصراط الله لنا هو الذي قرره لنسلكه إليه، وصراطه هو الذي نسلكه إلى الله.

إذاً ف ﴿صِرَٰطِى﴾ نسبةٌ إلى الله هو الأول، ونسبةٌ إلى الرسول هو الثاني، ثم ونسبة إلى سائر السلّاك ليست إلّا على ضوء صراط الرسول بما يهدي الله، وصراط الرب في ربوبيته خاص به لا يعدوه إلى سواه ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١) والصراط إلى الرب خاص بالمربوبين لا يعدوهم إليه.

في هذه العشر مما ﴿حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ لا نجد صراح النهي التحريم إلّا في خمس هي الإشراك بالله وقتل الأولاد من إملاق وقرب الفواحش وقتل النفس المحترمة وقرب مال اليتيم إلّا بالتي هي أحسن، كأكبر المحرمات في حقل العقيدة والنفس والعِرض والمال والعقل، وهي النواميس الأصلية التي يجب الحفاظ عليها في كافة الشرائع الإلهية.

ثم الخمس الأخرى لا تدل على التحريم إلّا بصيغة إيجاب أضدادها ﴿وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ - ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ - ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ - ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ - ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ إذاً فالمحرم فيها ترك الإحسان بالوالدين، وبخس المكيال والميزان، وترك العدل في القول، ونقض عهد الله، واتباع سائر السبل، مما يدل على أن الأمر بالشيء لزامه النهي عن ضده العام، وأن هذه تكملة للنواميس الخمس.

وفي كلّ من هذه النواميس الخمس سلب وإيجاب، فالسلب في ناموس العقيدة ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ - ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ والإيجاب ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ - ﴿وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ - ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى. . .﴾ والسلب في ناموس

---

(١) سورة هود، الآية: ٥٦.

النفس ﴿لَا تَقْتُلُوا﴾ ومن إيجابه ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ والسلب في ناموس العرض ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ ومن إيجابه ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ والسلب في ناموس المال ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ وإيجابه ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ ثم الإيجاب في ناموس العقل هو الإيجاب في النواميس الأربعة الأخرى فـ ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ثم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بعد أقسام، و﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بعد العاشرة، تذكرة لإيجاب الواجب وترك المحرم، واتقاءً عن المحظور في ترك الواجب وفعل المحرم.

ذلك، فلهذه الآيات الثلاث موقف عظيم في القرآن العظيم يتطلب الرسول ﷺ أن يبايَع عليها في قوله: «أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث»[1].

أجل ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ...﴾ «فاعلموا إنما السبيل سبيل واحد جماعه الهدى ومصيره الجنة وأن إبليس اشترع سبلاً متفرقة جماعها الضلالة ومصيرها النار».

ولقد «خط رسول الله ﷺ خطاً بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال: وهذه السبل ليس منها سبيل إلّا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ الآية[2].

---

(١) الدر المنثور ٣: ٥٤ عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿أَيُّكُمْ...﴾ [التوبة: ١٢٤].

ثم تلا ﴿قُلْ تَعَالَوْا...﴾ [الأنعام: ١٥١] ثم قال: فمن وفي بهن فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه.

أقول: «كانت عقوبته» بالنسبة للشرك مردودة فإن الله لا يغفر أن يشرك به، اللهم إلّا شركاً كالرثاء.

(٢) المصدر أخرج أحمد وعبد بن حميد والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن =

وهكذا نختم السياق الطويل من السورة الذي بدأ بقوله تعالى ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا...﴾(١) ضما بين هذا المبدإ وذلك الختام بقضية الحاكمية والتشريع، فإن الصراط المستقيم كمادة الدعوة هو القرآن العظيم، وكداعية هو الرسول ﷺ ومن يحذو حذو الرسول كالأئمة من عترة الرسول عليهم السلام، فإنهم السبل إلى رسول الله كما هو السبيل إلى الله، فالمتخلف عنهم متخلف عن سبيل الله قدر تخلفه فإنهم أبواب علم رسول الله ﷺ.

وكما يروى عنه ﷺ قوله: «معاشر الناس أنا صراطه المستقيم الذي أمركم باتباعه ثم عليٌّ من بعدي ومن ولدي من صلبه أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون»(٢).

ذلك، ولصراط الله مُنعة تمنع عن التفرق والانزلاق والانحياق، كما ولسائر السبل منعة تمنع عن الانسلاك إلى صراط الله فـ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ المختلفة عن سبيل الله ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

صحيح أن سبيل الله أيضاً سبل ولكنها سبل تنتهي بسلاكها إلى الصراط حيث الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ

= مردويه والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: خط... رواه مثله عنه ﷺ جابر بن عبد الله.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٤.

(٢) نور الثقلين ١: ٧٧٩ في كتاب الاحتجاج للطبرسي بإسناده إلى الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام عن النبي ﷺ حديث طويل وفيه خطبة الغدير وفيها: «معاشر الناس أن الله قد أمرني ونهاني وقد أمرت علياً ونهيته فعلم الأمر والنهي من ربه عز وجل فاسمعوا لأمره تسلموا وأطيعوه تهتدوا وانتهوا لنهيه ترشدوا وصيروا إلى مراده ولا تتفرق بكم السبل عن سبيله معاشر الناس إنا صراطه المستقيم».. وفيه تفسير القمي عن الإمام الباقر عليه السلام في الآية قال: نحن السبيل فمن أبى فهذه السبل.

أقول: وفي معناه روايات عدة تعني تفسير الجري والتطبيق على ثاني المصداقين لداعية الصراط، وهكذا يجري في العلماء الربانيين العارفين العاملين بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[(١)] - ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٢)] ثم المسلك النهائي لهذه السبل: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فأين سبل الظلام التي تتفرق بكم عن سبيله من سبل السلام التي توصلكم إلى سبيله؟.

ذلك، وفي نظرة أخرى شاملة إلى هذه الآيات الثلاث نجدها تحمل أحكاماً تشترك فيها كلّ شرائع الدين، ومثلث التعبير بـ ﴿وَصَّىٰكُم﴾ فيها قد يشير إلى ذلك الاشتراك وكما في آية الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ...﴾[(٣)] فإن في هذه الوصايا العشر نجد أصل الدين ككلّ، ففيها الحفاظ عليه كأصل.

ثم وتذييل الآية الأولى بـ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ علّه لأن ما تشمله من حرمات هي قضية أصيلة للفطرة والعقلية الإنسانية غير المعقولة بعقالات الهوى.

وتذييل الثانية بـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يعني تذكُّر ما في الفطرة والعقل بتأمل فإن ما تحمله ليست كما الأولى في ظهورها وبهورها، فقد يحتاج في عقلها بتعبئة العقل بتذكر وتعمل وتأمل.

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
(٣) سورة الشورى، الآية: ١٣.

وتذييل الثالثة بـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يعني واقع التقوى الحاصلة بذلك التعقل والتذكر، اتقاءً عما يخالف الفطرة والعقلية الصالحة، وكلّ ذلك بذلك الوحي المنيف، اجتماعاً لمثلث الوحي فطرة وعقلية وشرعة، والأخيرة هي المكملة لما في الأولين.

فقد يكون الإنسان على صراط التقوى ما دام هو في صراط التعقل والتذكر، تبنياً للفطرة كأصل أوّل، وللشرعة كأصل آخر، فبينهما التعقل والتذكر، عقلاً عن كلا الفطرة والشرعة، وتذكراً لأحكامهما حسب المستطاع والمقدرة، ف ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1].

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾:

ترى ما هو دور ﴿ثُمَّ﴾ هنا و«تَعالَوْا أَتْلُ» تلاوة قرآنية ليست إلّا بعد ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؟ اللائح من ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ. . .﴾[2] كما اسبقناه أن هذه التلاوة تحمل إجمالاً عن كافة شرائع الدين، المتلوة على كافة الأمم الرسالية، وحيث لا يحمل تفصيلها في هذه الخمس إلّا شريعة التوراة ومن ثم القرآن، فقد تعني ﴿ثُمَّ﴾ تراخي التفصيل في هذين الكتابين عن الإجمال المتلو لهذه العشرة الكاملة.

ف ﴿ثُمَّ﴾ بعد تقرير هذه العشرة من أصول التشريعات المشتركة بين كلّ الشرائع ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا﴾ دون نقصان كتفصيل أول للردح الزمني الخاص لشرعة التوراة ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ الله من إجمال هذه العشر، تماماً على قراره وغراره لموسى، فهو تفصيل أوّل تام على ضوء ذلك

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

الإجمال الهام، و﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾ محمد ﷺ من تلاوة ما حرم عليكم، و﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾ موسى من جهاده في رسالته وجهوده و﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾ من بني إسرائيل في تطبيق هذه النواميس العشرة، كما ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِى ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَىۡءٍ مَّوۡعِظَةً وَتَفۡصِيلًا لِّكُلِّ شَىۡءٍ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٍ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾(١) فإن أحسنها هذه العشرة.

و﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾ هنا تطبيق لما وعد المحسنين من ذي قبل: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(٢).

و﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ﴾ هو ﴿أَحۡسَنَ﴾ مما سبقه من كتابات الوحي، فإن فيها تماماً للنواميس العشرة حسب الحاجات في أدوارها، ولكن الشرعة التوراتية هي تمامٌ أحسن من التمام في سائر الكتب السابقة عليه.

ذلك وقد تعني ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾ خماسية الأحسن قضية حذف الفاعل والمتعلّق، فذلك الجمع الخماسي هو تمام على الذي أحسن في أدب اللفظ وحدب المعنى.

ف ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هنا على أية حال يحمل أوّل تمام لتفصيل النواميس العشرة ﴿وَتَفۡصِيلًا لِّكُلِّ شَىۡءٍ﴾ منها دون إبقاءٍ، «تفصيلاً» أوّل كما يناسب الردح الزمني للشرعة التوراتية ﴿وَهُدًى﴾ للعالمين ﴿وَرَحۡمَةً﴾ لهم كما يقتضيه ذلك الدور المحدَّد ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾: لقاءً معرفياً وعبودياً هنا، فلقاءَ يوم الحساب للثواب والعقاب، وفي ﴿لَّعَلَّهُم. . .﴾ تعريض ببني إسرائيل حيث أنكروا لقاء الله لحدٍّ حذفوا آيات القيامة عنها اللهم إلّا شذرة مشيرة!.

ذلك، وكما نرى الشرعة التوراتية ترتكن على النواميس العشرة مهما

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٨.

وضحت لها فروعاً هي المعنية بـ ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وليس الإنجيل شرعة جديدة بعد التوراة اللهمّ إلّا في تحليل ما حرم فيها عقوبة كما مضت ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾(١).

لذلك لا يذكر الإنجيل هنا بعد التوراة في حقل التفصيل، وكما لم يذكره الجن الذين استمعوا القرآن إذ ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فإنما يذكر القرآن هنا وهناك دون فصل.

أجل ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا...﴾ إيحاء بأن هذا الصراط المستقيم ممتد من ذي قبل في كلّ رسالات الله، وأتم شرعة من ذلك الصراط قبل شرعة القرآن هي التوراة، ثم القرآن تكملة له وتكملة لسائر الشرائع كما يحق ويمكن، حاملاً في صرحه لبنات الخلود دون زوال ولا اضمحلال:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾:

أفـ ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ كبركة التوراة دون زيادة عنه؟ إذاً فلا جديد فيه حتى يتبع بعد التوراة ما فيه! إنه ﴿مُبَارَكٌ﴾ بصورة طليقة تحلق على أرض التكليف جغرافياً وتأريخياً إلى يوم الدين، فأين مبارك من مبارك، وليس ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إلّا لذلك المبارك لما انقضى دور الأوّل؟.

وقد «يمثل القرآن» على ما يروى من رسول القرآن حجة للمؤمنين به العاملين، وحجة على الكافرين به والتاركين(٢).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٠.

(٢) الدر المنثور ٣: ٥٦ - أخرج ابن أبي شيبة وابن الضريس عن أبيه عن جده سمعت رسول الله ﷺ يقول: يمثل القرآن يوم القيامة رجلاً فيؤتى الرجل قد حمله فخالف أمره فينتثل له خصماً فيقول يا رب حملته إياي فبئس حاملي تعدى حدودي وضيع فرائضي وركب معصيتي وترك طاعتي فما يزال يقذف عليه بالحجج حتى يقال فشأنك فيأخذ بيده فما يرسله حتى يكبه على منخره في النار ويؤتى بالرجل الصالح قد كان حمله وحفظ أمره فينتثل خصماً دونه =

لقد أنزل ذلك الكتاب المبارك قطعاً لأية حجة وبيِّنةً طليقةً من الرب حليقة على كلِّ الطلبات، حقيقة بالاتباع إلى يوم الدين:

﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾:

والطائفتان المنزل عليهما الكتاب المفصل بعد إجمال النواميس العشرة هما اليهود والنصارى، وهذه دلالة ثالثة قرآنية على أن التوراة كتاب شرعة أحكامية لكلا اليهود والنصارى، كما وهو للعالمين أجمعين حتى زمن نزول القرآن.

فاختصاص نزول الكتاب المفصل بطائفتين دون نزول ثان على الأميين وهم قوم لدٌّ ليسوا ليحنّوا إلى كتاب أنزل على غيرهم، ذلك حجة قد تقطع عذرهم عما هم ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾(١) ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾(٢).

وترى كيف يصدق ﴿أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ والتوراة شرعة عالمية؟ ذلك تخيُّل منهم وكثير هؤلاء الذين يعيشون هذا التخيل رغم نصوص القرآن بأمميته التوراة، أو اعتذار أن محور الدعوة التوراتية هم طائفتان من قبلنا، ولغتهم غير لغتنا، ودعوتها - على أية حال - ما وصلت

= فيقول يا رب حملته إياي فحفظ حدودي وعمل بفرائضي واجتنب معصيتي واتبع طاعتي فما يزال يقذف له بالحجج حتى يقال له: شأنك به فيأخذ بيده فما يرسله حتى يلبسه حلة الإستبرق ويعقد عليه تاج الملك ويسقيه كأس الخمر».

أقول: هي كما يقول الله: ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ [الطور: ٢٣].

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٨، ١٩٩.

إلينا ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ كيفما كانت الغفلة، تقصيراً من حملتها حيث لم يبلغوها إلينا أم بلغوها محرفة عن جهات أشراعها.

لا سيما ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ لهذا الكتاب ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ فقد درسوا الكتاب النازل عليهم صالحة أم طالحة ونحن عنها غافلون إذ لم تصل إلينا من دراستهم شيءٌ إلّا إنذار رسالة بتحريفات وتجديفات، فكيف نكلّف بكتاب ما وصلت إلينا دعوته إلّا محرفة مزورة لا تكفينا الآن حجة فضلاً عن الغافلين، وحتى لو كانت غفلتنا معمدة فنحن الآن حيارى إذ حرفوا الكتاب فلا يفيدنا - إذاً - كما لا يفيدهم، فلنذكّر بكتاب لا يحمل ما حملته التوراة من تحريفات وتجديفات: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١) ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

ذلك، وحتى لو كانت التوراة نازلة علينا كما لهم فواقع التحريف فيه يفرض تجديد الوحي مع جديد استمراره واستقراره واستقطابه كافة المكلفين إلى يوم الدين، فهاتان حجتان اثنتان، ثم ثالثة:

﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾:

«واقسموا بالله» لو لم ينزل عليكم القرآن ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾(٣).

(١) سورة النحل، الآية: ٤٤.
(٢) سورة النحل، الآية: ٦٤.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٤٢.

ذلك، ولا تختص تلك الأعذار بالأميين العرب، المخاطبين الأول بالقرآن، بل هي تحلِّق على كافة المكلفين، لمكان تحرف التوراة فلا تظل حجة على الأجيال، وأنها تحمل من أحكام مؤقتة لا تتحمل لقضية الخلود، فإنما يذكر هنا أعذار الأميين لأنهم هم المواجَهون الأولون لوحي القرآن، فلتقطع أعذار الحملة الأولى لهذه الرسالة القرآنية ومن ثم العالمون أجمعون.

ذلك ﴿فَقَدْ جَآءَكُم﴾ عرباً وسواهم آية ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تحمل كافة البينات: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾[1]؟ بينة ليست فوقها بينة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ على مدار الزمن الرسالي ككلّ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ تحملان كلّ هدى الله ورحماته، إذاً ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هذه البينات القاطعات لكلّ الأعذار ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ منعاً وإعراضاً شديداً مديداً إعراضاً لأنفسهم وإعراضاً لآخرين، حيث الصَّدْف هو المنع والإعراض، ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ أياً كان وأيان في حقل القرآن ﴿سَنَجْزِى﴾ ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ هو دقيقه دون رقيقه، فإن دقيقه عدل ورقيقه فضل وهم أولاء الأنكاد يستحقون فضلاً وإن في العذاب ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ ويُعرضون.

(١) سورة طه، الآية: ١٣٣.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ
رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ
أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟
دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا
كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ
فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ
صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ
أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا
تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم
مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ
خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ
رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾

لقد تمت الحجة وحقت كلمة الله على ناكريها دونما إبقاء لأيَّة عاذرة إلّا غادرة حاسرة خاسرة، فحتى متى ينكرون بينات الله المكرورة المتواترة على أعينهم وأسماعهم فماذا ينتظرون؟.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ

يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾:

استفهامات إنكارية هي في الحق استفحامات لناكري بينات الله، هي في ثالوث المستحيل ذاتياً أو مصلحياً في صالح الدعوة، والضلع الأوسط منه هو من المستحيل ذاتياً أن ﴿يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ بنفسه إلى هؤلاء الأغباش الأنكاد ليخبرهم بنفسه أنه واحد لا شريك له وأن محمداً ﷺ رسوله، فحتى لو أمكن إتيان ربك إليهم - ولا يمكن إتيانه إليك وأنت أفضل رسله - فهل ينحصر تصديقه بإتيانه نفسه، فهلّا تصدقون أنتم أي رسول في تعاملاتكم المتعودة إلّا أن يأتيكم المرسل بنفسه؟ تلك إذاً قسمة ضيزى! وأما تفسير إتيان الرب بإتيان موقف الحساب فلا مجال له هنا وصحيح التعبير عنه وفصيحه «أن يأتي يوم القيامة» ثم وهم ناكروه فكيف هم ناظروه؟ فإتيان الرب هنا نظرة غالطة للمشركين وكما في البقرة: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[1] فهو نظرة رؤية الله كما سألها اليهود: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ . . .﴾[2].

فمجيء المرب بربوبية الجزاء يوم الجزاء حتم لا مرد له وهو مجيء الحساب فالثواب والعقاب، وإتيانه يوم الدنيا بهذه الربوبية مستحيلة مصلحياً، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل، ثم إتيانه بذاته مستحيل ذاتياً على أية حال.

وأما ﴿أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ رسلاً إليهم؟ فـ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٨.

رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[١] وقد سبق في قول فصل أن الرسالة الملائكية إلى البشر غير صالحة في كلّ أبعادها.

أو أن تأتيهم ملائكة مصدقين للرسول: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾[٢] أم ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[٣] ثالوث منحوس من متطلبات لهم جاهلة.

فرؤية الملائكة لهم - على أية حال - ممنوعة إلّا يوم الموت ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[٤] ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾[٥].

وأما أن ﴿يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ غير الرسولية ولا الرسالية، فآيات العذاب المزمجر المدمّر فتلجأوا إلى الإيمان مخافة البأس؟ فحينئذٍ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ حيث الإيمان عند رؤية البأس[٦] كاذب ملجأ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩.
(٢) سورة هود، الآية: ١٢.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٧.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢٢.
(٥) سورة الحجر، الآيتان: ٧، ٨.
(٦) نور الثقلين ١ : ٧٨٠ في عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من العلل بإسناده إلى أبي إبراهيم بن محمد الهمداني قال قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام لأي علة غرق الله تعالى فرعون وقد آمن به وأقر بتوحيده؟ قال: لأنه آمن عند رؤية البأس والايمان عند رؤية البأس غير مقبول وذلك حكم الله تعالى ذكره في السلف والخلف قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤-٨٥] وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[١].

ذلك مهما شذ عنه شاذ يؤمن حقاً عند رؤية البأس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[٢] فهم قد كسبوا في إيمانهم خيراً وكما هنا ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ فالإيمان مكسب وليس غاية، فكسب الخير في الإيمان هو - فقط - المؤمّن للمؤمن، دون صورة منه بلا سريرة وسيرة، فالنفس التي آمنت من قبل ولمّا تكسب في إيمانها خيراً لا ينفعها إيمانها عند رؤية البأس، كما التي تؤمن عندها دون كسب لخير، وليس من الخير عمل الإيمان دون إيمان في القلب، مهما كان إيمان في القلب خيراً وإن لم يلحقه العمل كما يجب، فـ ﴿خَيْرًا﴾ هو إيمان القلب، ثم عمل الإيمان، و﴿خَيْرًا﴾ دون «الخير» لمحة إلى أن إيماناً ما في القلب كسبٌ في الإيمان ينفع صاحبه عند البأس إذا عمل صالحاً على ضوءه فـ ﴿فِىٓ إِيمَٰنِهَا﴾ دليل على واقع الإيمان دون صورته فقط ودعواه، فكسب الخير فيه أن يبرز في عمل صالح ما قلّ منه أو كثر، حيث التارك لأي من الصالحات ليس إيمانه إلّا دعوى فارغة فـ «الرجل يكون مصراً ولم يعمل عمل الإيمان ثم تجيء الآيات فلا ينفعه إيمانه»[٣] فالإيمان الراكد غير الكاسب خيراً لحيلولة المعاصي والتوغّل فيها لا يفيد صاحبه[٤]، إذ لا توبة له ولا سيما عند بأس الموت: ﴿وَلَيْسَتِ

(١) سورة غافر، الآيتان: ٨٤، ٨٥.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩٨.

(٣) نور الثقلين ١ : ٧٨١ في تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِى...﴾ [الأنعام: ١٥٨] قال: طلوع الشمس من المغرب وخروج الدابة والدجال والرجل يكون مصراً.

(٤) وفيه عن عمرو بن شمر عن أحدهما عليهما السلام في قوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]=

ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾[١].

والمستفاد من ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ أن الإيمان دون عمل صالح - هو قضيته - لا ينفع صاحبه، أم هو ليس واقع الإيمان بل هو دعواه حيث الإيمان أيّاً كان يظهر في العمل على قدره: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[٢] فالعمل الصالح ترجمان الايمان.

وترى ما هي ﴿بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾؟ إنها آيات عذاب الاستئصال في دار الدنيا[٣] قبل الرجعة أو بعدها.

ثم ما هي بعض آيات ربك هنا وكم هي؟ إنها بطبيعة الحال للجوءهم إلى إيمان هي من الآيات البينات بعد القرآن، التي لا تبقي مجالاً للناكرين إلّا الإيمان، تخوفاً من آية تدمرهم أماهيه مما يُلجئُ إلى إيمان.

فليست هي كلّ حادثة مكرورة مرَّ الزمن كالطوفانات والبركانات وإضرابهما من مكرورات الآيات مما يؤوُّل إلى قضية الطبيعة في مختلف تحولاتها، بل هي آية تدل الناكرين لوجود الله أو توحيده أم رسالاته على أنه الحق لا ريب فيه، كرجوع فِرَق من الموتى عن أجداثهم وخروج صاحب الأمر بآياته السماوية والأرضية، وهو في أصل ظهوره وفصله أكبر آية،

= قال: المؤمن حالت المعاصي بينه وبين إيمانه لكثرة ذنوبه وقلة حسناته فلم يكسب في إيمانه خيراً.

(١) سورة النساء، الآية: ١٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨١.

(٣) نور الثقلين ١: ٧٨٠ في كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه معنى الآية «فإنما خاطب نبينا صلى الله عليه وآله هل ينظر المنافقون والمشركون إلّا أن تأتيهم الملائكة فيعاينوهم أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يعني بذلك أمر ربك والآيات هي العذاب في دار الدنيا كما عذب الأمم السالفة والقرون الخالية.

وظهور غرائب من علامات ظهوره، آيات خارقة العادة كآيات الرسالات رغم انقطاع الرسالات بأسرها، مما تدل على حقها في حاقها.

ولقد تواترت الروايات حول ظهور صاحب الأمر بمثلث آياته قبله ومعه وبعده فهو عجل الله تعالى فرجه الشريف - نفسه - من ﴿بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ في طول عمره وسعة أمره وتأسيس دولته العالمية الكبرى على ضوء القرآن(١).

ومن الآية «دابة الأرض» كما في النمل: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾(٢).

ومنها كأغربها معنىً «طلوع الشمس من مغربها» كما تواتر عن النبي ﷺ وأئمة أهل بيته عليهم السلام (٣).

ولا تنافي عديد الآيات ﴿بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ حيث إن بعض المجموع يعمّ الواحد منه والعديد، كما وأن ﴿يَوْمَ يَأْتِى﴾ لا يختص بيوم واحد، فقد يشملان إتيان آيات في أيام.

وترى في الحق إن الشمس سوف تطلع من مغربها قبل يوم القيامة؟ وفي ذلك خراب العالم بتساقط المنظومة الشمسية وسائر المنظومات!.

---

(١) نور الثقلين ١: ٧٨١ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة عن أبي عبد الله عليه السلام قال في قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ...﴾ [الأنعام: ١٥٨] فقال: الآيات هم الأئمة عليهم السلام والآية المنتظر القائم عليه السلام فيومئذ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل» قيامه بالسيف وإن آمنت بمن تقدمه من آبائه عليهم السلام.

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٢.

(٣) في الدر المنثور ٣: ٥٧ - ٦٣ - أخرج آية «طلوع الشمس من مغربها» عن جماعة عن النبي ﷺ منهم أبو سعيد الخدري وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وحذيفة بن اليمان وأبو ذر وابن عباس وعبد الله بن أبي أوفى وصفوان بن عسال ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن عمرو العاصي وأنس والحسن وأبو أمامة وحذيفة بن السيد، هؤلاء الأربعة عشر الذين أخرج عنهم عن النبي ﷺ أن «طلوع الشمس من مغربها» هذه أو من هذه الآية، ثم الراوون عن أئمة أهل بيته كأمثال هؤلاء أم يزيدون.

فهل إنه مأول بطلوع شمس الإسلام من المغرب حيث يتهافت أهله في دولة المهدي عليه السلام إلى تقبل الإسلام قبل سائر المسلمين، فلذلك لا تذكر في روايات الظهور حروبٌ آنذاك على صاحب الأمر عليه السلام إلّا من بلاد إسلامية دون سائر البلاد.

ولكنه يعارض نصوصاً من التواتر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه في الحق واقع الطلوع المعاكس للشمس من مغربها، فليصدق ذلك الطلوع ما لم يطلع معارضاً لثابت العلم والقانون الكوني، إلّا أن تواتر طلوع الشمس من مغربها يقل عن تواتر ردّ الشمس وهما بمعنى واحد وخلفية واحدة من الناحية الكونية، ومهما لا نصدِّق رد الشمس لفرض أداء صلاة العصر في وقتها لما فيه من مناحرات العدالة فضلاً عن العصمة واضرابها، فقد نصدق طلوع الشمس من مغربها بوجه مشترك بينهما، وغاية الأمر هنا أن نقول: لا ندري هنا دونما هناك.

ومن هذه الآيات المزمجرة فتح يأجوج ومأجوج المصرح به في القرآن، وأمثالها من ثابتات الآيات بثابت السنة القدسية(١).

﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ممكنة الآيات ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾(٢) ﴿بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ يوم الدنيا، و﴿مُنتَظِرُونَ﴾ إتيان الملائكة يوم الموت ويوم الأخرى.

هذه نماذج من آيات ظهور صاحب الأمر، ولكنها ليست كلها بالتي نمنع عن قبول الإيمان، اللهم إلّا التي هي من آيات البأساء الملجأة إلى

(١) في تفسير الفخر الرازي ١٤ : ٧ عن البراء بن عازب قال: كنا نتذاكر أمر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ما تتذاكرون؟ قلنا نتذاكر أمر الساعة قال: إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدخان ودابة الأرض وخسفاً بالمشرق وخسفاً بالمغرب وخسفاً بجزيرة العرب والدجال وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى ونار تخرج من عدن.

(٢) سورة هود، الآية: ١٢٢.

الإيمان، وأما صاحب الأمر نفسه وصوت الحق السائر منه الذي يحمله الأثير إلى كافة العالمين وما أشبه، فليس الإيمان عندها مرفوضاً محظوراً بل هو مفروض من محبور.

أجل، فالآية المخوفة هي التي عندها ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ دون الآيات غير المخوفة.

ولأن الأصل في عدم نفع الإيمان أن يكون دعواه الفارغة دون حقيقته، فقد تعم هذه الآية إلى المخوفة منها غير المخوفة، إذاً فـ ﴿بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ قد تشملهما، مهما كانت المخوفة هي الأصيلة بدورها في سلبية النفع.

فالمؤمنون الحقيقيون عند هذه الآيات ولا سيما المهدي المنتظر عجّل الله تعالى فرجه ينفعهم إيمانهم الجادُّ أو المتجدد قضيةَ صادق الإيمان، وأنه عليه السلام تُملأُ به الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، والذين محضوا الكفر محضاً من الراجعين بعد الموت أو الكائنين عند ظهور ولي الأمر، هؤلاء لا ينفعهم إيمانهم لعدم كونه صادقاً كما في الآخرين، أم مضى دور قبول إيمانهم كالراجعين، فإنما المؤمنون الذين يؤمنون حقاً، والكاسبون في إيمانهم خيراً هم الذين ينفعهم إيمانهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ أياً كان، إشراكاً أم توحيداً، فمهما كان تفريق الدين في الإشراك طبيعته، فالتفريق لدين التوحيد هو خلاف طبيعته بل وتخلف عن طريقته، بل هو نقض له ونقص في كيانه فـ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1] ﴿وَلَا

(١) سورة الروم، الآيتان: ٣١، ٣٢.

تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾(١) فـقـد ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ . . .﴾(٢).

أجل و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ مؤمنين إلى مشركين ومشركين إلى مؤمنين ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ متفرقين منذ كانوا أم منذ مديد من الزمن، فشرعة الشيع هي التي تنحو منحى تفريق الدين: تفرقاً على تفرق ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾(٣)! ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ فإنك رسول التوحيد، فلا أمر لك معهم سلباً أو إيجاباً حيث لا ينحون نحو الوحدة لا نصيب لك منهم إذ لست منهم في شيء من الحق، حيث لا نصيب من الحق في حقل تفرق الدين وتمزُّق اليقين، فليس لك شيءٌ من أمرهم المفرق لمكان المفاصلة التامة بين الدين الموحَّد والدين المفرِّق اللّهم إلّا أن يثوبوا إلى الدين الموحِّد الحق.

فـ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ﴾ الإمر ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ في يوم الله ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ من شيعهم وتفرقهم في دينهم، إنباءً بحقيقة باطلهم حيث تظهر يوم تبلى السرائر، وإنباء بجزائهم الذي هو في الحق تفرقهم عن الحق وتفرقهم في الحق.

وترى الذين وحدوا دينهم لغير الله طاعة لطاغوت واحد فلم يفرقوه، أليسوا هم معهم من الموبّخين؟ ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ تعم هؤلاء وإياهم حيث فرقوا طاعتهم عن طاعة الله، فـ ﴿دِينَهُمْ﴾ إن كانت طاعة الله فهي تفرقة في طاعة الله بسائر التفرقات ومنها ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾(٤) كما منها طاعة الله

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٥.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٣) سورة النور، الآية: ٤٠.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٠.

في بعض وطاعة أهواءهم في بعض، وإن كان طاعة غير الله فهي المفرقة عن بكرتها عن طاعة الله.

فإن دين الفطرة والعقلية السليمة هو حقاً دين الحق، والتخلف عن ذلك الدين هو تفرق الدين عن قضية الفطرة والعقلية.

إذاً فـ ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ تعم دينهم الطاعة الباطلة حيث فرقوها عن الدين الحق، ودينهم الفطري إذ فرقوا عنه قضيتّها، ودينهم الطاعة الحق حين يفرقون فيها فيتفرقون بمختلف التفرقات والتفرُّقات، حيث الزوايا الثلاث هي كلها فارغات عن الحق المُرام، وكضابطة ثابتة ليس تفريق الدين محظوراً إلّا ما نحي منحى الباطل تقصيراً في الدين الحق، فتفريق الحق عن الباطل فرض على أهل الحق مهما فرق بين أهل الحق المجاهيل، والتوحيد في الحق فرض مهما حاول المدعون الحق في الفرقة بين أهل الحق.

ولو أن التفريق - ككلّ - كان محظوراً لكانت الدعوات المفرقة الرسالية بين المؤمنين والكافرين محظورة، فإنما التفريق القاصد الظالم هو المحظور المحظور.

وبصيغة واحدة التفرق في دين الله كما التفرق عن دين الله هو فراق فارغ عن دين الله فـ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(١) ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(٢).

فالمفرقون دينهم عن دين الله، والمفرقون بين دين الله، تفريقاً بين الله وبين رسل الله ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾(٣).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٥٠.

أم تفريقاً بين رسل الله، أم بين رسالات الله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾، أم اي تفريق يناحر طبيعة دين الله الموحِّد وهو الإسلام لله، هؤلاء كلهم من ﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ مهما كانوا دركات كما المسلمون لله درجات.

هؤلاء المفرقون دينهم ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ من دينهم، لأنك داعية الوحدة والتوحيد، وكلّ شيء منك كرسول موحِّد يختلف عن كلّ شيء منهم مفرقين ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إليك حيث نفضت يديك عن بلاغهم المفروض وليس عليك إبلاغهم واقعياً إلى الحق ف ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

فاليهود والنصارى على تفرقهم إياي سباً في دينهم هم من الذين فرقوا دينهم عن دين الإسلام وكانوا قبل ذلك شيعا متفرقة في دينهم، ومنهم «أهل البدع والأهواء من هذه الأمة لا»[1] والخوارج[2]، ومن هؤلاء هم الذين فارقوا باب مدينة علم النبي ﷺ علياً عليه السلام وصاروا أحزاباً[3] كما منهم الشيعة الذين لم يشايعوه كما يحق فأصبحوا عليه شيناً وشنيعة، ولا سيما العلماء المتفرقون عن كتاب الله كأصل، فمفرِّقون أتباعهم أيادي سباً إذ لم

---

(١) الدر المنثور ٣: ٦٣ - أخرج الحكيم الترمذي وابن جرير والطبراني والشيرازي في الألقاب وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩] قال: هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة.

(٢) المصدر عن أبي امامة عن رسول الله ﷺ أنهم الخوارج، وفيه عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال لعائشة يا عائش: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩] هم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة يا عائشة إن لكلّ صاحب ذنب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة أنا منهم بريء وهم مني براء.

(٣) نور الثقلين ١: ٧٨٢ في تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: فارقوا أمير المؤمنين عليه السلام وصاروا أحزاباً.

يرتكنوا إلى ركن وثيق، هو بالاتباع الطليق حقيق، تاركين للإعتصام بحبل الله، معتصمين بظنونات ومشكوكات، معتبرين إياها حججاً وليست إلّا لججاً غامرة هامرة.

فلو أن علماء الإسلام اتخذوا القرآن نبراسهم الوحيد ومتراسهم الوطيد لم يعيشوا ذلك الاختلاف العارم.

ذلك، ولكن المحور الأصيل في ذلك التنديد المديد هم المشركون وأهل الكتاب الذين لا يؤمنون فإنهم أولاء هم واجهة الخطاب العتاب من ذي قبل مهما شمل التنديد كلّ هؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً.

فذلك مفرق الطريق بين الرسول ﷺ ودينه كله وبين كلّ المفرقين دينهم، سواء أكانوا من المشركين الذين تمزقهم أوهام الجاهلية شيعاً، أو من اليهود والنصارى الذين مزقتهم المذهبيات الشاردة عن شرعة الله، فأصبحوا مللاً ونِحلاً ومعسكرات ودولاً، أو من غيرهم ما كان وما هو كائن وما سيكون من مذاهب مختلفة مختلفة بين المسلمين.

فالوقفة الأولى لأي مسلم أمام عقيدة غير إسلامية هي المفرقة الأولى عن الإسلام، كما الوقفة أمام أي حكم وسلطة غير إسلامية هي من أهم المفرقات، وبينهما متوسطات من المفرقات، فإنما الإسلام للجماهير المسلمة هو الالتقاء على محض الإسلام والإسلام المحض والسلام.

فيا ويلاه من أهل الرأي والهوى، فقد «ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه، ثم يجتمع القضاة عند الإمام الذي استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً، وإلههم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد، أفأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوه، أم نهاهم عنه فعصوه، أم أنزل الله سبحانه ديناً

ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه، أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضي؟ أن أنزل الله ديناً تماماً فقصر الرسول ﷺ عن تبليغه وأدائه والله سبحانه يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[١] وقال ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضاً وأنه لا اختلاف فيه فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[٢] [٣].

ذلك «وآخر قد تسمَّى عالماً وليس به فاقتبس جهائل من جُهَّال وأضاليل من ضُلال ونصب للناس أشراكاً من حبائل غرور وقولِ زور، قد حمل الكتاب على آرائه وعطف الحق على أهوائه.. يقول: أقف عند الشبهات وفيها وقع ويقول: أعتزل البدع وبينها اضطجع»[٤].

فـ «المعروف فيهم ما عرفوا والمنكر عندهم ما أنكروا مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المهمات على آرائهم، كأنَّ كلَّ امرئٍ منهم إمام نفسه قد أخذ منها فيما يرى بُعرىً ثقات وأسباب محكمات»[٥].

فقد «خاضوا بحار الفتن وأخذوا بالبدع دون السنن»[٦].

«فلما أفضت (الخلافة) إليّ نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته، وما استن به النبي ﷺ فاقتديته فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما - طلحة والزبير - ولا رأي غير كما، ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخواني من المسلمين، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما، وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة - التسوية بين المسلمين في تقسيم

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٣) نهج البلاغة الخطبة ١٨ : ٦٢ عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وبقية الجمل حسب أرقام الخطب كلها من نهج البلاغة عنه عليه السلام.
(٤) ٨٥/ ١٥٤.
(٥) ٨٦/ ١٥٧.
(٦) ١٥٢/ ٢٧٠.

الأموال - فإن ذلك أمرٌ لم أحكم أنا فيه برأيي ولّا وَليتُه هوىً مني، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله ﷺ قد فُرغ منه، فلم أحتج إليكما فيما قد فرغ الله من قسمته وأمضى فيه حكمه، فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبى، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر»[١].

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾:

«جاء بالحسنة وبالسيئة» دون «أتى أو عمل» تعبير قاصد إلى خاصة معناه، فقد يأتي بحسنة ثم تُحبَط، أو يأتي بسيئة ثم تغفر أو تكفَّر، فقد يعني «جاء بالحسنة أو السيئة» جاء ربه في حياة الحساب وبدايتها الحياة البرزخية، جاء ومعه حسنة أو سيئة، وهما وصفان لمحذوف معروف بقرينة المقام وهو «العقيدة والعملية» فإنهما الباقيتان مع الإنسان حتى الموت، وأما النية فلا تبقى حتى يجاء بها، اللهم إلّا النية الحسنة حيث تبقى بفضل الله، وأما النية السيئة فلا جزاءً لها إلّا مثلها[٢] وهو نية السيئة دون واقعها، وهذه قضية المماثلة بين النية وجزاءها عدلاً: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾[٣] والنية السنية ليست مما يكسب إلّا بعقيدة سيئة أو عملية سيئة وليست النية مكسوبة، وإنما هي كاسبة لعقيدة أو عملية، ثم لا مماثلة بين

---

(١) ٢٠٣/ ٣٩٧.

(٢) الدر المنثور ٣: ٦٤ - أخرج جماعة عن ابن عباس عن النبي ﷺ فيما يروى عن ربه «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له عشر إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ومن هم بسيئة. . .، وفيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: إذا همّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة وإذا عملها فاكتبوها بعشر أمثالها وإذا همّ بسيئة فلا تكتبوها فإن عملها فاكتبوها بمثلها فإن تركها فاكتبوها له حسنة ثم قرأ الآية، أقول: وقد تواتر عن النبي ﷺ أن نية السيئة وهمها ليس لها جزاء.

(٣) سورة يونس، الآية: ٢٧.

سيئة الجزاء ونية السيئة، وهنا ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ تُطارد واقع الجزاء بنية السيئة، كما تطارد عدم الجزاء أو عدم المماثلة بين الحسنة وجزاءها، و﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فضل فوق العدل، وآيات عدة مثل ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١) تحصر سبب الجزاء بالعمل، وليست النية عملاً إنما هي نية العمل، كما العمل ليس نية إنما هو العمل بالنية، ومهما كانت العقيدة عمل القلب ولكن ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢) قد لا تشملها، فإنما اشتراط العمل بكونه صالحاً كما في ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾(٣) يربط صلاح العمل بصالح العقيدة والنية.

وترى كيف يذكر ﴿عَشْرُ﴾ و﴿أَمْثَالِهَا﴾ مذكر؟

ذلك لأن هناك مضاف محذوف هو «حسنات» تعني حسنات ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ جزاءً فضلاً كما في «مثلها» فإنها ﴿سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾(٤) جزاءً عدلاً.

وأولى ما نزلت بشأن مزيد الجزاء في الحسنة هي ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾(٥) وقد قررت آيتنا ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾(٦) بـ ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ كضابطة تحلّق على كلّ الحسنات(٧) ومنها النيات فضلاً على فضل، «ومثلها» في السيئة باستثناء النيات عدلاً في الجزاء ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ عدلاً وفضلاً، ومن ثم آيات أخرى تقرر ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ في بعض الموارد كالإنفاق

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٣٩.
(٢) سورة النمل، الآية: ٩٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٤٠.
(٥) سورة النمل، الآية: ٨٩.
(٦) سورة النمل، الآية: ٨٩.
(٧) نور الثقلين ١ : ٧٨٤ عن المجمع روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩] قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: رب زدني فأنزل الله سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

الصالح بسبعين ضعفاً لـ ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ ومزيد، فـ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١) فلا حدَّ في فضل الله لمضاعفات الجزاء على الحسنات، ولكن السيئات فأكثر الجزاء عليها مثلها عملاً بعمل وعلى قدره.

وقد تُعرِّفنا معرَّفة الحسنة والسيئة أية ليست أية حسنة لها عشر أمثالها حيث قد يزداد عليها وقد ينقص عنها، أم ولا تقبل لخروجها عن جادة التقوى، ولا أية سيئة يجزى مثلها فقد ينقص عنها جزاءها أو يعفى عنها بمكفراتها فـ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(٢) أم تبدل حسنة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾(٣).

فهذه ضابطة مقررة كأصل تجري حسب الضوابط الأخرى في تقدير الحسنات والسيئات، فلو قيل «من جاء بحسنة أو سيئة» لخيِّل إلينا تحليق الضابطة دون استثناء، كما يخيَّل حاكمية العدة فيهما على العُدة لهما، أن حسنة واحدة هي بعشر كيفما كانت، وسيئة واحدة بواحد كيفما كانت، فصاحب حسنة صغيرة له عشر وإذا أتى بسيئة كبيرة فله واحد، وبالموازنة ترجح حسنته على سيئته!.

ذلك وكما أن «الحسنة والسيئة» هما الأصيلتان، فليست عشر أمثالها لكلّ عشر حتى لا تنتهي، إنما هي الحسنة التي جاء بها لا العشر التي يجازى بها ثواباً فإنها جزاءَ الحسنة وليست نفسها، فلا تسلسل في ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

ذلك، وجزاء سيئة بمثلها مربوطة بعدم الغفر بعضاً أو كلا بمكفرات

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٤.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

مسرودة في القرآن، وأما الحسنة غير الحابطة فلها لأقل تقدير عشر أمثالها، عقيدة وعملية ونية، بل وإذا نوى سيئة ثم لم يعملها وهو قادر على العمل فهذه محسوب بحساب الحسنة(١) فله - إذاً - عشر أمثالها، وأما إذا تركها إذ لم يقدر عليها فلا ثواب هنا ولا عقاب(٢) لأنها خارجة عن «الحسنة والسيئة» معاً.

ومن اللطائف المستفادة من هذه الضابطة أن «من صام ثلاثة أيام من كل شهر فذلك صيام الدهر»(٣). . . . .

---

(١) الدر المنثور ٣: ٦٤ - أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: من جاء بالحسنة الآية قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول: إذا همّ العبد بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة وإذا همّ بسيئة ثم عملها كتبت له سيئة.

(٢) الدر المنثور ٣: ٦٤ - أخرج أبو يعلى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: من همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشر ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء فإن عملها كتبت عليه سيئة.

(٣) الدر المنثور ٣: ٦٤ عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ من صام ثلاثة أيام من كلّ شهر فذلك صيام الدهر، فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

أقول هذا وحي الكتاب مصدقاً لوحي السنة حيث الرسول لا يقول إلّا بما يوحي، وفيه عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال أخبر رسول الله ﷺ أني أقول: والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت فقلت له قد قلته يا رسول الله قال: فإنك لا تستطيع ذلك صم وأفطر ونم وقم وصم من الشهر ثلاثة أيام فإن الحسنة بعشر أمثالها وذلك كصيام لدهر.

وفي نور الثقلين ١: ٧٨٤ في الكافي عن القمي قال أمير المؤمنين عليه السلام: صيام الصبر وثلاثة أيام من كلّ شهر يذهبن ببلاء الصدر وصيام ثلاثة أيام من كلّ شهر صيام الدهر أن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ومن اللطائف ما في الدر المنثور ٣: ٦٤ عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام لأن الله تعالى قال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وما في أمالي الطوسي عن أمير المؤمنين عليه السلام الناس في الجمعة على ثلاثة منازل رجل شهدها بإنصات وسكوت قبل الإمام وذلك كفارة لذنوبه من الجمعة إلى الجمعة الثانية وزيادة ثلاثة لقول الله تعالى، ومنها ما في الدر المنثور ٣: ٦٤ عن أبي ذر قلت يا رسول الله ﷺ=

و«الويل لمن غلبت آحاده أعشاره»(١).

ذلك، ولكن ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(٢) فمن يسرق مالاً مرة ثم يقسمه على من يشاء ليس إنفاقه لكلٍّ يُحسب عشراً وسرقته واحدة، بل وإنفاقه سيئة على سيئة.

وكما الحسنات درجات فالسيئات أيضاً دركات، ولا تُقابَل السيئة بواحدة الحسنة بعشر أمثالها إلّا في موازنة بينهما، فليس من يزني مرة ثم

= علمني عملاً يقربني من الجنة ويباعدني من النار، قال: إذا عملت سيئة فاعمل حسنة فإنها عشر أمثالها، قلت يا رسول الله ﷺ: لا إله إلّا الله من الحسنات؟ قال: هي أحسن الحسنات، وفيه عن ابن عمر وأن النبي ﷺ قال: خصلتان لا يحافظ عليهما عبد مسلم إلّا دخل الجنة هما يسير ومن يعمل بهما قليل يسبح الله دبر كلّ صلاة عشراً ويحمد عشراً ويكبر عشراً فذلك خمسون ومائة باللسان وألف وخمسمائة في الميزان ويكبر أربعاً وثلاثين إذا أخذ مضجعه ويحمد ثلاثاً وثلاثين ويسبح ثلاثاً وثلاثين فذلك مائة باللسان وألف في الميزان وأيكم يعمل في اليوم والليلة ألفين وخمسمائة سيئة».

(١) تفسير الفخر الرازي ١٤: ٩ روى أبو ذر أن النبي ﷺ قال: إن الله تعالى قال: الحسنة عشر أو أزيد والسيئة واحدة أو عفو فالويل لمن غلب آحاده وأعشاره.

وفي نور الثقلين ١: ٧٨٤ ومعاني الأخبار عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يقول: ويل لمن غلبت آحاده فقلت له وكيف هذا؟ فقال: أما سمعت الله عزّ وجلّ يقول: ﴿مَن جَآءَ...﴾ [الأنعام: ١٦٠] فالحسنة الواحدة إذا عملها كتبت له عشراً والسيئة الواحدة إذا عملها كتبت له واحدة فنعوذ بالله ممن يركب في يوم واحد عشر سيئات ولا يكون له حسنة واحدة فتغلب حسناته سيئاته.

وفيه عن تفسير القمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما أعطى الله تعالى إبليس ما أعطاه من القوة قال آدم عليه السلام يا رب سلطت إبليس على ولدي أجريته فيهم مجرى الدم في العروق وأعطيته مما أعطيته فمالي ولولدي؟ فقال: لك ولولدك السيئة بواحدة والحسنة بعشر أمثالها قال رب زدني قال: أغفر ولا أبالي، قال: حسبي، أقول: لا أبالي هنا تعني ما لم يناف العدل فاغفر ما هو قضية الفضل فوق العدل لا دون العدل.

وفيه في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: من نوى الصوم ثم دخل على أخيه فسأله أن يفطر عنده فليفطر وليدخل عليه السرور فإنه يحتسب له بذلك اليوم عشرة أيام وهو قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

يكبر الله مرة تزيد حسنته على سيئته، فأين الزنا في ميزان السيئات من لفظة التكبيرة في ميزان الحسنات، فقد لا توازي مائة حسنة سيئة واحدة فـ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[1]، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[2].

فطالما الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة وإلى ألف ألف[3] كذلك قد تكون سيئة واحدة وهي بواحدة أثقل في الميزان من عشرات الحسنات.

وطالما يزيد عديد الجزاء على الحسنة أضعافاً عشرةً على السيئة، ولكن كلٌّ بحسابه وعلى قدر ثقله دونما فوضى جزاف.

أترى - بعد - أن عشراً من التكبيرات توازي فرية واحدة على الله ورسوله، وهذه بواحدة وتلك بعشرة؟! كلّا، إنما يحاسب كلٌّ على قدره عُدّة مهما اختلفت العِدَّة أصلاً وجزاء، فليست المماثلة بين السيئة وجزاءها إلّا بمعنى الجزاء الوفاق عديداً ومديداً، فقد يجزى على سيئة واحدة طالت ساعة في عشرات من السنين اعتباراً بثقل السيئة في مديدها رغم وحدتها في عديدها، أم يجزى على سيئة واحدة طالت شهراً في ساعة واحدة، فليست ﴿مِثْلِهَا﴾ بمماثلة الزمان إنما هي مماثلة الثقل في الميزان، دون الحسنة التي يجازى بها عشر أضعافها.

وأما الخلود المؤبد لأهله، بأن الأبدية في العذاب ليست مماثلة للسيئة المحدودة بعديدها ومديدها، فقد نعتقد في تلك الأبدية حسب البراهين القاطعة أن لها نهاية، فلا تعني الأبدية لأهل النار إلّا أنهم يعيشونها ما

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٩.

(٣) الدر المنثور ٣: ٦٥ - أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ كلّ حسنة يعملها العبد المسلم بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف «وفيه عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله ليعطي بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة ثم قرأ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

دامت مشتعلة كما يستحقون، ثم يأتي يوم لا نار فيه ولا أهل نار قضية أصل المماثلة بين السيئة وجزاءها، حيث لا يعذبون إلّا محدوداً بحدود السيئة، محدَّداً بحدِّ العدل جزاءً وفاقاً ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

فمن المماثلات ما هي معروفة لدينا ومنها غير معروفة حيث نجهل مديد السيئة مهما عرفنا عديدها، فالأحكام الجزائية في شرعة الله وفي يوم الجزاء ليست لتتخطى ضابطة الجزاء الوفاق و«جزاء سيئة مثلها» حيث المماثلة في الاستحقاق هي قضية العدل ونص القرآن، وذلك هو الصراط المستقيم:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾:

﴿قُلْ﴾ إبرازاً باللسان ككامن الجنان، وإبرازاً بالأركان، بروزاً في مثلث القال والحال والفعال ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو صراط المنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، ولست فقط مهدياً إلى صراط مستقيم، بل و﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾[1] لأعلى قممه، حيث السالكون فيه درجات، فالسلوك فيه أيضاً درجات مهما كان الصراط المستقيم واحداً لا عوج له ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾[2].

وقد وصف ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هنا بـ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ هو إما مخفَّف «قياماً» كما يقال، فالصراط المستقيم في العبودية هو الطاعة القيام، قائمة على مدار الزمن الرسالي، مقيمة للميتات في طاعة غير الله إلى حياة طاعة الله، ففيه - إذاً - كافة القوامات والقيامات والقيم الصالحة كأكمل ما يمكن وجاه الله تعالى كما يحب ويرضى.

(١) سورة يس، الآيتان: ٣، ٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

فـ ﴿قِيَمًا﴾ وهي القيام تحلّق على كلّ قوامات الدين وقياماته وقيماته وإقاماته، من إقامة الوجه لدين الفطرة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١) ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾(٢) والقيام لله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾(٣) وإقامة الدين: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(٤) والاستقامة فيه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾(٥) ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾(٦) ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾(٧).

أم ﴿قِيَمًا﴾ جمع «القيمة» أن ذلك الصراط المستقيم دينٌ يجمع في نفسه كافة القيم الصالحة للإنسان وجاه الرب ووجاه كافة الحيويات البالغة الإنسانية، وهذا هو الأظهر من مخفف القيام، فإنه في نفسه خفيف لا يحتاج إلى تخفيف وكما يذكر ﴿قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾(٨) ولا يصح مثل هذا التخفيف في موضع اللبس كما هنا، فهو - إذاً - ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ تجمع كافة القِيَم في نفسه دون إبقاء، ولا ضير في توصيف مفرد الدين بجمع القيم حيث الدين هو في المعنى جمعية القِيَم، وتعاكسهما «هم العدو» اعتباراً بوحدة العداوة في جمعيتهم.

إذاً فدين القرآن دين قِيَم حيث يضم في دفتيه كافة القيم القيمة في توجيهاته دون إفراط ولا تفريط، فإن فيه تبيان كلّ شيء يحتاجه المكلفون إلى يوم الدين.

﴿دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهذه الملة هي ملة

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الروم، الآية: ٤٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٥) سورة فصلت، الآية: ٣٠.
(٦) سورة الشورى، الآية: ١٥.
(٧) سورة فصلت، الآية: ٦.
(٨) سورة المائدة، الآية: ٩٧.

التوحيد، فتوحيد الطاعة والطاعة التوحيدية عبارة أخرى عن ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ وكلّ القيم الصالحة تتبنّى قيم التوحيد وهو ملة إبراهيم حنيفاً.

وطالما الملة التوحيدية درجات ولكنها تتوحد في ﴿صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وإن كان سالكوه درجات، فهدي محمد ﷺ إلى ذلك الصراط لا يعني إلّا أصل سلوكه فيه، دون القمة السلوكية في ملة التوحيد الخاصة بسماحته، المخصوصة بساحته، فاتباعه ملة إبراهيم ليس إلّا إتباعه لأصلها التي قررها الله لإبراهيم، وليس اتباعه في قدره المقدر لإبراهيم، فإن محمد ﷺ هو أوّل العابدين: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[1] [2] ولقد «كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: أصبحنا على فطرة الإسلام وحكمة الإخلاص ودين نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين وإذا أمسى قال مثل ذلك»[3].

ذلك، والمصداق الثاني للصراط المستقيم هو الإمام علي عليه السلام حيث ربّاه بتربيته وجعله بإذن الله على صراطه وكما كان يقول له عليه السلام: «من أحبك لدينك وأخذ بسبيلك فهو ممن هدي إلى صراط مستقيم»[4].

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾:

ذلك المربع يعني توجيه كان الإنسان ككلّ إلى التوحيد، موحداً في ﴿صَلَاتِي﴾ موحداً في ﴿وَنُسُكِي﴾ وهي كافة العبادات بل وكلّ الاتجاهات، وموحدا في ﴿وَمَحْيَايَ﴾ حياةً وزمانها ومكانها وكلّ مكانتها، وموحدا في

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

(٢) نور الثقلين ١: ٧١٥ في تفسير العياشي عن النبي ﷺ حديث طويل يقول فيه وقد ذكر إبراهيم عليه السلام: دينه ديني وديني دينه وسنته سنتي وسنتي سنته وفضلي فضله وأنا أفضل منه.

(٣) الدر المنثور ٣: ٦٦ - أخرج أحمد وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن أبزى عن أبيه قال: . . .

(٤) نور الثقلين ١: ٧٨٥ في أمالي الشيخ الطوسي بإسناده إلى النبي ﷺ حديث طويل يقول فيه لعلي عليه السلام: . . .

﴿وَمَمَاتِي﴾ فكما أن حياتي مكرّسة ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كذلك ﴿وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ذلك، فقد تعني تكريس كلِّ الإمكانيات في كافة الواجهات في مربع الصلاة والنسك والحياة والممات ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إضافة إلى الإنباء أن ذلك كله لله بقدرته الطليقة:

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾:

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ في ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ المربع من كيان التسليم ﴿أُمِرْتُ﴾ حيث أمرني ربي ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ بين كلّ من أسلم ويسلم لرب العالمين: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾[1].

إذاً فمحمد ﷺ ﴿أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ على الإطلاق فيما أمر في مثلث الزمان، أولية طليقة في كيان الإسلام دون زمانه أو مكانه حيث سبقه مسلمون كثير.

ذلك، وكما لا نجد أوّل المسلمين في القرآن إلّا هو كما هنا وفي آية الزمر، فلا نجد في نوح إلّا ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[2] وفي إبراهيم ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3] و﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ...﴾[4] حيث يعني المعصومين الأربعة عشر في هذه الأمة وقد فضّلوا عليه وعلى أضرابه فضلاً عمن دونه بأنه ﴿أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ كما أنه أوّل العابدين ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[5] وترى ﴿قُلْ...﴾ هذا يخص الرسول ﷺ وذويه المعصومين عليهم السلام فحسب أم هي للمسلمين عامة؟.

---

(١) سورة الزمر، الآيتان: ١١، ١٢.
(٢) سورة يونس، الآية: ٧٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٣١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.
(٥) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

ذلك كله للمسلمين عامة كمسؤولية هامة لهم كلهم، اللهمّ إلّا ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ حيث الأولية الزمانية لا تناسب أياً منهم، وبأحرى الرتبية حيث سبقهم أولون كثير، وفوق الكلّ نبينا ﷺ المخصوص به ذلك المحتد القمة، السامقة العالية الغالية التي لا تسامى أو توازى، وهكذا نفسر ما يروى عنه ﷺ «بل للمسلمين عامة» في جواب الصديقة الطاهرة الزهراء سلام الله عليها[1].

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾:

أنا محمد ﷺ وقد رباني ربي أفضل من كافة المربوبين إذاً فـ: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فعلي أن أبغيه رباً قبل كلّ شيء كما مع كلّ شيء ولكنه أفضل من كلّ شيء، ولا ينفعني أن يعبده كلّ شيء وأنا تارك، إذ ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ فلو أن كلّ شيء ترك ربوبيته إلى ما سواه وأنا تارك كلّ شيء سواه فـ ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ دون من سواها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ كضابطة ثابتة في كلّ الحقول، حيث لا تحمل حاملة حمل أخرى، فلا يخفف أحد عن أحد ثقلاً بأن يحمله عنه إذ لا يشاطره حملاً، لأن كلّ إنسان في ذلك اليوم العصيب مشغول بنفسه ومفروح أو مقروع بحِملِه، وأما الشفاعة فليست هي من حقل الحمل لأثقال الآخرين، بل هي التماس من الله أن يعفو عمن يشاء ويرضى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[2].

---

(١) الدر المنثور ٣: ٦٦ - أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ يا فاطمة قومي فاشهدي أضحيتك فإنه يغفر لك بأول قطرة تقطرين دمها كلّ ذنب عملتيه وقولي: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] قلت: يا رسول الله ﷺ هذا لك ولأهل بيتك خاصة فأهل ذلك أنتم أم للمسلمين عامة؟ قال: بل للمسلمين عامة.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ فيما عبدتم من مختلف المعبودين ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إنباء علمياً بعدما تجاهلتم، وإراءة لما جهلتهم، وتحقيقاً لواقع ما بغيتم وابتغيتم من دون الله.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾:

﴿جَعَلَكُمْ﴾ أنتم المكلفين ككلّ ﴿خَلَائِفَ﴾ يخلف بعضكم بعضاً في ﴿الْأَرْضِ﴾: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ...﴾(١): ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ...﴾(٢): ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾(٣).

ذلك ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ في القابلية والفاعلية العقلية والعلمية والبدنية والاقتصادية أماهيه من تفاضلات خِلقية أم على ضوء المساعي والاستحقاقات ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ حيث الوُجد وسواه بلية في حقل المسؤولية تطبيقاً وتحليقاً فيها ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ في موضع النكال والنقمة ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في موضع العفو والرحمة ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾(٤).

ذلك، وهنا ﴿خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ تعم خلافة النسل الأخير من الإنسان خليفة للأنسال المنقرضة منه وكما «قال ربك ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٥) ثم خلافة كلّ قرن عن قرن وقرون قبله، وخلافة عمّن تبقى مع نوح عن

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦٩.
(٣) سورة يونس، الآية: ٧٣.
(٤) سورة الحشر، الآية: ١٨.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

الذين غرقوا، ومن ثم خلافة كلّ أمة رسالية عن أمة قبلها، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ وتلك الخلافة في مربعها وهذا الرفع درجات ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من قوة وشِرعة، وقد اختصت الشرعة بما آتاكم في ﴿. . . لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

٦

سورة الأعراف

سُورَةُ الأَعْرَاف

مكيّة وآياتها ٢٠٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ
وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن
دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا
بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ
إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ
﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾

لقد سمُيت «الأعراف» بها، لأنها سيدة الموقف البارز لرجال الأعراف، حيث هم شؤونهم بارزة بالموقف الأعلى يوم القيامة على الأعراف، تعريفاً بفريقي الجنة والنار، وتقريراً لمصير كلّ بأمر الله، ولأنها برجالها لم تذكر في سائر الذكر الحكيم، كما هم القمة العليا بين الرساليين المعصومين، فهم منقطعو النظير. ذكراً في القرآن ومحتداً عند الرحيم الرحمان بمن يرأسهم من هذا الرسول ﷺ.

ذلك، إضافة إلى سائر الأعراف في مختلف حقول المعرفة الأعرافية المتميزة في هذه السورة عما سواها، وكما هي طبيعة الحال في كلّ سورة أنها تختص بميِّزات ومواقف خاصة ليست فيما سواها كما هي فيها.

ندرس على أعراف الأعراف موضوع العقيدة بمختلف حقولها، ومختلف العقليات المأمور بها، ومختلف القابليات والفاعليات والواقعيات في مسارحها.

وهنا من مواضيع العقيدة - البارزة - عرضها عبر التأريخ الإنساني ككلّ، في مجال الرحلة الإنسانية ابتداءً بالجنة الابتلائية الدنيوية، وانتهاءً إليها الأخروية لمن عمل لها، عرضاً لموكب الإيمان الوضيء من لون آدم إلى محمد.

رحلة طويلة للغاية، تقطعها السورة مرحلياً في مقاطع عدة، واقفة عند المواقف الرئيسية، البارزة المعالم منها، درساً عابراً لمعتبر، تذكراً لمدّكر.

ومن مواقفها الرئيسية المعرفية تبيان واقع أحكام الفطرة بصيغة الحوار ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ. . .﴾[١] عبارة أخرى من آية الفطرة في الروم.

أعراف وأعراف ندرسها على ضوء الأعراف عقيدية وأحكامية، آفاقية وأنفسية، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وملامح السورة تؤيد نزولها كما هيه، أم ولأقل تقدير أنها مؤلفة كسائر التأليف القرآني زمن الرسول ﷺ وقد كان يقرؤها في صلواته[٢].

﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾:

مقطع من الحروف المقطّعة القرآنية، التي هي برقيات رمزية خاصة بمهبط الوحي و«هي مفاتيح كنوز القرآن» لا نعرف منها معنى إلّا ما عرفه الله

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٢) الدر المنثور ٣: ٦٧ - أخرج سمويه في فوائده عن زيد بن ثابت قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بطولي الطولين ﴿الٓمٓصٓ﴾، وعنه أنه ﷺ قرأ في المغرب بالأعراف في الركعتين جميعاً، وأخرج البيهقي في سننه عن عائشة أن النبي ﷺ قرأ سورة الأعراف في صلاة المغرب فرقها في ركعتين.

لنا أو أهلوها المعصومون عليهم السلام، ابتداءً برأس الزاوية الرسولية، وانتهاءً إلى الزاوية الأخيرة الرسالية.

لقد قيلت في ﴿الٓمٓصٓ﴾ أقوال - كما في غيرها - وغيلت أغوال، لا تستند إلى ركن وثيق، وإذا عنت فيما تعنيه معانٍ بحساب حروف الأعداد(١) فليست فوضى جزاف أن يحسبها كلٌّ كما يحب ويهوى، إنما هي حسابات خاصة بين الله ورسول الوحي ورسالته.

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١ في معاني الأخبار بسند أتى رجل من بني أمية - وكان زنديقاً - جعفر بن محمد عليه السلام فقال له: قول الله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ أي شيء أراد بهذا وأي شيء فيه من الحلال والحرام، وأي شيء مما ينتفع به الناس؟ قال: فاغتاظ من ذلك جعفر بن محمد عليه السلام فقال: أمسك ويحك! الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون كم معك؟ فقال الرجل: مائة وإحدى وستون، فقال له جعفر بن محمد عليه السلام : فإذا انقضت سنة إحدى وستين ومائة ينقضي ملك أصحابك، قال: «نظر فلما انقضت إحدى وستون ومائة عاشورا دخل المسودة الكوفة وذهب ملكهم».

أقول: هذا طرف من الطرف «المص» بحساب خاص وليس فوضى جزاف.

وعن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن علي بن رئاب عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن حيي بن أخطب وأبا ياسر بن أخطب ونفراً من اليهود من أهل نجران أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا له: أليس تذكر أن فيما أنزل إليك «الم»؟ قال: بلى، قالوا: أتاك بها جبرئيل من عند الله؟ قال: نعم، قالوا لقد بعث الله أنبياء قبلك ما نعلم نبياً منهم ما مدة ملكه وما أكل أمته غيرك! قال: فأقبل حيي بن أخطب على أصحابه فقال لهم: الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة فعجب ممن يدخل في دين مدة ملكه وأكل أمته إحدى وسبعون سنة، قال: ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: يا محمد هل مع هذا غيره؟ نعم، قال: هات، قال: «المص» قال: هذا أثقل وأطول، الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذا مائة وإحدى وستون سنة، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال: هات قال: «الر» قال: هذا أثقل وأطول، الألف واحد واللام ثلاثون والراء مائتان فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال: هات قال «المر» قال: هذا أثقل وأطول، الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والراي مائتان، قال: فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم قال: قد التبس علينا أمرك فما ندري ما أعطيت ثم قاموا عنه ثم قال أبو ياسر لحيي أخيه وما يدريك لعل محمداً قد جمع هذا كله وأكثر منه فقال أبو جعفر عليه السلام : إن هذه الآيات أنزلت =

وهنا ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ بعد ﴿الٓمٓصٓ﴾ مما تلمح أن المخاطب بها خصوص الرسول ﷺ، ثم ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ تلميحة أخرى أن ﴿الٓمٓصٓ﴾ تحمل - فيما تحمل - طمأنة لخاطره الشريف أنه ماضٍ في سبيله، مجتازاً عقباتها وعقوباتها، بفضل من الله ورحمته.

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾:

﴿الٓمٓصٓ﴾ هو ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ وهذا القرآن ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ وقد يعني ماضي النزول في ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾[1] نازلَ محكمه ليلة القدر، إلى نازل تفصيله في مثلث الزمان، تلحيقاً لمستقبله بماضيه لتحقق وقوعه كماضيه، فنازل الثلاث من مراحل النزول يزيل عنه كلَّ حرج، وفي ﴿الٓمٓصٓ﴾ طمأنة رمزية بهذه البشارة السارة، أم - فقط - نازل ماضيه حتى الآن حيث لا يكلف إنذاراً وذكرى إلّا بما نزل بالفعل.

﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ وترى بالإمكان كائن الضيق من نازل القرآن في صدره المنشرح بما شرحه الله قبل نزول القرآن ليأهل له، ومنذ بزوغ نزول القرآن؟: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾[2]!، ولقد شرح الله صدره ﷺ قبل نزول القرآن لينزل عليه منشرحاً، وشرحه بهذا القرآن ما لم يكن يشرح بغيره، فكيف ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ تعني واقع ذلك الحرج!.

هنا في مثلث الحرج المحتمل نفسياً، وبلاغياً كأصل، وبلاغياً أمام ردود الفعل من المنذرين، لا موقع للحرج المنهي إلّا الثالث فإن ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ من

= منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأُخر متشابهات وهي تجري في وجوه أُخر على غير ما تأول به حيي وأبو ياسر وأصحابه.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٢) سورة الشرح، الآية: ١.

ربك يطمئنه أنه وحي الرحمن وليس من وحي الشيطان أم خليط منهما ودَخَل من دَجَل حتى يتحرج في نفسه، فغير النازل من الله يحرِّج في نفسه لمكان الخطأ، فـ: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[1]، ﴿حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ مهما كان ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ دون أي حرج أو مرج.

فـ ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ هي ذات تعلقين ثانيهما ﴿حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ مهما كانت ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ذات تعلق واحد وهو ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ. . . وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقد تحتمل ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كـ ﴿لِتُنذِرَ﴾ أنها ذات تعلق ثان، حيث الصعوبات في سبيل ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ واقعة مهما كانت أقل من ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾.

إذاً فـــــ ﴿أُنزِلَ﴾ - ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ - ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وترى ما هو دور ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وغيرهم أحوج منهم إلى ذكرى، ثم وهو ذكرى للعالمين؟: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

ذكرى هنا هي كما ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3] تعني حاصلها، فمن يتذكر بالذكرى، أو يزداد ذكرى على ذكرى، فهو من المؤمنين، مهما اختلف إيمان أول عن إيمان ثان، فالأول حالة الإيمان حيث يفتش عنه، والثاني هالته بعد حالته حيث يزداد به ذكرى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

فطالما الإنذار شامل يحلّق على كافة المكلفين، ولكن لا دور للذكرى إلّا لمن ألقى السمع وهو شهيد فـ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢.
(٤) سورة الذاريات، الآية: ٥٥.

أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[١] فهو ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢].

فالذين كانت فيهم أجهزة الاستقبال للذكرى مفتوحة، كان القرآن لهم ذكرى معروفة، ثم الذين أغلقوا على أنفسهم هذه الأجهزة هو عليهم عمى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[٣].

فقد اختص الحرج المنهي عنه رفعاً أو دفعاً بما هو من قضايا الدعوة بملابساته أمام الناكرين، ولا سيما القوم اللدّ الذين كان يعيشهم منذ بزوغها.

وصحيح أنه ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾[٤] إلّا أن ملابسات هذه الدعوة - المليئة بالأشواك والأشلاء والعقبات - هي التي قد تُحرج الداعية فتُحوِجه إلى انشراح أكثر وانفتاح أوفر في استقبال هذه الدعوة الملتوية.

ذلك، لأن هذا الكتاب بتلك الدعوة الصارمة الصامدة، صدعاً بما فيه من الحق، ومواجهة للمرسل إليهم بما لا يحبون، ومجابهة لعقائد وتقاليد ورباطات جاهلية، ومعارضة لنظم وأوضاع، لذلك كله وما أشبه من ملابسات الدعوة، ليست طبيعة حال الداعية فيها إلّا حرج واقع ليس ليزول إلّا بتصبّر زائد، وصمود حائد، وتوفيق خاص من الله، و«إن الله تعالى لما أنزل القرآن إلى رسول الله ﷺ قال:

إني أخشى أن يكذبني الناس ويلثفوا - يكسروا - رأسي ويتركوه كالخبزة فأزال الله الخوف عنه بهذه الآية»[٥].

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٧.
(٢) سورة غافر، الآية: ٥٤.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٣٨.
(٥) نور الثقلين ٢: ٤ في مجمع البيان وقد روي في الخبر أن الله..

أم وحرج مستقبل في مستقبلات الدعوة عليه أن يطارده بتصبر وصمود بما وعده الله النصر: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾(١).

لذلك ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ لأنه ﴿كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من ربك، فالذي أنزله إليك هو حاسب كلّ حساباته، فخذ يا صاحب الدعوة الأخيرة مسيرك إلى مصيرك، ولا تتحرج في مواقفك، ولا تتخرَّج إلّا موفقاً محبوراً، فسر وعين الله ترعاك.

وهنا «لا يكن» نهي عن أن يكون، وليس نهياً عما هو كائن، فقد تعني كما تعنيه ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾(٢) في موسى، وفي أضرابها لأضرابه من الدعاة الرساليين، وبأحرى في هذا الرسول: ف ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُۥ﴾(٣).

و﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ...﴾(٤) وما أشبه، إعلاناً جاهراً في هذه الإذاعة القرآنية ألّا خمود ولا ركود ولا ارتجاع لهذه الداعية عن الدعوة، فليحسب الأعداء والمتاجرون كلَّ حساباتهم، ولييأسوا عن القضاء عليه بمختلف المكائد والمصائد.

ثم ولو كان هنا واقع لذلك الحرج - لو خلي الرسول وطبعه - فهو كما كان لموسى أمام الدعوة الفرعونية حيث ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي.. قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾(٥) والنهي عن هذا الحرج يعني الأمر بإزالته بما هو

---

(١) سورة غافر، الآية: ٥١.
(٢) سورة طه، الآية: ١٦.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٨.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٥.
(٥) سورة طه، الآيات: ٢٥-٣٦.

يسعى، وما يرجوه من الله، أم يعنيهما رفعاً ودفعاً، رفعاً لما كان، ودفعاً عما قد يكون من حرج في هذه السبيل الطويلة الملتوية الصعبة، فلقد نازلوه بضربات هدّامة وواصلوا الدعايات المحتالة المتواصلة في تكذيبه لحدٍّ كان ينوي أن يترك بعض ما أوحى الله فنزلت: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾[1] ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾[2] ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[3].

وفي الحق إن ذلك الحرج هو حجر عثرة لكلِّ داعية إلّا من عصمه الله وهداه، وقد أمر هذا الرسول العظيم بالصبر: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[4] والاستقامة ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[5].

فـهـــذا ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ... لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فاشدد شمرك، وتغاضّ عن إمرك في أمرك، فلا يمنعك عنه أي مانع، ولا يفت عضدك في صراعه أي رادع، سر فعين الله يرعاك.

ذلك كما و﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴿٢﴾﴾ مما يلمح أن ﴿الٓمٓصٓ﴾ تحمل - فيما تحمل - طمأنة لخاطر الرسول ﷺ أن دعوته ماشية ماضية مهما كثرت العراقيل أمامها.

إذاً فـ ﴿الٓمٓصٓ﴾ وهذا القرآن ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من ربك الذي رباك

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢.
(٢) سورة الحجر، الآيتان: ٩٧، ٩٨.
(٣) سورة النمل، الآية: ٧٠.
(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٧.
(٥) سورة هود، الآية: ١١٢.

بالقمة الرسالية، فلم يكن ليدعك وحدك تتواتر عليك الرزايا التي ترضّك، فالله ربك هو الذي ينصرك ويرضيك ويوهن مناوئيك.

«كتاب أنزل إليك.. لتنذر به وذكرى - فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى» فإنما هو الإنذار بالقرآن دون سواه، حقاً لرسول القرآن، إنذاراً بثابت الوحي الرباني.

فلا تجوز الدعوة الربانية إلّا بعلم الوحي دون سائر العلم، وذلك طليق للرسل وسائر المعصومين، وهو قدر المستطاع لمن سواهم.

ذلك، فليس الرسول ﷺ وحده هو صاحب المسؤولية في هذا الميدان، وإنما هو المسؤول الأول ما كان حياً، ثم الذين يحملون رسالته إلى يوم الدين، طولَ الزمان وعرضَ المكان، فإن الإسلام ليس حدثاً تأريخياً حصل مرة ثم مضى، بل هو - قضية خلوده على مدار الزمن - مواجهة دائبة للمكلفين أيّاً كانوا وأيان إلى يوم الدين، وعلى حَملَة هذه الرسالة - معصومين وسواهم - مواصلة الدعوة الصابرة الصامدة أمام كافة الجاهليات، غابرة متأخرة، وحاضرة متحضرة، حركة متواصلة وسبحاً طويلاً لاستنقاذ البشرية من مستنقعات الجاهلية الجهلاء:

﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾(١) ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ...﴾(٢).

ولقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء ذلك الدين المتين، وانتكست البشرية إلى جاهلية هي أعرق وأحمق من الجاهلية الأولى، حيث شملت كلَّ جوانب الحياة دون إبقاء، فإنها جاهلية علمية علمانية متحضرة تخيّل إلى المجاهيل أنها تقدّمية بيضاء، رغم أنها رجعية سوداء، ضاربة أطنابها في كلِّ

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٢.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

أرجاء الأرض بكلٍّ جنبات الحياة، فلا بدّ من كفاح صارم قدر المستطاع، ويقدر ما اتسعت هذه الجاهلية في وجه الشرعة القرآنية بين أغارب وأقارب.

ولقد تكفي الدعوة القرآنية صداً لكلِّ الهجمات الجاهلية بكلٍّ معداتها المتحضرة فإنه كتاب الخلود: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ...﴾(1)؟.

ذلك، وهنا حرج آخر داخل في النهي هو الحرج عما أنزل إليه إذا كان باطلاً أم خليطاً من الحق والباطل، ولأنه ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من ربك، تأكيداً جاهراً أمام العالمين لكي يعلموا على علمه ﷺ أنه كتاب لا يحرِّج الدعية في الدعوة.

فعصمة الداعية إلى عصمة مادة الدعوة هما يعصمانه عن أي خطأ قصوراً أو تقصيراً، ثم عصمة الداعية عن أي تقصير، على عدم عصمته عن قصور غير مقصر، تعصمه عن كثير من الأخطاء.

فأما إذا كانت مادة الدعوة غير معصومة، أم هي معصومة والداعية مقصر أو قاصر بتقصير، فهنالك الطامة الكبرى، ولذلك نرى تأكيد الأمر بالشورى من الرعيل الأعلى لربانيّ الأمة: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾(2) حتى يجبروا عدم العصمة للدعاة غير المعصومين، وهنا «للمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد» إذا كان خطأ قضية عدم العصمة فقط، دون الخطأ القاصر عن تقصير.

ففي مثلث الحرج لا يُعنى منه حرج صدره من الوحي، بل هو حرج في الدعوة تأثيراً، ولها مادة، فإن مادة الدعوة معصومة، والداعية في دعوته على عين الله ورعايته.

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.
(2) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

ثم المسؤولية في حقل الدعوة القرآنية نذارة وذكرى، ليست - فحسب - على عواتق الدعاة، والمدعوون عليهم مسؤولية الإقبال والتقبل لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى - إذاً ف :

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ :

هناك ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أنت كداعية، بعد ما يصنعك الكتاب كأفضل صنع في محط الدعوة، وهنا ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كمدعوين، ونازل الكتاب بنفسه في أيّ من منازله، هو بنفسه حجة لربانيته مصدراً وصدوراً، للداعية والمدعوين به، حجة بالغة بنفسه دون حاجة إلى إثباتات أخرى وتأييدات، فإنه رأس زوايا الحجج الربانية على مدار الرسالات بأسرها.

فقضية اتّباع الله - الأولى - هي اتّباع ما أنزل إليكم من ربكم، توحيداً عملياً بعد العقيدي منه.

وهنا ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ قد تعني مع من دون الكتاب من دون الله، لمكان ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ فاتبعوا الرب فيما أنزله ولا تتبعوا من دون الرب رباً، ولا من دون ما أنزله نازلاً، من أولياء غير الله وغير كتاب الله.

إذاً فاتباع من دونه بكتابه من أولياء عملياً يصطدم وعقيدة التوحيد، فإنها ليست - فقط - تصوراً قاحلاً عن مظاهر، إنما هي حقيقة تحلّق على كلّ جنبات الحياة ظاهرة وباطنة.

فولاية الطاغوت وعبادته بكتاباته لا تعني - فقط - تأليهها، بل واتباع أحكامها مهما خيل إليه أنه موحد لله لا يشرك به شيئاً ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ حق الاتباع في حقله حيث يخيل إلى مجاهيل أن العقيدة الصالحة هي الكافية مهما تخلفت طقوس وأعمال عما يرسمه المعبود الحق.

ذلك «ففي اتباع ما جاءكم من الله الفوز العظيم وفي تركه الخطأ المبين»[١].

وهنا ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾ يحلق على كافة الاتباعات بأسرها للشرعة القرآنية، علمية وعقيدية وعملية ودعائية، قفْواً على آثارها دون إبقاء ولا استثناء.

فالولاية التوحيدية لله هي ولاية اتباعه في شرعته ككلّ أصولاً وفروعاً، دون تشطير البلد شطرين وأخذ العصا من جانبين، اكتفاء في ولاية الله بمتخيّل العقيدة، ثم الأعمال تابعة لسائر الأولياء ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾! ﴿قَلِيلًا﴾ تذكركم و﴿قَلِيلًا﴾ الذي تذكرونه من الحق، اعتباراً بعنايتي الموصول والموصوف في ﴿مَّآ﴾ ومن قلة التذكر اتباع سائر الحجج اللجج، غامرة في التيه، بعيدة عن هدي القرآن بما فيه، فكلّ مستند غير ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ خارجة عما أنزل الله، داخلة في «من دونه من أولياء» من إجماعات وشهرات وقياسات واستحسانات واستصلاحات، أمّا هو آت من غير ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، كما وكل إله من دون الله طاغوت.

فهؤلاء الذين يفتون بغير ما أنزل الله أم ضده هم أولياء من دون الله، فاتّباعهم خروج عن توحيد الله إلى الإشراك بالله أو الإلحاد في الله.

ولئن قيل: إذاً فاتباع السنة فيما لا توافق القرآن ولا تخالفه، هو أيضاً خروج عن التوحيد الحق؟ ولا يستغنى عن السنة فيما لا نص له من الكتاب!.

قيل: السنة القطعية هي أيضاً مما أنزل الله مهما كان على هامش الوحي القرآني، فمما أنزل الله هو فرض طاعة رسول الله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ...﴾[٢] ولا تعني طاعة الرسول بعد طاعة الله إلّا طاعته في

---

(١) نور الثقلين ٢: ٤ في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال أمير المؤمنين في خطبته: قال الله: «اتبعوا..» ففي اتباع...

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

سنته الجامعة غير المفرّقة، فللّه الولاية الطليقة في كلِّ حقولها، ولكتابه والرسول ولاية شرعية طليقة لأنهما من الله، ثم لا ولاية طليقة بعد الله وكتابه ورسوله والرساليين المعصومين بعده.

إذاً فـ ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ تعم إلى نازل القرآن نازل السنة القطعية، وإلّا لكان صالح التعبير «اتبعوا الكتاب» فالنازل من ربكم هو واجب الاتباع من أصل الكتاب وفرع السنة، دون شتات الروايات المخالفة للقرآن، أم غير ثابتة الصدور.

ذلك، فهذا السلب ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ بعد ذلك الإثبات ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ يحصران الاتباع المسموح في شرعة الله بما أنزل الله، المحصور في الكتاب والسنة القطعية، تمثيلاً لكلمة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1].

ثم ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾: الله وكتاب الله، ﴿أَوۡلِيَآءَۗ﴾ تنفي أية ولاية ربانية عن سائر الأرباب وسائر الكتابات، فكما أنه ولي المؤمنين، كذلك - وبأمره - كتابه وليهم الوحيد بين الكتابات.

فها هي قضية دين الله - الأساسية - إنه إما اتباع خالص لما أنزل الله إسلاماً - فقط - لله، إفراداً له بالحاكمية الطليقة، وإما اتباع الأولياء من دونه إلحاداً فيه، أو إشراكاً به، أم جعلاً للبلد شطرين: عواناً بين التوحيد والإشراك، وهذا الثالوث خارج عن اتباع ما أنزل الله، داخل في اتباع من دونه من أولياء.

ولأن المحاولة ضخمة فخمة، فقد يمضي السياق يهزُّ الضمائر، ويوقظ السرائر، ويرجُّ جِبلّات الأجيال الشاردة عن دين الله، السادرة في الجاهلية رجّاً عنيفاً، عرضاً لمصارع الغابرين من المكذبين:

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٣٥.

وهنا في خطبة لعلي عليه السلام معتبَر لمعتبِر، تحذيراً عن ترك الاتباع لما أنزل الله:

«أما بعد فإن الله لم يقصم جباري دهر قط إلّا بعد تمهيل ورخاءٍ، ولم يجبرُ عظم أحدٍ من الأمم إلّا بعد أزْلٍ وبلاءٍ، وفي دونِ ما استقبلتم من عتْبٍ، وما استدبرتم من خطب معتَبر، وما كلّ ذي قلب بلبيب، ولا كلّ ذي سمع بسميع، ولا كلّ ذي ناظر ببصير - فيا عجباً وما لي لا أعجب من خطاء هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها، لا يقتصمون أثر نبي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفون عن عيب، يعملون في الشبهات، ويسيرون في الشهوات، المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المبهمات على آرائهم، كأن كل امرئ منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرَى بعُرىً ثقات، وأسباب محكمات»[١].

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنا أوّل وافد على العزيز الجبار يوم القيامة، وكتابه وأهل بيتي ثم أمتي، ثم أسألهم ما فعلتم بكتاب الله وبأهل بيتي[٢].

والأمة الإسلامية برمتها شيعة وسنة تاركة للثقلين، فإن حديث العترة دون سناد إلى الكتاب لا ثقل له، وذلك سند أنه غير صادر عنهم.

و«القرآن غني لا غنى دونه ولا فقر بعده» والقرآن أفضل شيء دون الله، فمن وقر القرآن فقد وقر الله، ومن لم يوقر القرآن فقد استخف بحرمة الله[٣]، و«حرمة القرآن على الله كحرمة الوالد على ولده»[٤].

---

(١) جامع أحاديث الشيعة ١٥ : ٦ عن الكافي عن الباقر عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:
(٢) الخطبة ٨٧.
(٣) المصدر ٧ عن المجمع ١: ١٥ - أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.
(٤) المصدر ٧ جامع الأخبار عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورواه الشيخ أبو الفتوح في تفسيره عن أبي الدرداء عنه صلى الله عليه وآله وسلم مثله.

وفي كتاب للنبي ﷺ إلى بعض عماله على اليمن: «فإن هذا القرآن حبل الله المتين، فيه إقامة العدل وينابيع العلم وربيع القلوب»[1] (١، ٧): أجل إنه حبل بين الله وخلقه، متين لا ينفصم ولا يفصم، عصمة لمستعصمهم، ومسكه لمستمسكهم، وهو ينابيع العلم، الينابيع المعرفية المتفجرة، من عيونه الجارية، ريًّا لكلِّ غليل، وشفاءً لكلِّ عليل، وهو ربيع القلوب الواعية الراعية، حيث تنفع بتدبر آياته، وتأمل بيناته.

فـ «تعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص، فإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجة عليه أعظم، والحسرة له ألزم، وهو عند الله ألوم»[2].

و«عدد درج الجنة عدد أي القرآن فإذا دخل صاحب القرآن الجنة قيل له: ارقأ واقرأ، لكلِّ آية درجة فلا تكون فوق حافظ القرآن درجة»[3].

و«من قرأ القرآن فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه إلّا أنه لا يوحى إليه»[4].

و«تعلموا القرآن واقرؤوه واعلموا أنه كائن لكم ذكراً وذخراً، وكائن عليكم وزراً، فاتبعوا القرآن ولا يتبعنكم، فإنه من تبع القرآن تهجم به على رياض الجنة، ومن تبعه القرآن زج في قفاه حتى يقذفه في جهنم»[5].

---

(١) المجازات النبوية للسيد الشريف الرضى ١٤١.
وفيه عنه ﷺ يقول الله عزّوجلّ : يا حملة القرآن تحّببوا إلى الله تعالى بتوقير كتابه يزدكم حباً ويحببكم إلى خلقه.

(٢) المصدر (٨) عن نهج البلاغة (٣٣٠) في خطبة له عليه السلام.

(٣) المصدر ١٦ - البحار ٩٢: ٢٢ كتاب الإمامة والتبصرة بسند مفصل عن رسول الله ﷺ: . . .

(٤) المصدر ١٧ - مجمع البيان ١: ١٦ عن علي عليه السلام أنه قال: . . .

(٥) المصدر ١٠ - ابن أبي الجمهور في در اللآلي عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: . . .

وعنه ﷺ قال: من قرأ ثلث القرآن أوتي ثلث النبوة، ومن قرأ نصف القرآن أوتي نصف النبوة، ومن قرأ القرآن كله أوتي النبوة كلها ثم يقال له يوم القيامة: اقرأ وارق، بكلِّ آية درجة حتى يختم ما معه من القرآن، ثم يقال له: اقبض فيقبض فيقال له: هل تدري ما في يديك؟ وإذا في يده اليمنى الخلد وفي الأخرى النعيم[١].

ولا تعني هذه القراءة قراءة فاضية عن المعرفة والتطبيق، بل هي الفائضة بمعرفة وتطبيق، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾[٢] ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾[٣].

و«إن هذا القرآن مأدُبة الله فتعلموا مأدبتُه ما استطعتم، وإن أصفر البيوت لجوف أصفر من كتاب الله تعالى»[٤].

فالمأدُبة - ضماً - هي الطعام[٥] وهي فتحاً مفعلَة من الأدب[٦] فقد أنزل الله القرآن طعاماً للأرواح، وأدباً لها ربانياً، لا طعام لها أطعم، ولا أدب لها أأدب من هذا القرآن، والتاء في الوجهين هي للمبالغة، حيث تعني بالغ الطعام والأدب في القرآن للأرواح.

---

(١) تفسير الكشف والبيان للثعلبي رواه عن أبي أمامة عنه ﷺ: . . .

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٢.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٤) أمالي الصدوق المرتضى (١: ٣٥٤) عن نافع عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ: إن هذا القرآن. . .

(٥) فالمأدبة في كلام العرب هي الطعام يصنعه الرجل ويدعو الناس إليه، فشبه النبي ﷺ ما يكسبه الإنسان من خير القرآن ونفعه وعائدته عليه إذا قرأه ودرس - ما فيه، بما يناله المدعو من طعام الداعي وانتفاعه به، يقال: أدَب الرجل يأدب فهو آدب، إذا دعى الناس إلى طعامه، ويقال للمأدبة المدعاة.

(٦) المأدبة من الأدب فقد أنزل الله القرآن تأديباً للمكلفين ب آداب الله، وتاء المأدبة على الوجهين للمبالغة.

لذلك «وإن أصفر البيوت لجوف أصفر من كتاب الله تعالى» و«أصفر» هي تفضيل الصفر وهو الخالي.

إذاً فأخلى البيوت وأجوفها من الأثاث هو الجوف الأصفر من كتاب الله من الأساس، مهما امتلأ مما سواه من علوم هي بجنب القرآن خاطئة الحلوم.

والهرطقة الغافلة، القائلة: إن القرآن لا يفهم إلّا بالرواية، معروضة عرض، الحائط لمخالفتها بيان القرآن التبيان، إضافة إلى كرور الآيات أنه ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾(١).

فليس باب تفهم القرآن مقفلة على الناس، وإنما هي مغفلة مغفّلة فمقفلة لمن لا يتدبرون القرآن: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(٢) بأغفالها وإغفالها، تحريجاً على الذين يحاولون تفهم القرآن، فتخريجاً له عن حوزته.

وما بيان المعصومين عليهم السلام لآيات مسؤول عنها، إلّا للقاصرين عما يسألون إفهاماً، أو المقصرين إفحاماً، دون أهل القرآن العائشين إياه حياتهم.

وليس تفسيرهم عليهم السلام إلّا سناداً إلى لفظية الدلالات المسؤول عنها قصوراً أو تقصيراً.

إذاً فنكران أن القرآن في الأصل بيان وتبيان نكران لمعجزة الفصاحة والبلاغة القرآنية، بل ونكران لهما عادياً من الناس العاديين!.

ولا يعني الحظر عن تفسير القرآن بالرأي في «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» حظَره عن كلِّ مناهج التفسير، تعطيلاً له عن صالح التدبر والتفكر فيه، إنما هو تفسير خاص «بالرأي» أن تعتقد في رأي أنه

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.
(٢) سورة محمد، الآية: ٢٤.

صالح، تقليداً أو اجتهاداً، ثم تستند إلى القرآن لتثبيت رأيك، الذي يخالف نصه أو ظاهره، أم لا يوافق نصاً منه أو ظاهراً، فإنهما تفسير له بالرأي.

وأما تفسيره بنفسه وبالروايات والنظرات التي توافقه، وبالفطرة السليمة والعقلية الصالحة، والحس السليم، فكلٌّ ذلك محبور في حقل التفسير دون أي محظور.

وما تفسير «من فسر القرآن برأيه» بتعطيل القرآن عن التفكير فيه، إلَّا تفسيراً لهذا الحديث نفسه بالرأي، فليتبوأ مقعد مفسره هكذا من النار.

وهل يقبل أي تفسير للقرآن إلّا بالعقلية السليمة، أم هل يقبل الحديث إلّا بالعقل الذي يقبله تفسيراً للقرآن؟! وليس العقل بالفطرة السليمة إلّا ذريعة للحصول على مرادات الله من كلامه، دون تحميل عليه وتوجيه، إلّا توجيه نفسه بصورة صالحة صادقة للكشف عن معاني القرآن بذريعة اللغة الصالحة والأدب الأديب الأريب، وتفكير صالح في هذه السبيل.

وكما اللغة لا تحمّل على القرآن، كذلك العقل، وإنما هما كاشفان عما يراد من آيات الله البينات.

وكما أن خالص التوحيد هو طليق السلب: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ ومن ثم صالح الإثبات هو: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ براحلة العقل والفطرة، كذلك خالص التفسير ليس إلّا سلب كافة التقديرات والمحتملات المسبقة، ومن ثم الإثبات براحلة الفطرة والعقلية السليمتين واللغة والأدب السليمين، وصالح التدبر في القرآن.

هؤلاء الخارفون الهارفون يقصدون من وراء ذلك التفسير لحديث الرأي نفي روح القرآن عن أمته، واختصاص تفسير القرآن بآرائهم، كما عملته الكنائس في القرون الوسطى فحظروا تفسير الإنجيل على الأمة المسيحية حتى يفسح لهم مجالات التحريف والتجديف في تفسيره بآرائهم وشهواتهم.

وهنا المانعون عن تفسير القرآن فريقان اثنان، فريق يمنع عنه نفياً له من أمته عن بكرته تحت نقاب تقديسه، وآخرون هم مانعون لكي يفسح لهم مجال - دون منازع - لتفسيره بآرائهم فقهياً أو فلسفياً أو علمياً وما أشبه.

وهكذا أصبحت الأمة الإسلامية بعيدة عن روح القرآن، ناحية منحى تفاسير مختلقة مختلفة بآراء خاطئة.

ذلك، وهذا القرآن مصون عن كلٍّ تحريف وتجديف بعصمة ربانية مضمونة طول الزمان وعرض المكان، فآياته الـ/ ٦٦٦٠/ وكلماته الـ/ ٦٦٦٠٠، هما نفس العدد طول التاريخ الإسلامي دون زيادة أو نقصان وإن في حرف أو نقطة أو إعراب أو مكان كلّ، وهذه الكلمات لها سير تصاعدي سنوي منذ البعثة حتى ارتحال الرسول ﷺ وذلك السير منظم منضد نجده في تصاعد/ ٥٠٠ كلمة سنوياً، فمثله مثل الشمس في إشراقته التصاعدية، فقد أشرقت آياته البينات بهذه الصورة على قلوب المكلفين.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾:

إن أتعس البأس هو الجائي علي غفلة آمنة ﴿بَيَٰتًا﴾ في أمن الليل نوماً أم رياحة أخرى ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ نوماً نصف النهار: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾(1).

و﴿قَرْيَةٍ﴾ - خلاف ما يزعم - هي المجتمع، وتسمية مكان الاجتماع بـ﴿قَرْيَةٍ﴾ هي من باب المجاز دون العكس، وهنا ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ دون «أهلكناهم» لرعاية أنوثة اللفظ: ﴿قَرْيَةٍ﴾ ثم ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ رعاية لذكورة

(1) سورة الأعراف، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

المعنى، وما أجمله جمعاً بين قضية اللفظ والمعنى في عبارة واحدة، وفيه عناية المعنيّ من القرية، أنهاهم دون مكانهم، إلّا مجازياً.

إضافة إلى أن الهلاك يشملهم وأمكنهم ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ...﴾.

وترى كيف ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ بعد ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ وليس الإهلاك إلّا بالبأس؟ علّ ﴿فَجَآءَهَا﴾ تفريع بيان لكيفية الإهلاك، أم وتعني ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ - مع ما عنت - قضاء الإهلاك بما افتعلوا ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ أم وثالث هو أمره تعالى بهلاكهم عقيدياً وعملياً إذناً تكوينياً، وعدم التوفيق لإيمانهم من باب ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[(١)] - ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[(٢)] - و﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَاطِينَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[(٣)].

وعلّ مثلث المعنى معنيٌّ حيث يوافق أدب اللفظ والمعنى والله أعلم بما يوعون.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾:

فطالما كانوا هم في رغد العيش والأمن لا يعترفون بظلمهم، فهم ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾ ليست لهم دعوى أمام بأس الله إلّا الاعتراف: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ علّ الله يعفو أو يخفف عنهم بأسه، ولكن لا مناص عن بأس الله إذا جاء، فقد فات يوم خلاص فلات حين مناص، حيث الإيمان عند رؤية البأس لا يقع موقع القبول إذ لا واقع له إلّا الفرار عن بأس الله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[(٤)].

---

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٥.
(٣) سورة مريم، الآية: ٨٣.
(٤) سورة غافر، الآيتان: ٨٤، ٨٥.

وهكذا تأخذ السنة الإلهية من الظالمين دعواهم ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ حيث لم يكونوا ليعترفوا بظلمهم في غمرات الشهوات، ويا له من موقف مذهل مرعب مرجف حيث أقصى الدعاوي فيه هو ذلك الاعتراف بالظلم.

ذلك، وإن مصارع الغابرين المعروضة في مصارح الذكر الحكيم، إنها خير منذر ومذكر، والقرآن يستصحبها في المجالات المؤاتية لها كمؤثرات موحية ومطرقات موقظة للهائمين في ورطات الشهوات والغفلات.

هنا معرض الهلاك في الأولى، وإذا بالسياق ينتقل وينقل معه السامعين إلى مشهد الآخرة، شريطة موصولة المشاهد حيث تضم الآخرة إلى الأولى، متخطية طول الزمان وعرض المكان، ومُلحقة عذاب الأخرى إلى الأولى، ولا ينبئك مثل خبير: تشهيراً بهم على الملإ الحاشد في ذلك اليوم المشهود الشاهد:

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾:

فالرسل والمرسل إليهم هناك مسؤولون في موقف الاستجواب، ولكن الرسل يسألون سؤال تقرير وتغرير وتعزير، والمرسل إليهم يسألون سؤال تأنيب وتبكيت وتنكير، اللهم إلّا من وفى لرعاية الحق منهم: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾[(١)] وهو سؤال استفحام دون استفهام.

فقد يسأل المرسلون - من الجنة والناس والملائكة - ماذا أجبتم: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[(٢)] وكما يسألون عن تأدية رسالاتهم[(٣)]، ويسأل المرسل إليهم -

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٩٢، ٩٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٠٩.
(٣) الدر المنثور ٣: ٦٨ - أخرج أحمد عن معاوية بن حيدة أن رسول الله ﷺ قال: إن ربي =

وهم كافة المكلفين من الجنة والناس وسواهما - عما أجابوا الرسل، لا جهلاً عما كانوا يعملون، وإنما استحصالاً لما في الصدور حتى يقروا بأنفسهم بما كانوا يعملون.

هنا سؤال المرسلين يجمع إلى تغرير لهم وتعزير تقريراً في ذلك المشهد أنهم بلّغوا رسالات ربهم دونما قصور أو تقصير، فهو لهم احترام زائد ولمن تخلفوا عنهم اخترام بائد.

ثم وفي وجه شمول ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ كافة الدعاة المسؤولين، تنديد بمن قصّر منهم في بلاغ الدعوة الربانية، ثم الله هو الذي يقص كلما حصل:

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾:

قصّ رباني لأعمالهم وأحوالهم ﴿بِعِلْمٍ﴾ سابق سابغ إذ ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ فـ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

وذلك القص هو مربعة الجهات والجنبات، هي:

١ - قص رباني دون وسيط.

٢ - وبوسيط الأعضاء.

= داعيّ وإنه سائلي هل بلغت عبادي وإني قائل: رب إني - بلغتهم فليبلّغ الشاهد الغائب، ثم إنكم تدعون مفدمة أفواهكم بالفدام إنّ أوّل ما يبين عن أحدكم لفخذه وكفه، وفيه أخرج البخاري ومسلم والترمذي وابن مردويه عن ابن عمر قال قال النبي ﷺ: كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام يسأل عن الناس والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده، وفيه أخرج ابن حبان وأبو نعيم عن أنس أن النبي ﷺ قال: إن الله سائل كلّ راع عما استرعاه أحفظ ذلك أم ضيعه حتى يسأل الرجل عن أهل بيته، وفيه أخرج الطبراني في الأوسط بسند صحيح عن أنس قال قال رسول الله ﷺ كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته فأعدوا للمسائل جواباً قالوا: وما جوابها؟ قال: أعمال البر، وفيه أخرج الطبراني في الكبير عن المقدام سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يكون رجل على قوم إلّا جاء يقدمهم يوم القيامة بين يديه راية يحملها وهم يتبعونه فيسأل عنهم ويسألون عنه.

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

٣ - والأرض.

٤ - وسائر الشهداء من النبيين والملائكة الكرام الكاتبين، ولكي تكمل الشهادة ويغرق المشهود عليهم في غمراتها فلا يجدوا سبيلاً لنكران.

وهنا ﴿عَلَيْهِم﴾ تعم المرسل إليهم إلى المرسلين، قصًّا بعلم لما فعل الرسل وما فعل المرسل إليهم، قصّ غامر هامر لا يبقي ولا يذر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(١).

ولماذا هنا «قصٌّ» بديلاً عن «إنباء - أو - إخبار»؟ لأن أخبار الرسل والمرسل إليهم ليست كلها تُنبأ، إنما هي مواضع المسؤولية حيث تقص قصًّا عن كلٍّ ما حصل، وكما يقصُّ القرآن أنباء ما قد سلف دون عرض لكلٍّ ما حصل.

وهنا موازاة بين المسؤول عنه وبين المقصوص، فكل ما يُسأل عنه يُقص، وكلما يقص فهو مسؤول عنه، وقد يشمل السؤال والقص كافة المسؤوليات الفردية والجماعية وكما في حديث الرسول ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»(٢).

فـ ﴿الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يشمل كافة المكلفين، معروفين لدينا ومجهولين، من الجنة والناس ومن سواهم من المسؤولين أجمعين، كما ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ تشمل إلى رسل الإنس الرسل الملائكية والجنية، ومن ثم كلّ المكلفين بالدعوة الرسالية من علماء ربانيين وآمرين وناهين، وأية داعية راعية، فقد تشملهم كلهم ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾، فلا تجد مكلفاً يوم الدنيا إلّا وهو مسؤول يوم الدين دون إبقاء ولا إبطاء: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾(٣).

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.
(٢) راجع إلى ص ٢٦.
(٣) سورة الصافات، الآية: ٢٤.

ذلك، ولأن الحشر يعم كافة ذوات الحياة وكما في آية الأنعام: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(١) فمثنى المسؤولية تشملهم يوم الدين، مهما اختلفت درجاتها.

وهنا السؤال العام لا يناحر هناك عدم السؤال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾(٢) حيث السلب يعني سؤال الاستفهام إذ ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾(٣) ثم الإيجاب بين سؤال استجهال أو استفحام أو استعظام، تقديراً لطالح ما كان، وتقريراً لصالحه في ذلك الحشد الحشر العام.

وليس هناك - فقط - تساؤلات، فإنما يحلقها «الوزن»، فما هو ذلك الوزن؟ هل هو وزن الأبدان والأموال والتشخصات المدّعاة، أم ووزن الأنساب والأسباب وسائر الروابط المتخلفة عن الضوابط؟

أمّا هيه من أوزان من موازين الأرض ومقاييس أهليها المخلدين إليها؟ كلّا!:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٤١.

﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾
وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا
تَشۡكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ
لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا
تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ قَالَ
فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ
أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي
لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ
وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا
مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ
أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا
وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ
ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا
ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ
وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا
عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ
وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾.

وهل الوزن هنا الوازن أو الميزان أو الموزون أم نفس الوزن مصدراً؟ ثم الحق هل هو المعني من «حق» أو «الحق» الله، أم «الحق» المعروف من الله على العباد؟.

هنا احتمالات بضرب مثلث الحق المحتمل على الوزن فهي اثنتا عشرة.

والصحيح منها أن «الوزن» هنا هو الميزان، حيث ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾(١) ثم الحق أن «الحق» هنا هو الثالث من محتملاته، حيث هو «القسط» في آية الأنبياء، كما «الوزن» هنا هو الموازين هناك.

والتعبير عن الميزان بالوزن عناية إلى حق الميزان، إنه خليصه دون خليطه، فكأنه هو الوزن بعينه لا يشوبه شائب غير الوزن.

كما وأن ﴿ٱلْحَقُّ﴾ هو خالص الحق المرغوب غير المشوب، إذاً فالحق الحقيق بالاتباع من الله هو الميزان.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جمع الموزون، لا الميزان، حيث الموازين هذه توزن وتقاس بالوزن الحق القسط.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

ثم الحق أن «الحق» خبر لمحذوف معروف هو «هو» والجملة - على تنكرها أدبياً - خبر لـ«الوزن» فلا تصلح «يومئذ» وما أشبه خبراً لـ«الوزن»، ولو كان «الحق» خبراً لـ«الوزن» بنفسه لكان الصحيح أدبياً «حق» ثم لا يتم المعنى حيث يعني أن «الوزن حق» ثابت لا حول عنه، وأما ما هو ذلك الوزن فلا خبر عنه اللّهم إلّا «هو الحق» الخالص غير الكالس، الفالس.

ولأن الخسران في التعارف إنما هو النقص في الأثمان، وهو يخص الأموال لا النفوس، فذكر الموازين هنا بثقلها وخفتها، إنما هو بمناسبة الخسران ليكون الكلام متفقاً وقصص الحال متطابقاً، فكأنه تعالى جعل نفوسهم لهم بمنزلة العروض المملوكة إذ كانوا يوصفون بأنهم يملكون أنفسهم كما يوصفون بأنهم يملكون أموالهم، وذكر خسرانهم لها لأنهم عرضوها للخسار والبوار فأوجبوا لها عذاب النار جهنم يصلونها وبئس القرار، فقد تجاوزوا حدَّ الخسران في الأثمان إلى حدِّ الخسران في الأعيان.

ووجه آخر هو أن الوزن لا يختص بالأثقال الجسمانية، بل هو في الروحيات أوزن، فالخسران فيها أخسر، والربح أمتن، فالحق - إذاً - أن ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾.

وليس «الحق» هنا هو الله، إذ لو كان هو الميزان للموازين لم يك وزن لأحد حتى يوزن به، إضافة إلى أن ميزانية الله نفسه لموازين العباد ظلم بهم عظيم، إذ لا يستطيع أحد أن يشابهه في أيّ شأن من شؤونه!.

ولا هو «حق» حيث القصد تعريف الوزن: ما هو؟ لا تثبيت أصله دون معرفة بكيانه، ثم ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ تفرعاً على «الحق» لا دور له إلّا بعد معرفة الحق بكيانه، لا التأكّد منه بكونه، مع أنه حق لا فقط «يومئذ» بل في كلِّ الأيام.

كما وليس «الوزن» هو الوزن مصدرياً حيث المصدر ليس هو «الحق»

الواقع الموجود، فإنما يخبر «الحق» عن واقع وهو هنا «الميزان»، وليس هو الموزون حيث لا يوزن الموزون بالموزون.

فصالح المعنى الوحيد إذاً أن «الوزن»: الميزان - هو «الحق» المقرر من الله لعباده، وحياً كأصل، ورسولاً كمصداق واقعي عملي للوحي، وكما تعنيه ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[١] فالموازين هي الوزن هنا، كما القسط هو الحق هنا، فـ: «الوزن الموازين» هو «الحق القسط» فلأن الموازين - جمع الموزون - عدة، كذلك الموازين - جمع الميزان - عدة، عدة بعدة ولا يظلمون نقيراً.

وكما الحق ليس هو صاحب الصالحات الموزونة، كذلك ليس هو الوزن، فإنما هو الحق علماً وعقيدة ونية وعملاً صالحاً وحالاً وقالاً[٢].

والوزن الحق هنا وهناك هو كتاب الله وهو رسول الله المتمثل في أقواله وأفعاله وأحواله كتاب الله[٣]، وقد يروى عنه ﷺ: «أنا ميزان العلم وعلي كفتاه»[٤]، فقد يوزن الرسل بكتب الوحي، وتوزن الأمم بهما، دونما تخلّف عن حق الله قيد شعرة[٥].

وليس الأعمال توزن بسائر الموازين روحية وجسمية[٦] إنما هو قسطاس

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٢) في البحار ٧: ٢٤٤: «سُئل رسول الله ﷺ عما يوزن يوم القيامة؟ فقال: الصحف» أقول: ولا تعني الصحف إلّا الأعمال بأوصافها حيث تقاس بالحق والقسط.

(٣) في المعاني بإسناده عن المنقري عن هشام بن سالم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ...﴾ [الأنبياء: ٤٧] قال: هم الأنبياء والأوصياء.

(٤) ملحقات إحقاق الحق ٩: ٢٠٩ و١٨: ٤١٧ و١٣: ٧٩ - ٨٠.

(٥) تجد تفاصيل البحث حول الوزن والموازين في آيات الأنبياء والمؤمنون والقارعة والكهف، فراجع إلى مجالاتها في الفرقان.

(٦) نور الثقلين ٢: ٥ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل وفيه: قال السائل: أو ليس توزن الأعمال؟ قال عليه السلام: لا - لأن الأعمال ليست بأجسام وإنما =

الحق من الله، فإذا أردت أن تعلم أصادق أنت أم كاذب فانظر في قصد معناك وغور دعواك وغيّرهما بقسطاس من الله عَزَّوَجَلَّ كأنك في القيامة قال الله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ فإذا اعتدل معناك بدعواك ثبت لك الصدق(١).

ذلك و«الموازين» هي جمع الميزان حقاً وقسطاً في آية الأنبياء: ما يوزن به، أو الموزون كما في آيتنا، وهي العلوم الربانية والعقائد والنيات والأقوال والأعمال الصالحة، فهي في صيغة جامعة «الحسنات» فقد يوزن بها بوزن «الحق» فيها، فكلّما كانت أقرب إلى الحق المرام فهي أثقل، وكلما كانت عنه أغرب فهي أخف وأسفل، حتى تكون خاوية عن الحق عن بكرته فهنالك خفة الموازين عن بكرتها، وبينهما عوان كما ولكلٍّ ميزان درجات، وهذه الآية وأضرابها تتحدث عمن محّض الإيمان محصناً أو محّض الكفر محضاً، ثم العوان بينهما عوان في الإفلاح والإفلاج(٢).

وأثقل الثقل في الميزان هو التوحيد الحق وحق التوحيد(٣)، كما أن أسفل السفل هو الإشراك بالله.

= هي صفة ما عملوا، وإنما يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء ولا يعرف ثقلها وخفتها وإن الله لا يخفى عليه شيء، قال: فما معنى الميزان؟ قال: العدل، قال: فما معناه في كتابه ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨]؟ قال: فمن رجح عمله.

(١) مصباح الشريعة قال الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في كلام طويل: فإذا أردت، وفي الخصال عن محمد بن موسى قال سمعت أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: إن الخير ثقل على أهل الدنيا على قدر ثقله في موازينهم يوم القيامة وإن الشرّ خف على أهل الدنيا على قدر خفته في موازينهم يوم القيامة.

(٢) الدر المنثور: ٧١ - أخرج أبو الشيخ عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «يوضع الميزان يوم القيامة فيوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة ومن رجحت سيئاته على حسناته دخل النار» أقول: قد ينافيه ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] وإن الحسنات هي ثقل الميزان والسيئات هي خفتها، اللهم بتأويل أن الجامع بين الحسنات والسيئات له الموازنة بينهما دون أن يعني وزن السيئات.

(٣) المصدر أخرج الطبراني عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لو جيء بالسماوات والأرض ومن فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفه الميزان ووضعت شهادة أن لا إله إلّا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن.

ولأن الموازين: الحسنات، تعم الظاهر إلى الباطن والباطن إلى الظاهر، فثقلها يعمهما:

«فمن كان ظاهره أرجح من باطنه خف ميزانه يوم القيامة، ومن كان باطنه أرجح من ظاهره ثقل ميزانه يوم القيامة»(١) والقصد من الرجحان الثاني ما يترك به الرثاء، وإلّا فالسماوات بين الظاهر والباطن هي القصد والعدل.

ذلك، وفي مختلف الموازين بين أصحابها يقول الرسول ﷺ: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء»(٢) ولأن مدادهم هو الذي يمد المناضلين إلى خطوط النار بما وعوا منهم من آماد الإيمان.

فالعلماء هنا هم الربانيون بما استُحفظوا من كتاب الله، الذين تمتد علومهم إلى صحائف الصدور وسواها، ومن حصائلها في ذلك المد المديد معرفة غالية عالية للممدود إليهم الذين يضحُّون بأنفسهم في سبيل الله، إذاً فمداد العلماء هو حقاً أفضل وأوزن من دماء الشهداء، فأما إذا اجتمع العلم والشهادة فنور على نور، ثم العلم غير الممدود والشهادة الخالية عن شروطها المعرفية والشرعية، أو الجهل وعدم الشهادة، فهي أضلاع أخرى بعد صالح العلم والشهادة ليست بذلك النمط المرموق.

ولأن ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ «ونصنع الموازين القسط» إذاً فلا وزن للباطل، وإنما يقام الوزن للحسنات، ثم لا وزن للسيئات فإنها خفة الميزان(٣): ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ ومنهم الأخسرون

---

(١) الدر المنثور ٣: ٧١ - أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص عن علي بن أبي طالب عليه السلام: . . . .

(٢) المصدر أخرج المرهبي في فضل العلم عن عمران بن حصين قال قال رسول الله ﷺ: . . . .

(٣) في التوحيد بإسناده عن أبي معمر السعداني عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث قال: وأما =

أعـــمـــالاً: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾(١).

ثم لكلٍّ ميزان وزن يخصه، فميزان التوحيد هو التوحيد الحق، وميزان الصلاة هي الصلاة الحقة، وهكذا كلُّ ميزان بوزنه وكلُّ وزن بميزانه، ويجمع الكلّ «الحق - و - القسط».

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ المؤاتية للحق والقسط ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ في الآخرة كما أفلحوا في الأولى، حيث يفلحون عقبات وعقوبات وصعوبات في الأخرى بثقل موازينهم التي هي أثقل من كلِّ ثقل، فلا تبقى عقبة إلّا وهم يجتازونها، فقد ربحوا أنفسهم دون خسران.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ وهي كلُّ موازينه، إذ لا موازين له حسنات ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ بكلِّ موازينها ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ آفاقية وأنفسية ﴿يَظْلِمُونَ﴾: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾(٢).

ولأن الخسران في التعارف المتعوّد هو النقص في أثمان المبيعات

= قوله: «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ وخَفَّتْ مَوازِينُهُ» فإنما يعني: الحسنات توزن الحسنات والسيئات، فالحسنات ثقل الميزان والسيئات خفة الميزان.

وفي الكافي بإسناده عن سعيد بن المسيب عن علي بن الحسين عليه السلام فيما كان يعظ به قال: ثم رجع القول من الله في الكتاب على أهل المعاصي والذنوب فقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦] فإن قلتم أيها الناس إن الله عزّ وجلّ إنما عنى بها أهل الشرك فكيف ذلك؟ وهو يقول: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] فاعلموا عباد الله أن أهل الشرك لا تنصب لهم الموازين ولا تنشر لهم الدواوين وإنما يحشرون إلى جهنم زمراً وإنما نصب الموازين ونشر الدواوين لأهل الإسلام - الخبر.

(١) سورة الكهف، الآيات: ١٠٣-١٠٥.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٣.

وليست منها النفوس، فالإتيان به لها قد يعني مناسبة «الموازين» في عرصات الحساب ليكون الكلام متفقاً، وقصص الحال متطابقاً، فكأنه تعالى جعل نفوسهم لهم بمنزلة العروض المملوكة، إذ كانوا يوصفون بأنهم يملكون نفوسهم كما يملكون أموالهم، وقد عرضوا أنفسهم بكلِّ نفائسهم للخسار، وأوجبوا لها البوار وعذاب النار ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[1]، فصارت في حكم العروض المتلفة، وتجاوزوا حدَّ الخسران في الأثمان إلى حدِّ الخسران في الأعيان.

وبتعبيرٍ أعمق هو أليق بحق الكلام لله الملك العلام نقول: كلُّ إنسان يملك نفسه بما ملّكه الله إياه، وعلى ضوئه يملك ما سواها، ثم جعل في مختبر الحياة الدنيا ومتجرها لكي يتاجر بكلِّ ما لديه من نفس ونفيس ليحصل على ما هو أنفس من النفس والنفيس، بثقل الموازين بعد خفتها، ولكنه باع نفسه بالأركس الأدنى وبقي صفر اليد عن كلِّ نفسه ونفيسه، خفيفاً عن كافة الموازين المعطاة والمكتسبة، فقد خلق في أحسن تقويم، وقرر له حسب مستواه أن يضيف تقويم كيانه إلى تقويم كونه، ولكنه رد نفسه إلى أسفل سافلين ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ - ﴿... فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ وذلك من أخسر الخسران: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[2].

﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾:

﴿أَنفُسَهُمْ﴾ هنا هي حق ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ وهي فطرهم، وعقولهم التي عليها أن تتبنى فطرهم، وحواسهم التي هي بطبيعة الحال تتبع عقولهم وفطرهم.

فالخاسر نفسه هو الذي ضلّ عنها متغافلاً متجاهلاً، فهو - إذاً - خاسر

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الزمر، الآية: ١٥.

ربه، فإن «من عرف نفسه فقد عرف ربه» وخاسر - كذلك - حياته الإنسانية التي خلق لأجلها، فقد وجد نفسه حيواناً شرساً حرصاً على الحيونات والشهوات، فهو منغمس فيها، تارك ما تعنيه الفطرة والعقلية السليمة من عنايات إنسانية على ضوء عنايات ربانية.

أجل فالخاسر نفسه خاسر كلّ موازين الإنسانية عن بكرتها، والواجد نفسه واجد لموازينها في مجالاتها الواسعة الفاسحة، فاحصة عما يجعلها وزينة متينة، فخسران النفس هو أساس كلّ خسران ووجدانها هو أساس كلّ وجدان.

ذلك، فلنجدّ المسير إلى مصير الحق ليكون لنا وزناً وإني أحذركم ونفسي هذه المنزلة، فلينتفع امرؤ بنفسه، فإنما البصير من سمع فتفكر، ونظر فأبصر، وانتفع بالعِبَر، ثم سلك جدداً واضحاً يتجنب فيه الصرعة في المهاوي، والضلال في المغاوي، ولا يعين على نفسه الغواة بتعسّف في حق، أو تحريف في نطق، أو تخوف من صدق - فأفِق أيها السامع من سكرتك، واستيقظ من غفلتك، واختصر من عجلتك، وأنعِم الفكر فيما جاءك على لسان النبي الأمي ﷺ مما لا بدّ منه، ولا محيصَ عنه، وخالِف من خالف ذلك إلى غيره، ودعه وما رضي لنفسه، وضَع فخرك، واحطط كبرك، واذكر قبرك، فإن عليه ممرّك، وكما تَدين تُدان، وكما تزرع تحصَد، وما قدمت اليوم يقدَم عليك غداً، فامهَد لقدَمك، وقدِّم ليومك، فالحذر الحذر أيها المستمع، والجِدَّ الجِدَّ أيها الغافل ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[1] - إن من عزائم الله في الذكر الحكيم التي عليها يثب ويعاقِب، ولها يرضى ويسخط، أنه لا ينفع عبداً - وإن أجهد نفسه وأخلص فعله - أن تخرج من الدنيا لاقياً ربه بخصلة من هذه الخصال لم يتب منها:

(١) سورة فاطر، الآية: ١٤.

أن يشرك بالله فيما افترض عليه من عبادته، أو يشفي غيظه بهلاك نفس، أو يغرّ بأمر فعله غيره، أو يستنجح حاجة بإظهار بدعة في دينه، أو يلقى الناس بوجهين، أو يمشي فيهم بلسانين، أعقِل ذلك فإن المثل دليل على شِبهه[١]...

فيا «عباد الله! زنوا أنفسكم من قبل أن توزنَوا، وحاسبوها من قبل أن تُحاسبوا، وتنفسوا قبل ضيق الخِناق، وانقادوا قبل عُنف السياق، واعلموا أنه من لم يَعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له عن غيرها زاجر ولا واعظ»[٢].

وهنا عرض للرحلة الإنسانية الكبرى منذ البداية حتى النهاية، مزودة برحمات ربانية مفاضة عليها، دون اختصاص بأمم دون أخرى، فإنما الإنسانية ككلّ هي المخاطبة بهذه الخطابات المنونة الحنونة، المندّدة بها لتخلفها عما فرض الله لصالحها:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾:

.. إنها مقرة صالحة لهذا الجنس البشري بكلٍّ ما يُصلحه ويصلح له من الحيوية الروحية وسواها إسكاناً وتمكيناً مكيناً متيناً أميناً في ذلك المهد المهيد غير الوهيد، بمعايش كأصلح ما يكون، ولكن ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ربكم بذلك الإسكان والتمكين وتلكُمُ المعايش، حيث التمكين يعني إلى الإسكان - مكاناً - مكانة الإقدار والتسليط، بل هو أمكن من الإسكان، فكما ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[٣] كذلك ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٤].

---

(١) (الخطبة ١٥٢).
(٢) (الخطبة ٨٩).
(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٦.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

وقد يعني ﴿مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى هذه الأرض وسائر الأرضين السبع، أرضَ الجنة التي أسكن فيها آدم وزوجه، و«كم» اعتباراً بأنهما الأصل الأول، الحامل لكل الأنسال الإنسانية، وسائر سكنة سائر الأرضين المكلفين كما لمحت لهم آية الطلاق ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾[1].

فـ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ في الدور الأول لآدم الأول، ثم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ لما بعد من أدوار الأنسال في هذه الأرض البلية الاختبار بالاختيار، كما و﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ لسائر المكلفين الساكنين في سائر الأرضين.

فليس ذلك التمكين - فقط - تمكين المكان، بل والمكانة الحيوية المُعاشة بتمكين كلِّ الموافقات التي تسمح بحياة الإنسان عليها، تمكينات متصلة فيها بما أودع الله لها من موافقات وخصائص، وأخرى منفصلة بفصائل خاصة قاصدة بينها وبين الشمس والقمر وسائر الأنجم، ودورتها حول الشمس كدوران الشمس، وميلها على محورها، وسرعة خاصة لهما في ذلك التداور، وإلى كافة التمكينات في كرتنا الأرضية التي إن تعدوها لا تحصوها ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾!

لقد مكن الله أبوينا الأولين في الأرض، ثم مكّن ويُمكِّن نُطفَنا في قرار الرحم المكين: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾[2] ثم التمكين العام رحمانياً لكلِّ الأجنة في قرار الأرض، ثم تمكينات خاصة رحيمياً لعباد بدرجاته على درجاتهم: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[3] وإلى تمكين ومكانة عامة: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾[4].

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.
(٢) سورة المرسلات، الآيتان: ٢٠، ٢١.
(٣) سورة القصص، الآية: ٥٧.
(٤) سورة النور، الآية: ٥٥.

وهنا تصورات سخيفة تصوِّر الكون عدّواً للكائن الإنساني، وتصوِّر كل تعرُّف للكون وانتفاع منه تسخيراً له في صراع بينه وبين الإنسان؟

ولكنه صراع بين الإنسان ونفسه، أو سعي في سبيل الانتفاع مما سخر الله له، وأما الكون نفسه فـ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[١].

فلو كانت النواميس الكونية معاكسة للإنسان فيما يمكّنه، ودون إرادة مدبرة له كما يزعمون، ما نشأ هذا الإنسان في الأصل، ولما استطاع أن يمضي قدماً في حياة، لو أنه وُجد دون تلك الإرادة الربانية، أم أوجد دون حكمة عالية، ولكنه بما أعد الله ومكنَّه في الأرض يتعامل مع الكون تعاملاً عاقلاً عادلاً ويشكر الله على ما منحه ومكّنه ولكن ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

ومن هذه القلة القليلة العليلة غير الشاكرة مأساة الوجودية الكبرى في هذه التصورة الجاهلة البائسة اليائسة، أن الكون بكلٍّ ثقله الساحق يسعى إلى سَحق هذا الكائن الإنساني ومحقه.

ذلك التصور الخائن الخاطئ عن هذا الكون المكين المتين تجاه الإنسان المخلوق في أحسن تقويم، الذي يُنشئ - فيما يُنشئ - حالة من الانزواء والالتواء والعدمية والانكماش، أو حالة فردية تمردية تنمردية مستهترة، نشراً في التيه بما فيه من الهلكة والانهيار!.

كلّا! إن الإنسان هو ابن هذه الأرض المستعمر هو فيها فـ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[٢] و﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[٣].

---

(١) سورة الملك، الآية: ٣.
(٢) سورة هود، الآية: ٦١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

فالأرض بنفسها موطَئة مؤاتية مطيعة لاستعمارها العادل، ولكن المستعمِرين الظالمين في صراع الاستعمار الغاشم هم الذين يخلقون جوَّ الصراع والظلم والضيم في تطاولاتهم على الأرض وأهليها، فـ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تصوراً عن الحياة، وتعاملاً مع أرض الحياة وعرَضها، بعرضها، وتعاملاً مع أحياء الأرض وإحيائها، ومواجهة لخالق الأرض ومن عليها.

ذلك، ومن الذكريات المخجلة لـ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ بداية العصيان من أبوينا الأولين اللذين مكّنهما جنته، وأسجد له ملائكته ثم نهاهما عن الشجرة فعصياه بإغواء الشيطان:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾:

من الأكيد أن ﴿قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ كان قبل ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾... كمجموعة، فكيف تأخر هنا في هذا العرض العريض؟.

أفكان عرضاً مشوشاً خلاف واقع الترتيب؟ وهو مشوش من التأويل يمس من كرامة القرآن الرتيب الأديب فوق القمم كلّها في الأدب الأريب!.

قد تعني ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ بما خلق أبوينا الأولين حيث كنا ذراً هناك، وكما ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾(١) بوجه الذرية الصحيح أنها هناك من إضافة الشيء إلى نفسه باعتبارين:

حملناهم وهم ذرية في أصلاب وأرحام الآباء والأمهات المحمّلين في الفلك المشحون، وكما تشهد له: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾(٢).

فهنا ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ بما خلقنا في صلب آدم وترائب زوجه ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾

---

(١) سورة يس، الآية: ٤١.

(٢) سورة الحاقة، الآية: ١١.

تصويراً بدائياً إنسانياً هو الصورة الأولى الإنسانية، ثم: ﴿ٱلنُّطۡفَةَ﴾[١] وما أشبه من سابقتها.

وعلّ القصد من جمعية الخلق والتصوير هنا هو التلميح بأن سجود الملائكة لآدم بمعناه الصالح لم يكن - فقط - حرمة لشخصه الشَّخيص، ومن ذريته من هم أعلى منه محتداً وأهليه لذلك الاحترام، كالمعصومين المحمديين عليهم السلام الذين لم يكونوا يتركون الأولى بجنب الله فضلاً عن عصيان.

ذلك، وبوجه آخر ضِمنَه يلمح بالترتيب الثلاثي خلقاً وتصويراً ومن ثم حرمة السجدة الملائكية لهذا الإنسان المخلوق في أحسن تقويم، والقصد هنا إلى الصورة الإنسانية الكاملة الواصلة إلى أحسن تقويم كياناً على ضوء شرعة الله بعد ما هو أحسن تقويم كوناً بفضل خلق الله إياه.

فالكيان الإنساني المتكامل على ضوء الفطرة والعقلية السليمة والوحي، هو الكيان المسجود له بملائكة الله، ولا تعني ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ - كما فصلناه في آيات البقرة - إلّا سجدة الشكر لله بما خلق آدم معلماً لهم ومربياً، وليست سجدة الحرمة لآدم نفسه، فضلاً عن سجدة العبودية، حيث التسوية بالله محرمة في شرعة الله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[٢].

وقد يتأيد كون المسجود له احتراماً هو الإنسانية دون شخص خاص هو الأول، أن إبليس يهددهم أجمع بعد ما دحر بتخلفه عن السجود لآدم: ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[٣] ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.
(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٧، ٩٨.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٢.

أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(١)] وهنا ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ...﴾[(٢)]، ولولا أن السجود كان لهم أجمعين بصورة إنسانية كاملة، لما هدّدهم بما هدّدهم أجمعين.

وكما أن خلق آدم كان خلقاً لنا أجمعين، كذلك السجود له هو سجود لنا أجمعين، اللّهم من رد إلى أسفل سافلين، فإنما هو سجود الاحترام بساحة الإنسانية الكبرى، ولا سيما أهل بيت الرسالة المحمدية كما يقول الإمام علي عليه السلام: «وأودعنا في صلبه وأمر الملائكة بالسجود له لكوننا في صلبه»[(٣)].

ولقد جاءت قصة آدم وإبليس بحذافيرها جملة أو تفصيلاً في سبعة مواطن: هنا وفي البقرة والحجر وبني إسرائيل والكهف وطه وص، والقول الفصل حولها آتٍ وقد مضى في البقرة فلا نعيد هنا، اللّهم إلّا ميِّزات تختص بها هذه الآيات:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾﴾:

﴿مَا مَنَعَكَ﴾ تلمح بأن طبيعة الحال وقضية المجال كانت السجدة دونما فتور، حيث الآمر هو الله المولى والمأمورون هم ذلك الحشد العظيم بمن فيهم إبليس، المولّى عليهم ربهم.

فلا بدَّ - إذاً - من مانع هو أقوى من دافع، كما هو قضية الحال في كلِّ عصيان.

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ فكيف يسجد ﴿خَيْرٌ مِنْهُ﴾ لمن هو أدنى؟ إذ ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ

(١) سورة الحجر، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦.
(٣) ملحقات إحقاق الحق ٥: ٩٢.

نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾! والنار خير من الطين في كافة الفاعليات مهما كان الطين - علّه - خيراً منها في قابليات، ولكنها أيضاً على ضوء فاعليات النار حيث تفعل آثارها فيه فتنبت منه نباتاً وحيواناً وإنساناً.

ذلك ولكنه أخطأ في بعدين بعيدين، ثانيهما أنه رد على الله بذلك البرهان! وكأنه غافل عما خلق أو جاهل به، أم هو ظالم في تقديم المفضول على الفاضل، وكل ذلك إلحاد بل هو أنحس من الإلحاد في الله والإشراك بالله، ولذلك استحق الدحر أبد الآبدين، كما وأنه أخطأ في أصل البرهان[(١)].

حيث نظر إلى فعليته النارية ولم ينظر إلى نورانية ذلك التراب فعلية وقابلية. «ولو قاس نورية آدم بنورية النار عرف فصل ما بين النورين وصفاً أحدهما على الآخر»[(٢)]، وحتى لو كان هو خيراً منه، فخير منهما ومن كلّ

---

(١) وتقريراً لقياس إبليس يقال: إن النار مشرق علوي لطيف خفيف حار يابس مجاور لجواهر السماوات ملاصق لها، والطين مظلم سفلي كثيف ثقيل بارد يابس بعيد عن مجاورة السماوات - والنار قوية التأثير والفعل، والأرض ليس لها إلّا القبول والانفعال والفعل أشرف من الانفعال - والنار مناسبة للحرارة الغريزية وهي مادة الحياة، وأما الأرضية والبرد واليبس فهي تناسب الموت والحياة أشرف من الموت - ونضج الثمار متعلق بالحرارة وسن النمو من النبات لما كان وقت كمال الحرارة كان غاية كمال الحيوان حاصلاً في هذين الوقتين، وأما وقت الشيخوخة فهو وقت البرد واليبس المناسب للأرضية، لا جرم كان هذا الوقت أردأ أوقات عمر الإنسان.

هذه أركان قياس إبليس المرتكنة كلها على الظاهر الحاضر، ولكنه غفل عن واقع هذا الكائن الطيني أنه أشرف من الملائكة فضلاً عن الجن.

(٢) نور الثقلين ٢: ٦ في العلل دخل أبو حنيفة على أبي عبد الله عليه السلام فقال له: يا أبا حنيفة بلغني أنك تقيس؟ قال: نعم أنا أقيس، قال: لا تقس فإن أول من قاس إبليس حين قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] فقاس ما بين النار والطين...، وفيه أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن إبليس قاس نفسه بـ آدم فقال ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] فلو قاس الجوهر الذي خلق منه آدم بالنار كان ذلك أكثر نوراً وضياء من النار.

وفي الدر المنثور ٣: ٧٢ - أخرج أبو نعيم في الحلية والديلمي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدِّه عليهم السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: أوّل من قاس أمر الدين برأيه إبليس. قال جعفر: فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس لأنه أتبعه بالقياس.

خير هو اتّباع أمر الله، وكما أمرنا بالسجود نحو الكعبة ولا ريب أن من الساجدين من هم أفضل من الكعبة المباركة.

فقد خَلَقَنا بما خَلَق آدم من تراب هيكلاً ترابياً إنسانياً، ثم صوَّرنا بما صوَّر آدم بالصورة الإنسانية جسمانياً، ثم بما صوَّره بالصورة نفسياً.

فلنا خلق وتصوير إجماليان هما في خلق آدم وتصويره، ثم خلق وتصوير تفصيليان هما في خلقنا أنسالاً متتابعة، والقصد هنا من ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ هو الأولان، لمكان ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ...﴾ إذ لم يأت ذلك الأمر إلّا بعد خلق آدم وقبل خلقنا تفصيلياً، وقد يعنيهما ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ...﴾[1].

فطليق التسليم لرب العالمين لا يعرف حكمة وبرهنة حاضرة معروفة، حيث الفرض تخطئة كافة الحكم والعلل المناحرة لأمر الله ونهيه إذ نجهل كثيراً وهو يعلمه، وخير برهان للحق هو أمر الله ونهيه.

وشرّ عصبية هي التي لا تعني أصلاً مهما كان باطلاً يعرف له هذا السبب:

ف: انظروا إلى ما في هذه الأفعال من قمه نواجم الفخر، وقدع طوالع الكبر، ولقد نظرت فأوجدت أحداً من العالمين يتعصب لشيء من الأشياء إلّا عن علّة تحتمل تمويه الجهلاء، أو حجة تليط بعقول السفهاء غيركم، فإنكم تتعصبون لأمر ما يعرف له سبب ولا علة، أما إبليس فتعصب على آدم لأصله، وطعن عليه في خلقته فقال: أنا ناري وأنت طيني -

وأما الأغنياء من مُترفه الأمم، فتعصبوا لآثار مواقع النعم فقالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[2] فإن كان لا بدّ من العصبية فليكن

(١) سورة غافر، الآية: ٦٧.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٣٥.

تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المُجداء والنُّجداء، من بيوتات العرب، ويعاسيب القبائل، بالأخلاق الرغيبة، والأحلام العظيمة، والأخطار الجلية، والآثار المحمودة، فتعصبوا لخلال الحمد[١]...

هنا ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ وفي «ص»: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾[٢] ولم يكن التنديد إلّا بواحدة منهما فكيف التوفيق؟ إضافة إلى أنه لم يمنعه شيء عن عدم السجود حيث المنع عن عدمه واقع لمكان واقعه وهو تاركه!.

﴿مَا مَنَعَكَ﴾ تعني مانع السجود، فـ «أن تسجد» هو الممنوع هنا: عن أن تسجد، و﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ هي نتيجة المنع عنه دون «عن» فإن «أن» هنا مفسّرة وهناك مصدرية، فهما - إذاً - عبارتان عن معنى واحد أياً كانت العبارة عنه.

فـ ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ هنا يعني عن السجود، ثم ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ بيان لنتيجة المنع عن السجود فـ «ما منعك عن السجود ألا تسجد».

ومن الضوابط المستفادة هنا أن الأمر يفيد الوجوب فوراً، فلولا الوجوب هنا لما صح تنديد، ولولا الفور فلماذا فور التنديد، فهذه طبيعة حال أمر المولى أنه يفيد فور الوجوب، اللّهم إلّا أن تدل قرينة قاطعة على خلافه.

ثم وفي نظرة واقعية إلى طبيعة الأمر والنهي - بعد الدلالة القرآنية - نجد الإيجاب الطليق والمنع الطليق، اللّهم إلّا بقرينة قاطعة تقطع طبيعة الدلالة إلى سواها.

ثم «إذ أمرتك» تصريحة قاطعة أنه كان تحت الأمر بصورة خاصة مع

---

(١) (الخطبة: ١٩٠).

(٢) سورة ص، الآية: ٧٥.

عموم الملائكة، فلا يرد أنه ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾[(١)] فلا يشمله أمر الملائكة، أو أنه أمر مرتين ثانيتهما في جمع الملائكة اعتباراً بأنه كان محسوباً منهم لمشاركته إياهم في مظاهر الأعمال الصالحة في الملإ الأعلى.

فلقد ورطه الاستكبار إلى سحيق العذاب ومحيق المآب، فهذا إبليس «اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه لأصله، فعدّو الله إمام المتعصبين، وسلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداءَ الجَبرية، وادَّرع لباس التعزُّر، وخلع قناع التذلل، ألا ترون كيف صغَّره الله بتكبره، ووضعه بترفُّعه، فجعله في الدنيا مدحوراً، وأعدَّ له في الآخرة سعيراً»[(٢)].

«وإن أول معصية ظهرت الأنانية من إبليس اللعين حين أمر الله تعالى ذكره ملائكته بالسجود لآدم وأبى اللعين أن يسجد، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ فطرده الله عزّ وجلّ عن جوار رحمته ولعنه وسماه رجيماً وأقسم بعزته لا يقيس أحد في دينه إلّا قرنه مع عدوّه إبليس في أسفل درك من النار»[(٣)].

ذلك، ومن الإبلاس التأويلات القليلة لأحكام الله حسب الأهواء، كهؤلاء الذين يؤولون أوامر أو نواهي لا يرون تأكيداتها إلى أخلاقيات، وكأنها كلّها من راجحات دون واجبات، فمن واجبات أخلاقية تحقيق الواجبات ومن محرماتها اقتراف محرمات، وحتى لو انحصرت الأخلاقيات في غير الملزمات سلبية أو إيجابية، لم يبرر حمل أوامر ونواهي - دون برهان - على هذه الراجحات!.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ٣٥٦ / ١ / ١٩٠، وفي نور الثقلين ٢ : ٦ في علل الشرائع عن جعفر بن محمد عليه السلام.

(٣) نور الثقلين ٢ : ٦ في علل الشرائع.

ذلك فلما هبط إبليس بما عصى واستكبر أهبطه الله من دار كرامته إلى دار البلية فـ :

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ :

﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ بما هبطتَ فأحبطتَ ما قدّمت ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ : الجنة، وهي دار الكرامة للمكرمين الصالحين ﴿فَٱخْرُجْ﴾ مع الأبد ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ المخرجين الهابطين الخَابطين الذي يستكبرون عليّ إلى يوم الدين. و«الصاغر» هو الدنيء الرذيل.

كـ ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾(١) والعالون يقابلونهم: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾(٢) فقد استكبر صاغراً ولم يكن من العالين المكرمين، أم ومن العالين على آدم ولم يكن.

«فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل وجُهده الجهيد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة لا يُدرى أمن سنّي الدنيا أم من سنّي الآخرة، عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته، كلا ما كان الله سبحانه ليُدخل الجنة بشراً بأمر أخرج به منها مَلَكاً، إن حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد، وما بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة حِمى حرَّمه على العالمين»(٣).

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

(٢) سورة ص، الآية: ٧٥.

(٣) نهج البلاغة الخطبة ٣٥٨ / ١ / ١٩٠، أقول «ملكاً» فيها لإبليس ليس باعتبار جنسه وأصله، إنما هو باعتبار محتده الملائكي في عباده وكما أدخله الله فيهم فيما أمر إذ قلنا للملائكة ولكنه ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

وفيه «ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضيائه، ويبهر العقول روائه وطيب يأخذ الأنفاس عرفه لفعل، ولو فعل لظلت له الأعناق خاضعة، ولخفت البلوى فيه على الملائكة، ولكن الله سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله، تمييزاً بالاختبار لهم، =

وترى «فيها» تختص حرمة الاستكبار على الله بالجنة؟ فلا تحرم في غيرها! إنها تحرمه إلى المكانة مكاناً في الجنة، أن المحرم ليس ليؤتى به في ذلك المكان مهما كان محظوراً ككلّ، فإن للمكان دخلاً في غلظ التحريم.

ثم ترى ذلك الهبوط هو من جزاء ذلك العصيان؟ فكيف أهبط معه آدم وزوجه وقد تابا! إنه من جزاء العصيان مهما كان آكد جزاءً لمن لم يتب، أم إنه طبيعة الحال لمن عصى تاب أم لم يتب، قضية مكانة خاصة لهذه الجنة، والتائبون داخلون جنتي البرزخية والأخرى قضية الامتحان هنا، والنجاح فيه هناك.

﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾:

لقد تطلّب إنظاره ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لمواصلة إضلاله، فأنظره الله، لا إكراماً له وإجابة لدعائه، وإنما إملاء له بمتين كيده، وإملاء لعباده في دار الاختيار الاختبار.

وتراه أنظر إلى ما نظر واستنظر؟ قد تلمح لعنته إلى يوم الدين إلى تحقق ما نظر، وهو المعني - إذاً - من يوم الوقت المعلوم: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾[1] فلعنته إلى يوم الدين قبل استنظاره إليه دليل إنظاره قبله، فإن مديد اللعنة هو قضية مديد الإنظار على سواء، وحديث إنظاره إلى يوم المهدي عليه السلام مأوّل بختام ثورته وفورته، قضيةَ حق الدولة ودولة الحق التي لا تفسح له مجالاً كما كان، حيث يضعف ساعده ويقل مساعده.

= ونفياً للاستكبار عنهم، وإبعاداً للخيلاء منهم - فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس، إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة. .» (الخطبة ١٩٠ / / ٣٥٦).

(١) سورة الحجر، الآيات: ٣٤-٣٨.

لكن هنا ﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ لا يعني ﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ استثناءً له عن الموت في قيامة الإماتة، إنما هو إنظار إلى هذه القيامة الأولى حيث يموت مع كلّ من يموت، ثم يُبعث مع سائر المبعوثين، فلم تُرد إجابته في إنظاره إلى ﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ إنما هو ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ وهو قيامة التدمير قبل قيامة التعمير[1] كما ولعنته إلى يوم الدين تعني حتى قيامة الإماتة، أم مع قيامة الإحياء حتى الأبد، اللهم إلّا في حالة الصقعة حيث لا يشعر فيها لعنة.

ثم في تبديل ﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ بـ﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ وأنه ليس ممن شاء الله من المعنيين بـ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[2] تلميحة أخرى باهرة أنه لم يُنظر إلى يوم الدين الإحياء، بل هو إلى آخر زمن التكليف، ولأن الإنظار إلى يوم الإحياء احترام كما لمن شاء الله حيث يبعث حياً، وهو إلى يوم قيامة الإماتة بلاء واخترام، ثم الغاية من ذلك الإنظار هو تداوم الإضلال ولا مورد له بين الصقعتين، فإن من دون المعصومين الأكارم مصقعون، وهؤلاء المخلصون ليس له عليهم من سلطان، فما هي الجدوى لإنظاره - إذاً - إلى يوم الدين؟ إلّا حياء.

ثم ﴿ٱلْمُنظَرِينَ﴾ قد تعم - إلى الإنظار المتصل للشيطان حيث يستمر حياً - الإنظار المتسلل في حلقات متتالية لسائر شياطين الجن والإنس، كلما مات منهم شيطان أو شياطين ناب عنه شيطان أو شياطين، أم هو إنظار جماعي لكلّ شياطين الجن أو بعضهم وهم حملة مشاكل الشيطنة، حيث الإنظار المتسلل ينعم شياطين الإنس، والقصد من ﴿أَنظِرْنِىٓ﴾ و﴿ٱلْمُنظَرِينَ﴾ هو الإنظار المتسلسل، دون المتسلل.

---

(١) لواسع الاطلاع على ذلك الإنظار راجع تفسير آية الحجر ج ١٤ ص ١٨٠ من الفرقان.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾:

لقد نلد اللعين حينما نفد جوار الرحمة، ودخل بوار الزحمة، فنسب غوايته إلى الله، أم قد يعني من هذه النسبة أنه تعالى ابتلاه بما أغواه وأهواه، وهو معترض على الله بما ابتلاه!.

﴿قَالَ لَأَقْعُدَنَّ... لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ كحارس على مدخل الصراط، حارص على الإغواء عن الصراط، حارث للغواة إلى حزبه، وهذه الحراسة لعنة ورحمة، لعنة كما يعنيه إبليس ويحققه من إضلال المتطرقين للصراط المستقيم، ورحمة لا يعنيها وهي إخلاص الوافدين إلى الله، أن يغدوا إليه بمطاردة اللعين، وكافة الأهواء الحاجبة بينهم وبين الله، إذاً «فأعطاه النظرة استحقاقاً للسخطة واستتماماً للبلية وإنجازاً للعدة فقال: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾[1]»[2].

وقد تلمح ﴿لَهُمْ﴾ لما لم يقصده من الرحمة، ولما قصده من الزحمة إظهاراً لها بمظهر الرحمة، حيث يزيّن لهم موقفه من «الصراط المستقيم» فإنه يزين لهم الباطل حتى يروهُ حقاً، وكما وعد: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[3] وكأن اللّعين يعني بمكره هذا وإغوائه عذراً جزاءً إغواءه من الله، رغم أن إغواءه عدلٌ وإغواء الشيطان ظلم.

وعلى أية حال فقد كان قعوده على الصراط المستقيم لهم في ظاهر التصميم قصداً حيث يتظاهر به، ثم هو في الصميم دون قصد، وهو يخفي عنهم أنه قاعد الصراط المستقيم عليهم، فلذلك قال «لهم» دون «عليهم».

---

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٣٧، ٣٨.

(٢) نهج البلاغة من الخطبة القاصعة للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام وقد أوردناها بتفسيرها في ج ١٤ ص ١٧٢ من الفرقان فراجع.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٣٩.

ومن أخطر ما يقعد لنا الصراط المستقيم ما يخيل إلينا في الصلاة من وجدان ما نفقده حالتها، حيث يُزين لنا التفكر فيها لما هو خارج عنها حتى نحصل على بُغية لنا عزيزة فنحظو به زاعمين أن الصلاة هي مجالة صالحة للحصول على ضالاتنا المنشودة، وكيف نعمل حتى نحصل على هذه الضالات؟ إنه يخليّ بيننا وبينها فترة مترقبة، فيزول حجابه من هذا البين، فيتبيّن لنا ما خفي عنا بحجابه هو، فإننا نطّلع على كثير من الحقائق لولا الحجب بيننا وبينها، ومن أهمها حجاب الشيطان نفسه، فبزواله ومزاولة التفكير نحصل على البعض من الحقائق المحجوبة، فيخيّل إلينا أنّ الصلاة هي من أفضل المسارح للحصول على ضالاتنا المنشودة التي لا نحصل عليها في غيرها.

ثم و﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ ليست لتعني الإغواء البدائي دونما استحقاق، بل هو إغواء المكر الربّاني عدلاً بمكره هو، أنه أمره على علمه أنه لا يأتمر فيهبط، وأمره لكي يظهر كفره، فلذلك هو يمكر عباده كما يمكرون ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(١).

ذلك! «فاحذروا عباد الله عدوّ الله أن يُعديكم بدائه، وأن يستفزكم بندائه، وأن يجلب عليهم بخيله ورجله، فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد، وأعرق إليكم بالنزع الشديد، ورماكم من مكان قريب فقال: رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين، قذفاً بغيب بعيد، ورجماً بظن غير مصيب، صدقه به أبناء الحمية، وإخوان العصبية، وفرسان الكبر والجاهلية، حتى إذا انقادت له الجامحة منكم، واستحكمت الطاعية من فيكم، فنجمت الحال من السير الخفي إلى الأمر الجلي، استفحل سلطانه عليكم، ودلف بجنوده نحوكم، فأقحموكم وَلَجات الذل، وأحلوكم ورطات

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.

القتل، وأوطؤوكم إثخان الجراحة، طعناً في عيونكم، وحزّاً في حلوقكم، ودّقاً لمناخركم، وقصداً لمقاتلكم، وسوقاً بخزائم القهر إلى النار المعدة لكم، فأصبح أعظم في دينكم حرجاً، وأورى في دنياكم قدْحاً، من الذين أصبحتم لهم مناصبين، وعليهم متألبين، فاجعلوا عليه حدَّكم، وله جِدكم، فلعمر الله لقد فخر على أصلكم، ووقع في حسبكم، ودفع في نسبكم، وأجلب بخيله عليكم، وقصد برجله سبيلكم، يقتنصونكم بكلِّ مكان، ويضربون منكم كلّ بنان، لا تمتنعون بحيلة، ولا تدفعون بعزيمة، في حومة ذل، وحلقة ضيق، وعرصة موت، وجولة بلاء، فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية، وأحقاد الجاهلية، فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته، ونزعاته ونفثاته، واعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم، وإلقاء التعزز تحت أقدامكم، وخلع التكبر من أعناقكم، واتخذوا التواضع مَسْلَحة بينكم وبين عدوّكم إبليس وجنوده، فإن له من كلِّ أمة جنوداً وأعواناً، ورَجْلاء فرساناً، . .»(١).

(١) نهج البلاغة الخطبة (١٩٠) وفيه تحذير عن الكبر «ألا وقد أمعنتم في البغي، وأفسدتم في الأرض، مصارحة لله بالمناصبة، ومبارزة للمؤمنين بالمحاربة، فالله الله في كبر الحمية وفخر الجاهلية، فإنه ملاقح الشن آن، ومنافخ الشيطان، التي خدع بها الأمم الماضية، والقرون الخالية، حتى أعنقوا في حنادس جهالته، ومهاوي ضلالته، ذللاً عن سياقه، سلساً في قياده، أمراً تشابهت القلوب فيه، وتتابعت القرون عليه، وكبراً تضايقت الصدور به» (١٩٠).

«ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم، الذين تكبروا عن حسبهم، وترفعوا فوق نسبهم، وألقوا الهجينة على ربهم، وجاحدوا الله على ما صنع بهم، مكابرة لقضائه، ومغالبة لآلائه، فإنهم قواعد أساس العصبية، ودعائم أركان الفتنة، وسيوف اعتزاء الجاهلية. . ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم، وخلطتم بصحتكم مرضهم، وأدخلتم في حقكم باطلهم، وهم أساس الفسوق، واحلاس العقوق، اتخذهم إبليس مطايا ضلال، وجنداً بهم يصول على الناس، وتراجمة ينطق على ألسنتهم، استراقاً لعقولكم، ودخولاً في عيونكم، ونفثاً في أسماعكم، فجعلكم مرمى نبله، ومَوطئ قدمه، ومأخذ يده. .» (الخطبة ١٩٠).

=

هنا ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ قد تعني الصراط المحيط بالإنسان حيث يبتلعه أو يبتلعه السالك، دون صراط الرب المخصوص به ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] فإنما هو صراطه الذي قدره للسالكين إلى مرضاته.

إذاً فإتيان السالك لصدِّه عن سلوكه بحاجة إلى حصر مربعة الجهات، وهي بطبيعة حال الصراط روحياً، وأن الإضلال ليس يتوجه إلّا إلى الأرواح، ثم الجهات المحيطة بالجسم ست وليست أربعاً، فهي الجهات الروحية: صراط العلم والمعرفة به، وصراط الإيمان، والتصديق له، وصراط العبودية الخالصة، وبتعبير آخر صراطي المعرفة والعبودية فإنهما واحد حيث يشكلان الهدي إليه والزلفى دونما تفلّت أو تلفت عنه.

ف ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ بكلٍّ ما يستقبله السالك ويستقبل السالك من الآخرة والأولى وما بينهما، من أعمال وآمال وسائر الآماد المستقبلة، استخداماً لها كلها لتضليله، صداً عن حاضره ومستقبله من صراط الله، ولكيلا يستقبل خيراً.

﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ مما يستدبره السالك من دنياه بأعماله المسلوكة سلك الصراط، هدماً له وحبطاً إياه، تزييناً لقبحه وتقبيحاً لصالحه.

﴿وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ وهي أيمان الدين حيث يأتي بنقاب القدسية الشرعية ويصد عنها، إلى أيمان الفِطَر والعقول والأفكار والصدور والقلوب، فتشل الأيمان التي هي ذرائع إلى الصراط المستقيم.

﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ وهي شهواتهم حيث يزينها لهم فيحسبون أنهم يحسنون

= وأستأدي الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم وعهد وصيته إليهم في الإذعان بالسجود له والخشوع لتكرمته فقال سبحانه: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البَقَرَة: ٣٤] فسجدوا إلّا إبليس اعترته الحمية وغلبت عليه الشقوة وتعزز بخلقه النار واستهون خلق الصلصال فأعطاه الله النظرة استحقاقاً للسخطة واستماماً للبلية وإنجازاً للعدة.. (الخطبة ١).

(١) سورة هود، الآية: ٥٦.

صنعاً(١) وإلى أنفسهم الأمارة بالسوء وأعمالهم السيئة، فالعقلية الإيمانية والشهوة الشيطانية هما من المداخل الأنفسية للشيطان، ثم الآخرة والأولى هما من المداخل الآفاقية إلى إضلال الإنسان، وحينئذ تنسد عليه كلّ منافذ الصراط المستقيم.

فقد يقعد لهم الشيطان ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ قعدة شيطانية تحلّق على هذه الجهات الأربع، حصراً في الشهوات وحسراً عن العقليات، والنتيجة الحاسمة: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ حيث يتلفتون إلى الشيطان ويتفلّتون عن الرحمن، ثم يبقى أقلهم وهم المخلصون: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾(٢).

أجل، ولأن ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ليس طريقاً حسياً، فالجهات الأربع في قعدة الصراط - الإبليسية - كذلك ليست هي الجهات الحسية الجغرافية - وهي ست - بل هي الجهات المعنوية التي تعني الحياة الإنسانية، الناحية منحى الصراط المستقيم من تعمير مثلث زمان التكليف بإحكام العقلية الإنسانية وأحكامها على ضوء الفطرة والوحي، وحصر الأهواء الطائشة وأسرها عما لا يحل.

ذلك، وفي نظرة أوسع نرى ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ تحلقان على كافة الآيات الآفاقية، ثم ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ تشملان كلّ الآيات الأنفسية، ثم ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ تعم كافة الآمال والأحوال المستقبلة، مقبولة لديك أو

(١) عن مجمع البيان روي عن أبي جعفر عليه السلام ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧] معناه أهوّن عليهم أمر الآخرة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧] آمرهم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧] أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧] بتحبيب اللذات إليهم وتغليب الشهوات على قلوبهم.

(٢) سورة ص، الآيتان: ٨٢، ٨٣.

محتملة، واقعة أو متخيلة، فمنها الحياة البرزخية والحياة الأخرى حيث يأتينا منهما نكراناً لهما أم تزييفاً لموقفهما حتى لا تؤثرا في صالح الأعمال.

و﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ تشمل كلَّ خلف للكون، ومنها هل له من خالق؟ حيث يتفلسف مادياً لاثبات أزلية المادة، أم في تفلسف آخر يقرر أصول الفلسفة المنحرفة كالأزلية الزمانية للعالم، ووحدة حقيقة الوجود بين الخالق والمخلوق، ومسانختهما لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وغل يدي الخالق حيث الواحد لا يصدر منه إلّا واحد، وما أشبه من خلاف العقل والنص كتاباً وسنة.

أم القول بالتعدد اللاهوتي ثنوياً أو ثالوثياً وما أشبه من الخرافات المحلقة على فكرة «الله».

ثم ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ تعم العقل بجنوده ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ تشمل الجهل وجنوده، إظهاراً للعقل بجنوده جهلاً، وللجهل بجنوده عقلاً، وخلطاً بين كلِّ حق وباطل للبسطاء الذين لا يعقلون، بل والخلط على العلماء، اللهم إلّا المخَلصون والمخِلصون.

وكما أن ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ تشمل كل خلف قريب أو بعيد، كذلك ﴿بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ بل وهي أشمل منها حيث تشمل الحاضر إلى المستقبل.

فقد يحلق الشيطان في إغوائه على كلِّ الآيات الآفاقية والأنفسية[١].

وبصيغة أخرى الصراط هو الدين، فـ ﴿صِرَٰطَكَ﴾ هو دين الله، جعله الله

---

(١) وهنا إجابة عن شطحات إبليسية سبع كلمة واحدة ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] بالمعترفون بالله مشركين أو موحدين ليس لهم سؤال الاعتراض على الله حيث المسؤول إنما هو الظالم - الجاهل - القاصر أو المقصر، ولأننا لا نحيط علماً وهو بكلِّ شيء محيط فلا سؤال إذاً اللّهم إلا تفهماً.

والأمور أمامنا ثلاثة: منها ما نعرف حكمة لها، وأخرى لا نعرف، وثالثة يخيل إلينا أنها خلاف الحكمة، فلأن الله تعالى حكيم عليم لا يخطئ ونحن نخطئ فقضية العقل أن نتهم عقولنا المحدودة دون الحكمة الربانية الحكيمة العليمة. =

طريقاً للنجاة والمفاز، وإنما قال: ﴿صِرَٰطَكَ﴾ حيث الدين هو الطريق المؤدية إلى مرضاته، إلى قربه وزلفاه ومثوبته، فكان إبليس لعنه الله إنما يوعد بالقعود على طريق الدين - الشاملة على الجهات الأربع - ليضل عنه كلّ قاصد، ويرد عنه كلَّ وارد بمكره وخدائعه وتلبيساته، كالقاعد على مدرجة بعض السبل ليخوف السالكين منها، ويعدل بالقاصدين عنها، فهو «يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ليقتحم غفلته ويستنب غرته»(١).

ولماذا «من» في الأولين و«عن» في الآخرين، علّه لأن «بين أيديهم وخلفهم» هما جهات منفصلة عنا فهو يأتينا منهما إلينا حتى يضلنا عنهما، ولكن «أيمانهم وشمائلهم» هما فينا، فليأتنا تجاوزاً عنهما، فالأيمان هي الفطر والعقول والأديان. والشمائل هي الأنفس الأمارة بالسوء والشهوات.

ثم وذلك الإتيان المربعة الجهات هو بوعده وتمنيّه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾(٢) وتخويفه عن سلوك الصراط: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾(٣) كما ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾(٤) ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٥).

= فمهما جاز لنا أن نخطّئ من هو أعلم منا بما علمناه خلافه، لا يجوز لنا أن نخطّئ ربنا إذ لا يمكن منه الخطأ، فحتى إذا وصلنا بعقولنا أم علومنا أم حواسنا إلى خطأ في خلق.
فما لا ريب فيه جواز الخطأ لنا دون الله فلنخطئ آراءنا دون الله.
ثم الملحدون في الله الناكرون إياه لا مورد لهم لسؤال، اللهم إلّا قولهم: إن كان الله هو الذي خلق ما خلق فلماذا..؟ والجواب أنه لأنه الله الخالق المحيط بكلّ شيء، الغني عن كلّ شيء. فقد يجب عليكم أن تخطئوا حلومكم وعلومكم أمام علمه المحيط.

(١) نور الثقلين ٢: ١٠ في نهج البلاغة من كتاب له عليه السلام إلى زياد ابن أبيه - وقد بلغه أن معاوية قد كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه - وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستنزل لبك ويستفلّ غربك فاحذره فإنما هو الشيطان يأتي المرء..

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٦٩.

وعلى الجملة كلّ خطواته المحلّقة على مربعة الجهات: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾(١) وذلك هو احتناكه لهم كما وعد: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٢).

وقد تعني ﴿شَاكِرِينَ﴾ ما يعم المخلِصين إلى المخلَصين، ويؤيده: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾(٣) والمخلِصون - كما المخلَصون - ليسوا من الغاوين مهما اختلفت الدرجات، فإتيان الشيطان عن اليمين: الدين، يعم الدينين وغير الدينين، فالأولون يؤتَون بتشكيكات حول الدين، أو تأويلات بتسويلات، وتسهيلات في الدين تلائم كافة التخلفات والتحذلقات كالصوفية العارمة التي لا تبقي للدين إلّا صورة خيالية لا واقع لها في واقع الحياة.

والآخرون يؤتون بما يبعّدهم عن التحرّي عن الدين، مهما كان صورة له بلا سيرة. وهكذا ﴿شَمَائِلِهِمْ﴾ و﴿بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ و﴿خَلْفِهِمْ﴾ فإن له خطوات للتضليل حسب القابليات، من ضيّقة إلى واسعة وإلى أوسع حتى يورد السالكين موارد الهالكين فضلاً عمن سواهم، وكما قال أبو جعفر عليه السلام: «يا زرارة إنما عمد لك ولأصحابك فأما الآخرون فقد فرغ منهم»(٤).

فقد يأتينا الشيطان بخيله ورجله من كافة المداخل الآفاقية والأنفسية، صداً عنهما خلاف ما أراده الله منا ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(٥) فـ ﴿مَنْ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٨.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٢.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٤٢.
(٤) نور الثقلين ٢: ١٠ في روضة الكافي ابن محبوب عن حنان وعلي بن رئاب عن زرارة قال: قلت له قوله عزّ وجلّ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ...﴾ [الأعراف: ١٦] فقال:..
(٥) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ تعم الحاضر إلى المستقبل وهما النشآت الثلاث بما فيها. و﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ تعم في الغابر كلما حصل منه وممن سواه ومن الله، وهما مشركان في الانفصالية الآفاقية.

ثم «عن أيمانهم» تعم أيمان الفِطَر والعقول والعقيدة في مثلث الزمان، «وعن شمائلهم» تعم شمائل النفس الأمارة بالسوء ومخلفاتها، وهما العقل والجهل بجنودها، ويشتركان في الاتصالية الأنفسية، وهذا هو الفارق بين المعبر فيها بـ«من» وأخرى بـ«عن» حيث يختلف مجيئه «من» آفاقياً، عن مجيئه «عن» أنفسياً، هنا تجاوزاً عنها إلى الأنفس، وهناك صدوراً من آفاقها إليها.

وهؤلاء الذين يحيط بهم الشيطان من هذه الجهات الأربع فيضلهم هم الذين:

«اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً، واتخذهم له أشراكاً، فباض وفرخ في صدورهم، ودبّ ودرج في حجورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل، وزيَّن لهم الخَطَل، فعل من شركه الشيطان في سلطانه، ونطق بالباطل على لسانه» (الخطبة ٧).

ذلك، وفي توسع لـ ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وهو شرعة الله، قد يعني إلى محمد ﷺ الدال على أعلى الصراط، آل محمد عليهم السلام الدالون إلى الصراط المحمدي المستقيم. وذلك تأويل جميل بأصدق مصاديق ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[1] [2].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦.

(٢) ملحقات إحقاق الحق ١٤: ٦٤٢ روى الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ١: ٦١ بسنده عن علي عن سعد عن أبي جعفر عليه السلام قال: آل محمد الصراط الذي دلّ الله عليه، ورواه عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام مثله. =

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾:

﴿مَذْءُومًا﴾ من الذَّامْ: العيب، اخرُج معيوباً بأنحسه، استكباراً على ربك، ﴿مَدْحُورًا﴾ مطروداً عن ساحة قربه وجنته ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ لحدٌّ يُحسب بحسابك، ويدخل في حزبك ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ﴾ تابعين ومتبوعين ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

وهنا ﴿اخْرُجْ﴾ تعني أمراً تشريعياً فلإبليس ألا يأتمره وكما لم يخرج وقد تخلف عنه (١، ٢١).

ولكن ذلك الخروج بالأمرين كان بعد فترة الابتلاء لآدم وزوجه وكما فصلناه في آية البقرة:

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾:

وهذا السكون والسَّكَن المسموح بصيغة الأمر هو دوامته ما قاما بشرطها أن: لا تقربا هذه الشجرة فتكونا - إذاً - من الظالمين شرعة الله، والظالمين أنفسكما، وقد مضى القول الفصل في البقرة أنه نهي باتٌّ تشريعي كان اقترافه ظلماً وعصياناً وغواية وشقوة وضلالة وزلة وما أشبه، المسرودة بطيات آياتها.

= وفيه ٤: ١٧٠ و١٤: ٣٧٨ - ٣٧٩ قوله ﷺ لعلي عليه السلام: أنت الطريق الواضح والصراط المستقيم والصراط المستقيم ولاية أمير المؤمنين عليه السلام (١٤: ٤٨٧) و«نحن الطريق الواضح والصراط المستقيم» (١٣: ٨٣ - ٨٤) و«نحن أبواب الله ونحن الصراط المستقيم ونحن عيبة علم الله» (١٣: ٨٢) و«من اقتدى بهم هُدي إلى صراط مستقيم» (٤: ٥٩) ويا علي أنت صراط الحمية (٤: ١٠٣ و٧: ١٢٥) و«حب آل محمد جواز على الصراط» (٩: ٤٩٤ - ٤٩٦ و١٨: ٤٩٦ - ٤٩٧) و«يا علي الصراط صراطك» (٧: ١٢٤) و«علي يقعد على الصراط» (٦: ٢١٢) و«لا يجوز أحد الصراط إلّا بولاء علي عليه السلام» (٧: ١١٥ - ١٢١ و١٧: ١٥٨ - ١٦٢ و٢١: ٥١٧ - ٥٢١).

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

﴿فَوَسْوَسَ... لِيُبْدِيَ﴾ كغاية من غاياته الشيطانية المحلِّقة على كلٍّ شيطناته المعنيَّة من تلك الوسوسة، و﴿لَهُمَا﴾ هنا كما ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾[1] تعني ظاهرة النفع في وسوسته وكما قال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا...﴾.

وترى ما هي ﴿سَوْءَٰتِهِمَا﴾ الموارى عنهما قبل الوسوسة البادية؟ إنها عوراتهما المواراة بلباس هذه الجنة - منذ خلقا - حيث هما بعد ظهورها بنزع لباس الجنة ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾[2] أم وسوءات أرواحهما إضافة إلى هذه السوءات وهي أحرى بهذا الكيد اللعين حيث عرفا أنهما عاصيان ربهما بعد ما خُيِّل إليهما العصمة بما أسجد الله له ملائكته وكرمه عليهم، ولكن ورق الجنة لا يخصف سوءات الروح، اللهم إلّا أن يوسع ورق الجنة بمطلق سترها عن عورات!.

وليست من هذه السوءات عدم معرفة الحسن والقبيح لمكان المناهي المؤكدة المشددة عن هذه الشجرة، ولا موقع لها إلّا للعارف الحَسَن والقبيح، فتفسير السوءات بهذه المعرفة أمّا يشملها هي من سوءات التفسير في حقل المعرفة.

وليس من البعيد خفاء عورات الجسم عمن هو في بداية خلقه ولمّا يفتش عن جسمه وهو موارى بلباس الجنة الذي لا داعي لأهلها أن ينزعه ليكشف ما تحته المجهول لديه، أم والمجهول أن تحته عورات، حيث انشغلا بنعيم الجنة وجوار الرب والرحمة عما سواه، حتى شغلهما الشيطان بما وسوس لهما وقاسمهما ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.

ووُوري مجهول واري، فقد فاعلت رحمة الله واتجاههما إلى نعيم الجنة في ستر عوراتهما فلم يفتشا عنها.

﴿وَقَالَ﴾ في وسوسته لهما ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ لأن فيها مضرة بكما، أو معرَّة عليكما ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ بذوقها تحولاً بها عن الحالة البشرية إلى حالة الملكية ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ فيها.

وترى هذا ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ مادّة هي مادةٌ لهما تمدّهُما إلى ذلك الغُرور من الغَرور؟ فكيف مدهما إليه ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ وآدم هو فوق الملائكة إذ أسجدهم الله له، وعرفه كما عرفهم بتلك الفضيلة الكبرى وقمة المنزلة؟.

علّهما لم ينغرّا إلّا بالغُرور الثاني، أم - فقط - بغرور المقاسمة بين ثالوثه كما تلمح له ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ بعد ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أم - لو انغرا بغرور ﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ فذلك لأن الملك خالد في الجنة مهما كان له تردد إليها في ذلك الخلود، فمادة الغرور الأولى هي «الخلود» سواءً أكان بـ ﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أو بأن ﴿تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ غير ملكين.

وبوجه آخر إن ﴿مَلَكَيْنِ﴾ هنا مضمّنة معنى الملك إلى الملكية، وقد يدل عليه ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾(١).

فـ ﴿شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ عبارة أخرى عن ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ فـ ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ عبارة عن ﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ فلم يكن القصد - إذاً - مجرد الملكية، بل والسلطة الملكية، أن تكونا قادة في الجنة.

ثم وللملكية ميّزة عدم زحام النفس مع العقل إضافة إلى الخلود فقد يعني بـ﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ زيادة هاتين الميّزتين إلى ميزة الإنسانية.

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٠.

ومهما يكُن من شيء فظاهر الغرور الذي مدهما إلى عصيان هو ثالث ثلاثة، فإن ساحة آدم عليه السلام بريئة عن تصديق الشيطان في تكذيب الرحمن، فإن في تصديقه الأوّل والثاني تكذيباً لله حيث نهى وهدّد، بخلاف الخلود عصياناً فغواية وزلة وضلالة وشقاء وعناء، فلذلك:

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾:

ولو كان لهذين الغرورين تأثير لما كان بحاجة إلى المقاسمة، إذ لا مجال لها إلّا عند فقدان البرهان، فلم يكن - إذاً - في هذين برهان يُقنعهما بغروره إياهما، مهما كان لهما تأثير ما لذلك المد المديد المنتهي دوره فيها بما قاسمهما.

هنا ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ مفاعلة، دون «أقسم لهما» فعلاً، دليل تعاطي الإقسام بينه وبينهما، بادئاً منه كما هي قضية المفاعلة.

فقد بدأ بالإقسام بالله لهما ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ فطلبا منه مؤكّد الإقسام، فخيّل إليهما - بعد تمام المقاسمة بشروطها المرضية - كأن الله نسخ ما نهى إذ لم يكونا يظنان أن أحداً من خلق الله يقسم بالله كاذباً، ولكن كان عليهما ألّا يصدقا الشيطان الذي استكبر على الله في تركه السجود له، وكما الله عرّفه إيّاه مراراً وتكراراً ﴿إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾(١) وكيف يعتمد على قيلة النسخ بغيلة الشيطان وهو عدوٌّ لله وعدوٌّ له، وبالمآل ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾(٢).

وقد يبقى هنا أن نتساءل جدنا الأوّل، هب أنك ما غرّك ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ﴾ فكيف غرك بعد ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾؟ فهل

(١) سورة طه، الآية: ١١٧.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢١.

اعتبرت عصيان ربك نصيحة من الشيطان فالله نهاك - إذاً - بخلاف النصح؟ وذلك كفر قاطع!.

علّه في تلك المقاسمة المكيدة حاول ليثبت أن ذلك النهي منسوخ حيث فلّ حرّاس الشجرة عما حولها بعد ما احتفوا بها - كما في الخبر - فقاسمهما أنني ناصح لكما بما نصح الله حيث نسخ النهي، ودليلاً عليه تفرق الحرّاس! ولكن كيف يعتمد آدم على ذلك التفرق ولا ينسخ قاطع النص إلّا بقاطع النص وليس فليس، فالقادر المعلوم في هذا المسرح أن آدم انغر بغرور الغرور حيث لم يكن يحسب أن أحداً من خلق الله يُقسم كاذباً بالله، إضافة إلى انجذابه إلى الشجرة إذ قد تُخلده في دار الكرامة، فعلّ ربه نهاه عنها سلباً عنه هذه الكرامة إذ لا يليق لها، فقد اقترف عصياناً، لا كفراً كما يغل، ولا ترك الأولى كما قيل فيما غيل دون أي دليل.

إذاً فاحتمال أن آدم إنما انغر بغُرور الغَرور، قضية المقاسمة واحتمال أن نهيه عن الشجرة يعني نفيه عن الخلود في دار القرب والكرامة، فرجح القرب رغم النهي عن البعد إذا انتهى، فهي معصية غير كبيرة إذ لم تضمن تكبراً على الله، ولا تعمداً في اقتراف نهي الله، وإلّا لكان مصيره مصير الشيطان، إنما هو عصيان - فقط - للتخلف عن النهي، ويصغره أنه كان بين مقاسمة وأمل للبقاء في دار القرب والكرامة.

ذلك الاحتمال وارد لا مردّ له، كما لا مردَّ لأصل عصيانه تخلفاً عن النهي الصارم الحارم إياه عن هذه الشجرة.

فلا إفراط - إذاً - بحقه أنه أتى بعصيان كبير يُقارب عصيان الشيطان، ولا تفريط أنه ترك الأولى، بل هو عوان بينهما لا حِوَل عنه إلى أحدهما.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ

ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾:

فيا ويلاه من ذلك الأوان ببداية العصيان من أبوينا الأولين، حيث «أسكن سبحانه آدم داراً أرغد فيها عيشه، وآمن فيها محلته، وحذره إبليس وعداوته، فاغتره عدوّه نفاسة عليه بدار المقام، ومرافقة الأبرار، فباع اليقين بشكه، والعزيمة بوهنه، واستبدل بالجَذَل وَجَلاً، وبالاغترار ندماً، ثم بسط الله سبحانه له في توبته ولقَّاه كلمة رحمته، ووعده المردَّ إلى جنته، وأهبطه إلى دار البلية، وتناسل الذرية»(١).

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ أنفسهما الغرور بدلائه الثلاثة ﴿بِغُرُورٍ﴾ فأصبحا دلوين دلاهما بحبل الغرور كالأرشية في هذه الطوى البعيدة! بما وعدهما وقاسمهما ﴿فَلَمَّا

---

(١) نهج البلاغة (الخطبة ١ / ٢٨) وفيه «فلما مهد أرضه وأنفذ أمره اختار آدم عليه السلام خيرة من خلقه وجعله أول جبلته، وأسكنه جنته، وأرغد فيها أكله، وأوعز إليه فيما نهاه عنه، وأعلمه أن في الإقدام عليه التعرض لمعصيته، والمخاطرة بمنزلته، فأقدم على ما نهاه عنه - موافاة لسابق علمه - فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله، وليقيم الحجة به على عباده» (الخطبة ٨٩ / ٣ / ١٧٤).

وفي نور الثقلين ٢: ١١ عن عيون أخبار الرضا عليه السلام من حديثه حول عصيان آدم وزوجه ولم يكن آدم وحواء شاهدا قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢] «فأكلا منها ثقة بيمينه بالله، وكان ذلك من آدم قبل النبوة ولم يكن ذلك بذنب كبير استحق به دخول النار، وإنما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم، فلما اجتباه الله تعالى وجعله نبياً كان معصوماً لا يذنب صغيرة ولا كبيرة» قال الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢] وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

وفيه عن تفسير القمي روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما أخرج الله آدم من الجنة نزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال: يا آدم أليس الله خلقك بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وزوجك أمته حواء وأسكنك الجنة وأباحها لك ونهاك مشافهة أن لا تأكل من هذه الشجرة فأكلت منها وعصيت الله؟ فقال آدم: يا جبرئيل ان إبليس حلف لي بالله أنه لي ناصح فما ظننت أن أحداً من خلق الله يحلف بالله كاذباً.

أقول: لمزيد الاطلاع على تفاصيل القصة راجع تفسير الآيات في البقرة.

ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ المنهية ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا - الخفية - وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ حيث نزع عنهما لباسهما بما غرهما ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ . . .﴾.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

اعتراف بالظلم العصيان، وتطلُّب للغفران، وإلّا فورد الخسران، وقد غفر لهما واجتبى آدم بعد ما تاب عليه وهدى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾(١) ولكنه لم يرجعهما إلى جنته بتوبته:

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾:

هبوط جمعي يضم إبليس إليهما ويضمهما إلى إبليس، فله هبوط حابط خابط، ولهما هبوط عن الجنة إلى دار المحنة والبلية: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢).

وهنا ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ دليل أن الهبوط كان من علٍّ فوق الأرض، فهو هبوط في المكان كما المكانة، وأما ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾(٣) في أخرى، فهو هبوط عن مكانة الدعة والراحة، ولا يدل هذا الهبوط بقرينته القاطعة على أنه من أرض إلى أرض، على أن ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ أيضاً هكذا وقرينته مضادة لتلك!.

والقدر المعلوم من العداوة في ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ هو المعلوم بين الشيطان والإنسان، عداوة لا تزول فإنها لا تزال بينهما قائمة طول زمن التكليف، فلا تعني العداء بين الناس أنفسهم، فإنها مرفوضة وأحيانية، وتلك

(١) سورة طه، الآيتان: ١٢١، ١٢٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٦١.

العداء مفروضة وفي كلِّ الأحيان، اللّهم إلّا عداء ضمن عداء، بما هو قضية ذلك العداء، حيث ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾[١].

وأما ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[٢] فقد يعني هبوط قبيلي الشيطان والإنسان، أم قبيل الإنسان، والمحصور إذاً فيهما قضية دار البلية والامتحان، و﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾.

وعلى أية حال ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣] وهي بعد ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[٤].

فالهبوط الجمعي بعد ذكر الشيطان وآدم وزوجه، إنه نصّ في هبوطهم جميعاً دون ريب.

وهنا ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يعني حين الموت وحين قيامة الإماتة، وهذه لمحة أخرى إلى مديد إنظار الشيطان أنه كان إلى هذه القيامة، دون «يوم يبعثون» خلافاً لما تطلّبه ألا يموت مع الموتى.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

فأرض التكليف البلية، والاختبار الاختيار، هي المحيى والممات والمخرج إلى القيامة الكبرى، سفرة مثلثة الجهات فيها.

وإلى هنا انتهت التجربة الأولى في حق الإنسان الأوّل بحقل الجنة، وتكشفت خصائص الإنسان الكبرى، واستعد - إذاً - لخصائصه الكامنة لمزاولة خلافته الأرضية عن الغابرين، وللدخول في معركته المصيرية مع

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٨.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٣٦.

عدوّه المعلن في بداية القضية، فالعداوة مستمرة بينه وبين الشيطان، ثم وبين بني الإنسان أنفسهم بنوازع شيطانية.

فلقد هبطوا إلى الأرض، أرض الصراع الدائم والنزاع القائم، بين محض الشر، ومزدوج الاستعداد لكلا الخير والشر، فانتهت الجولة الأولى تتبعها جولات وجولات على مدى هذه الحياة.

وإليكم على ضوء هذه الآيات الناصعة القاصعة الخطبة القاصعة لعلي أمير المؤمنين عليه السلام حيث يعرض فيها مداخل الشيطان ومخارجه من الإنسان:

«الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء، واختارها لنفسه دون خلقه، وجعلها حِمىً وَحَرَماً على غيره، واصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده، ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[1] ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴿٣١﴾﴾[2] اعترضته الحمية، فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه لأصله، فعدو الله إمام المتعصبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبرية، وأدرع لباس التعزز، وخلع قناع التذلل.

ألا ترون كيف صغَّره الله بتكبره، ووضعه الله بترفُّعه، فجعله في الدنيا مدحوراً، وأعدّ له في الآخرة سعيراً، ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياءه، ويبهر العقول رواؤه، وطيب يأخذ الأنفاس عرفه لفعل، ولو فعل لظّلت له الأعناق خاضعة، ولخفّت البلوى فيه على

---

(١) سورة ص، الآية: ٧١.
(٢) سورة الحجر، الآيات: ٢٩-٣١.

الملائكة، ولكن الله سبحانه ابتلى خلقه ببعض ما يجهلون أصله تمييزاً بالاختبار لهم، ونفياً للاستكبار عنهم، وإبعاداً للخيلاء منهم - فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس، إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد، وقد كان عبد الله ستة آلاف سنة لا يُدرى أمِن سنيّ الدنيا أم من سنيّ الآخرة عن كبر ساعة - فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته؟ كلّا! ما كان الله سبحانه ليُدخل الجنة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً، إن حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد، وما بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة حِمىً حرّمه على العالمين.

فاحذروا عباد الله عدوَّ الله أن يُعديكم بدائه، وأن يستفزكم بندائه، وأن يجلب عليكم بخيله ورجله، فلعمري لقد فوّق لكم سهم الوعيد، وأغرق لكم بالنزع الشديد، ورماكم من مكان قريب وقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(١) قذفاً بغيب بعيد، ورجماً بظن غير مصيب، صدّقه به أبناء الحمية، وإخوان العصبية، وفرسان الكبر والجاهلية، حتى إذا انقادت له الجامحة منكم، واستحكمت الطاعِيَة منه فيكم، فنجمت الحال من السر الخفي إلى الأمر الجلي، استفحل سلطانه عليكم، ودلف بجنوده نحوكم، فأقحموكم وَلَجاتِ الذل، وأحلّوكم وَرَطات القتل، وأوطأوكم إثخان الجراحة، طعناً في عيونكم، وحزّاً في حلوقكم، ودقّاً لمناخركم، وقصداً لمقَاتلكم، وسوقاً بخرائم القهر إلى النار المعدة لكم، فأصبح أعظم في دينكم جرحاً، وأورى في دنياكم قدحاً، من الذين أصبحتم لهم مناصبين، وعليهم متألبين، فاجعلوا عليه حدّكم، وله جدكم، فلعمر الله لقد فخر على أصلكم، ووقع في حسبكم، ودفع في نسبكم، وأجلب بخيله عليكم، وقصد برجله سبيلكم، يقتنصونكم بكلِّ مكان، ويضربون منكم كلَّ

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٣٩.

بنان، لا تمتنعون بحيلة، ولا تدفعون بعزيمة في حومة ذُل، وحلقة ضيق، وعرصة موت، وجولة بلاءٍ، فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية، وأحقاد الجاهلية، فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته ونزعاته ونفثاته، واعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم، وإبقاء التعزز تحت أقدامكم، وخلع التكبر من أعناقكم، واتخذوا التواضع مَسلَحة بينكم وبين عدوِّكم إبليس وجنوده، فإن له من كلِّ أمة جنوداً وأعواناً ورجلاً وفرساناً، ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أمه من غير ما فضلٍ جعله الله فيه، سوى ما ألحقت العظمة بنفسه من عداوة الحسد، وقدحت الحمية في قلبه من نار الغضب، ونفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر الذي أعقبه الله به الندامة، وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة.. (الخطبة ٢٣٤).

ذلك، وقد يعني «ملكاً» تعبيراً عن إبليس عبادته الملائكية وكونه فيهم آلافاً من السنين لحدٍّ شمله أمر الملائكة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾[١] فلا يُنافي - إذاً - ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[٢].

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٤.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ
خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا
سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ
أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا
وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا
تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ
مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ
وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ
وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ
ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا
حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن
تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾

خطابات لـ «بني آدم» ككلّ، دون اختصاص بالأمة الأخيرة، حيث المسرح مسرح حياة الإنسان ككلّ منذ البداية حتى النهاية، فالتعلق بمثل

﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ. . .﴾[(١)] بمواصلة الرسالة بعد محمد ﷺ إلى يوم الدين، تعلُّق قاحل وتعلُّل جاهل من غرقى الأهواء الطائشة، فلا تعني ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ هنا إلّا ما عنته فيما خوطب به الأبوان الأولان: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[(٢)] خطابات أربعة كأركان أربعة لهندسة البنيان الإنساني بسلبيات وإيجابيات تختصر وتحتصر في كلمة التوحيد: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ففتنة الشيطان بمختلف مظاهرها تنفيها ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ في كلِّ حقول الفتن، ثم ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ﴾ كأصل، و﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ و﴿ٱلْقِسْطَ﴾ و﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وما أشبه، يثبتها ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فقد رفع صرح الإنسانية أصولاً وفروعاً بـ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

هذه الآيات هي معرض لوقفة طائلة هائلة بين بني الإنسان والشيطان، التي بانت طلائعها بينه وبين أبوينا الأولين، وقفة تحذير من أساليب الشيطان ومداخله ومخارجه. وكشف خطط له وخطوات يخطو بها إلى دركات الإلحاد والإشراك.

وهنا عرض لواقع من الجاهلية الجهلاء أنهم كانوا ينسبون فاحشتهم إلى الله، كطوافهم بالبيت مكاءً وتصدية، وبنساء عاريات كأن عراهن من شعار الطواف الذي أمر به الله وما أشبه من شعارات جاهلية خالية عن شعورات وآداب إنسانية فضلاً عن إيمانية:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٨.

هنا ذِكر نعمة جسدانية هو ذكرى لأخرى روحانية هي التقوى، حيث تستر كلّ عصيان وطغوىً عن كيان الإنسان ككلّ، تحذيراً حذيراً نذيراً عما تورط فيه أبوانا الأولان من التعري من لباسي الجسم والروح حيث الشيطان بإغوائه إياهما ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ . . .﴾.

وترى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ . . .﴾ تعني نازل السماء؟ وليس ﴿لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ من نازل السماء! ولا أنه تعالى كائن السماء حتى تصبح عطيته نازلة السماء!.

إنه إنزال من سماء الرحمة الربانية مكانة، لا مكاناً، وإن كان بالإمكان - أيضاً - قصد المكان حيث اللباس والريش هما من نابتات الأرض بما ينبتها ماء السماء، كما «أنزل لكم ثمانية أزواج» ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾(١) وما أشبه، ولكن عدم ذكر السماء فيها وفي أضرابها قد يختص معناه بسماء الرحمة، وإن ضمن هذه السماء، فكلُّ الرحمات نازلة من خزائنه كما يريد من أرضيات أم سماويات: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾(٢) فقد أنزل ﴿لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ بسائر ما أنزل من غيبه العالي إلى الدنو الداني، وهذا هو معنى الإنزال.

ثم ﴿لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ﴾ هو الملابس مواضع السوءات، الملاصق لها، وأمّا ﴿وَرِيشًا﴾ فلباس فوق ذلك اللباس هو زينة لنا.

ولأن الروح هو أفضل جزئي الإنسان كوناً وكياناً، فلباس الروح خير من لباس الجسم: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ كما وهو أشمل من لباس الجسم حيث يشمله إلى الروح، فمظاهر التقوى في ملابس وسواها، كبواطنها - كلها - يشملها ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٢١.

و﴿ٱلتَّقْوَىٰ﴾ الطليقة هي الاتقاء عن كلّ ما يدنس الإنسان جسماً أو روحاً، فلباسها يشملهما دون إبقاء كما تشمل القوى كلَّ كيان الإنسان.

لذلك ف ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ إشارة إلى بُعْد المحتد وعلوّه في ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ فأين - إذاً - لباس من لباس؟.

﴿ذَٰلِكَ﴾ اللباس والريش ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالات على واجب الستر عن السوءة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ واجب ستر عن السوءات الروحية، ومن الفارق بين سوءات الجسم والروح أن لباس الجسم وريشه يستران واقع سوءاته عن الأنظار دون إزالة، ولباس التقوى يزيل كل سوءات الروح ورذائله العلمية والعقيدية والخُلُقية والعملية أماهيه، كما وأن اللباس الساتر لعورات الجسم هو أيضاً من لباس التقوى، وقد أبدى سوءات أبوينا الأولين ترك التقوى، فعن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عرى الجسد والحياء منه، ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه ولا يهمه أن يتعرى أو أن يدعو إلى العرى، والله يذكر بني آدم بنعمته عليهم في تشريع اللباس الساتر صيانة لإنسانيتهم من التدهور إلى عرف البهائم العارية العورات ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أنهم خارجون عن حياة الحيوان إلى حياة سامقة عالية إنسانية.

وعبارة أخرى عن لباس التقوى «العفاف، إن العفيف لا تبدو له عورة وإن كان عارياً من الثياب، والفاجر بادي العورة وإن كان كاسياً من الثياب»[(١)].

---

(١) نور الثقلين ٢: ١٥ في تفسير القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية «فأما اللباس فالثياب التي تلبسون وأما الرياش فالمتاع والمال، وأما لباس التقوى..».
أقول: هنا بدل «الريش» وهو لباس الزينة «الرياش» وهو المتاع ولعلّه سهو من الراوي أو مضروب عرض الحائط لمخالفة الآية لفظاً ومعنى، وما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قرأ «رياشا» موقفه كموقفه كما في الدر المنثور ٣: ٧٦ عن عثمان سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ «ورياشاً» ولم يقل «وريشاً» أقول: ولا يناسب رياشاً اللباس.

وإنما سمى لباس الزينة ريشاً تشبيهاً بريش الطائر حيث يستر جملته ويزيِّنه، ولأن الإنسان هو أيضاً طائر في حياة التكليف بلباس التقوى وريشها، عارجاً معارج الكمال، وقد «كان رسول الله ﷺ إذا لبس ثوباً جديداً قال: الحمد لله الذي كساني من الرياش ما أواري به عورتي وأتجمل به في الناس»(١).

وقد تلمح ﴿وَرِيشًا﴾ في مقام الامتنان لاستحباب ملابس الزينة، اللّهم إلّا ما استُثني من تزين الرجال بالذهب والحرير أو تزين النساء لغير المحارم، وبأحرى ريش التقوى وهو التقوى عن المرجوحات، فالتقوى المفروضة للروح كاللباس المفروض للبدن، ثم التقوى المحبورة للروح هي كريش البدن.

ذلك، ويُعاكسه الجاهلية المتحضرة! عفاف الستر إلى تبرج العري، وهي من الحضارات الحيوانية التي تعرض في معرض هذه الجاهلية باسم الزينة والحضارة والمودة، حملة فاجرة داعرة إلى العري البدني كما النفسي يصبح الإنسان مكشوف العورتين، بادي السوأتين، تدعو إليه أقلام سامّة وسائر أجهزة الإعلام العاملة أو العملية لشياطين الصهيون! ف :

---

(١) الدر المنثور ٣: ٧٦ - أخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن علي قال كان رسول الله ﷺ . . . وفيه أخرج أبو الشيخ عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ : ما من عبد عمل خيراً أو شراً إلّا كُسي رداء عمله حتى يعرفوه وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن قال رأيت عثمان على المنبر قال: يا أيها الناس اتقوا الله في هذه السرائر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: والذي نفسي محمد بيده ما عمل أحد عملاً قط سراً إلّا ألبسه الله رداءه علانية إن خيراً فخير وإن شراً فشر ثم تلا هذه الآية «ورياشاً» ولم يقل «وريشاً».

أقول: هذا كسابقه في موقفه من «رياشاً»، وحين يعني الرياش جمع الريش فذلك تفسير بجمع المعنى وليس نقلاً للفظ الآية.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾:

ذلك، فمن فِتَن الشيطان في بني الإنسان نزع اللباس الساتر لعورات الجسم والروح، إسقاطاً لمحتدهم الإنساني إلى هوّات ساحقة ماحقة لكيلا يبقي على أثر من حالتهم الإنسانية وهالتها المتميزة في أرواحهم وأجسامهم كما البهائم وأضل سبيلاً.

وهنا ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾ نهي باتّ مؤكد من تلك الفتنة الهاجمة على بني آدم، الناجمة منه على آدم، كتجربة مُرة مرَّت لمرة سابقة، يجب أن تكون درساً لانسيال آدم إلى يوم الدين.

ذلك وأن هذه الفتنة لبني آدم أبلى منها لآدم فـ ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ ولكنه كان يراه بشخصه حيث عرفه الله إياه: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾(١) فوالله إن عدوّاً يراك من حيث لا تراه لشديد المؤنة إلّا من عصم الله، فلو أن الصيد يرى الصائد لما كان يُصاد كما يصاد، فبنو آدم هم كلهم مصائد الشيطان الخفي بمكائده من حيث لا يرونه رأي العين البصر، وإن كانوا يرونه رأي البصيرة فطرة وعقلية ومواصفة على ضوء الوحي.

ذلك، وفي ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾ تحريض على معرفة الشيطان بأحواله وأحباله، بأفكاره وأفعاله، لكي نعرفه ببصائرنا جبراً لما نجهله بأبصارنا، فالذين يؤمنون هم يعرفونه فلا يفتنون: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٧.

وكما أن كلمة التوحيد تفرض في سبلها: «لا إله» معرفة كلّ إله باطل لنرفضه، ثم معرفة الله لنفرضه، كذلك في دار الاختبار الاختيار علينا أن نعرف الشيطان بشيطناته حتى لا نوقع في فخاخه، ومن ثم الطاعة الخالصة غير الكالسة ولا الفالسة لله وحده.

أجل ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حيث «اجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتم عن عبادته»[1] فقد «أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه، ووردوا مناهله، بهم سارت أعلامه، وقام لواءه» و«اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً، واتخذهم له أشراكاً، فباض وفرخ في صدورهم، ودب ودرج في حجورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل، وزين لهم الخطل، فعل من قد شركه الشيطان في سلطانه، ونطق بالباطل على لسانه».

فالبصيرة الحاصلة على ضوء الفطرة والعقلية السليمة والوحي هي التي تطرد الشيطان، «ألا وإن الشيطان قد جمع حزبه، واستجلب خيله ورجله، وإن معي لبصيرتي ما لبست على نفسي ولا لبس علي» (١٠).

فلقد «حذركم - الله - عدوّاً نفذ في الصدور خفياً، ونفث في الآذان نجيا، فأضل وأردى، ووعد فمنى، وزين سيئات الجرائم، وهوّن موبقات العظائم، حتى إذا استدرج قرينته - النفس الأمارة - واستغلق رهينته، أنكر ما زيّن، واستعظم ما هوّن، وحذر ما أمن» (٨١) «إن الشيطان يسني لكم طرقه، ويريد أن يحل دينكم عقدة عقدة، ويعطيكم بالجماعة الفرقة، وبالفرقة الفتنة، فاصدفوا عن نزعاته ونفثاته» (١١٩).

ذلك و﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2].

وليس الإنسان أياً كان - ومعه أي كائن كان - ليعيش دون أية ولاية،

(١) (الخطبة ١).
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٩.

فهو بين ولاية الشيطان، وولاية الرحمن، فالخالط بينهما مشرك، وولي الشيطان - فقط - ملحد، وولي الرحمن موحد.

ذلك، وكيف بإمكان الشيطان أن ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ وقد ألبسهما الله إياه؟ إنه بما ولّاهما بغرور فاغترا به، بذلك قد سبب تلك العقوبة من الله لهما أن نزع عنهما لباسهما وأخرجهما من الجنة، فنزع اللباس والخروج من الجنة بين زوايا ثلاث، من الشيطان حيث أزلهما، ومنهما حيث زلا، ومن الله إذ عاقبهما بما زلاّ وضلاّ فلم يحل بينه وبينهما فيما زلّا، وترى أن رؤية الشياطين وسائر الجن مستحيلة لقبيل الإنسان؟

وقد يرون منهم من نفذت بصيرته، أم كان منهم في مسالكهم!.

هنا ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ لا تنفي أصل الرؤية، فإنما تنفي حيث الضلالة ككلّ، حيث يأتيكم شياطين الجن والإنس من حيث النصح وكما قال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ﴾ مهما عرفوا حيث شخصه مهما قلت.

فالأكثرية المطلقة ممن يستنزله ويستضله الشياطين هم الأغفال الذين يستغفلون، فيؤتون من حيث «لا يرونهم» قصوراً عن تقصير، فـ«إنما بدء وقوع الفتن أهواء تُتبع وأحكام تُبتدع يخالَف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالاً فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معاً فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الله سبقت لهم من الله الحسنى»(١).

إذاً فـ﴿ٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ هنا يعم شياطين الإنس إلى شياطين الجن، مهما كان عدم الرؤية في الآخرين يعم حيث الضلالة إلى رؤية أشخاصهم وهذا أضل

---

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

وأشجى، وترى ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ...﴾ يجعله تعالى سبباً للإضلال؟ كلّا، فإنه جعل تكويني وترك للحاجز بينهم وبين الذين لا يؤمنون، دون دفع أو تحريض، وهكذا ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾(١) ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾(٢) واختيار المكلفين في دار البلية والاختبار من قضاياه هدى النجدين، وفسح المجال لهما أمام العالمين: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(٣) بفارق أن الله هادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾(٤).

وأما الذين ضلوا فيذرهم في طغيانهم يعمهون، ويخلي بينهم وبين الشياطين يفعلون بهم ما يشاؤون: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(٥).

ذلك، ومن ولاية الشياطين للذين لا يؤمنون معاكسة الحقائق، إراءة للفاحشة الطائشة أنها بأمر الله، وللطاعة الربانية أنها بأمر الشيطان:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

هنا تبريرٌ أول لافتعال الفاحشة: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ وسنة الآباء القُدامى حجة على الأولاد، وتبريرٌ ثان زعم أنه يؤكّد صالح ذلك التقليد الأعمى: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾ وذلك كمثل طوافهم - ولا سيما النساء(٦) عراة، وصلاتهم عند البيت مكاء وتصدية وما أشبه، حيث كانوا يعتبرونها من العبادات المأمور بها!.

(١) سورة مريم، الآية: ٨٣.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٥.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٩.
(٤) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٥) سورة الصف، الآية: ٥.
(٦) وقد كن ينشدن قولهن في طوافهن: اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فما أحله.

وكيف؟ ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾(١) - ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾(٢).

تأويل عليل لمشيئة الله خلطاً لتكوينيتها بتشريعيتها، أن عقائدنا وأعمالنا الشركية ليست لتتخلف عن مشيئة الله، فإن الله غالب على أمره؟

رغم أنه يشاء تكويناً ما لا يشاؤه تشريعاً قضية الابتلاء بالاختيار، ولو أنه يشاء كلّ ما يحصل من عباده تشريعاً، كما يشاؤه تكويناً، لتناقضت المشيئتان التشريعيتان! بحق الصالحين والطالحين.

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الأوغاد المناكيد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ في شرعته، مهما لا يمنع عنها تكويناً في محنته، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ سواء بصبغة علمية فلسفية في صيغة الجبر، أم جاهلية فوضى جزاف دون أي سناد مهما كان بصيغة علمية مرفوضة كهذه.

وقد يتعلق أمثال هؤلاء المجاهيل - كافرين أو مسلمين - بأمثال ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾(٣) بتخيّل أن ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ هو فسق تحت الأمر، غفلة أو تغافلاً عن أن الفسق عن الأمر هو التخلف عنه، إذاً ف ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بما نأمر ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ عن أمرنا تخلفاً عنه، كما و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾.

وتراهم كانوا ينسبون كلّ فاحشة يفعلونها إلى الله؟ نعم، في تأويلهم العليل للمشيئة الربانية، ولا، في غير ذلك التأويل(٤)، و﴿فَٰحِشَةً﴾ دون «فواحش» أم «كل فاحشة» علّها لشمول الأمرين.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٥.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

(٤) نور الثقلين ٢: ١٧ في أصول الكافي عن محمد بن منصور قال سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً...﴾ [الأعراف: ٢٨] قال فقال: هل رأيت أحداً زعم أن الله أمرنا بالزنا=

وتراهم يعتبرون ما يفعلونه من ﴿فَٰحِشَةً﴾ فاحشةً، ثم يبرّرون موقفهم منها بذلك نعم، في التأويل الأول، أم لأنها بأمر الله فليست - إذاً - فاحشة، ولا، في التأويل الثاني اللّهم إلّا من أرذلهم.

ثم هؤلاء الناكرون للوحي كيف يقولون ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾؟ إنه في التأويل الأول قولة فلسفية خيّلت إلى أهليها، وفي الثاني فرية جاهلة على الله يجمعها القول على الله بغير علم: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩﴾:

«القسط» هنا هو العدل إلى الفضل، فإن منه فضلاً ومنه ظلماً، إعطاء لقسط فاضل أم أخذاً لقسط، فالقسط العدل مأمور به فرضاً والقسط الفضل ندباً، ومن المجموع ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ وهو السجدة بزمانها ومكانها واتجاهها[1]، وإقامة الوجوه هي لله عند كلّ مسجد بكلّ الوجوه، ظاهرة وباطنة، ثم ﴿وَٱدۡعُوهُ﴾: الله - عند كلّ مسجد ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾: الطاعة والعبادة، دون إشراك به في وجه من الوجوه ومنها الرئاء، فإنه تعالى ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ﴾ لا سواه ﴿تَعُودُونَ﴾ إليه لا سواه، ويا لها من لقطة واحدة عجيبة، قفزة تجمع بين نقطة البدء في الرحلة الكبرى، ونقطة الانطلاق والنهاية.

= وشرب الخمر وشيء من هذه المحارم؟ فقلت: لا، قال: ما هذه الفاحشة التي يدعون أن الله أمرهم بها؟ قلت: الله أعلم ووليه، فقال: فإن هذا في أئمة الجور ادعوا أن الله أمرهم بالايتمام بقوم لم يأمرهم الله بالايتمام بهم فرد الله ذلك عليهم فأخبر أنهم قد قالوا عليهم الكذب وسمّى ذلك منهم فاحشة، أقول: هذا من باب بيان مصداق مختلف فيه حينذاك بين مصاديق الوجه الثاني من ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ [الأعراف: ٢٨].

(١) المصدر في تهذيب الأحكام من أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٢٩] قال: هذه القبلة.

ثم لأن ﴿كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ تشمل مربع: السجدة، بزمانها، ومكانها واتجاهها، فالأمر - إذاً - يحلق عليها كلّها، مما يلمح صارحة برجاحة أم فرض الصلاة في المساجد، ومكية الآية - زعم أن الكعبة في العهد المكي لم يكن قبله بعد، ولم تكن في مكة مساجد آنذاك - لا تمنع عن الأمر لأداء الصلاة في المساجد، حيث الكعبة المباركة كانت هي القبلة في العهد المكي كما المدني إلّا شطراً قليلاً في ثاني العهدين(١) ثم كلّ مكان متخذ للصلاة مسجد لمتخذه وإن لم يكن مسجداً عاماً، وكما أمرنا أن نخصص أمكنة خاصة في بيوتنا للصلاة، وذلك عند إعواز المساجد الرسمية أم عسر الوصول إليها، ثم الآية المكية ليست لتحصر حكمها بالعهد المكي، كما المدنية لا تخص المدنيين، فالقرآن ككلّ شرعة عالمية تتخطى حواجز الزمان والمكان، مهما كان المخاطبون الأولون المكيين والمدنيين: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

وفي رجعة تفصيلية إلى ذلك المقطع اللّامع من لوامع الآية نتساءل:

هل المشابهة هنا بين البدء والعَوْد واقع؟ والبدء ولادة من الأرحام ابتداء ﴿بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾(٢) والعَوْد لا يعرف صلباً ولا رحماً ولا أية ولادة!.

إنه في وجه المشابهة تشابه بين بدء الإنسان الأول حيث بدأنا به، وبين العَوْد ككلّ، فكما خلقنا الله أول مرة من تراب، كذلك يُعيدنا من تراب ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ مرة أخرى.

وبوجهٍ ثانٍ ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ إنشاء من تراب كالإنسان الأوّل، أم انتشاء الأنسال كسائر الإنسان، ولم يعي بذلك الخلق الأول، كذلك ﴿تَعُودُونَ﴾

---

(١) لمعرفة التفصيل راجع البقرة على ضوء آيات القبلة.

(٢) سورة الطارق، الآية: ٧.

بنفس القدرة، و﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾. وقد يعني التشبيه كلا الأمرين، تشبيهاً في القدرة بأولوية، وتشبيهاً في المنشأ بين البدء والعود، فـ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[١] ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[٢]، ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[٣] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[٤]؟.

فالقادر على البدء - وهو واقع لا مردَّ له - هو قادر - بأحرى - على الإعادة، كما هي الموعودة المتوقعة، وهما متماثلان في جذور الخلق الإنشاء، مهما اختلفا فيما يختص بكلّ واحد قضية نشأته.

إذاً فلكلّ منا ترابه المخصوص به دون الزائد الملحق المدسوس من أجزاء آخرين، أم أجزاء غير أصيلة في تكوُّنه، فكما أن كلًّا منا خلق من خاصة نطفته أول مرة، فهو العائد بها مرة أخرى مهما التحق بها ما يعيش كلّ معها طول عمره دون فصال، ولكن الأجزاء الأخرى العائشة معنا ردحاً ومع الآخرين ردحاً آخر أم على طول الخط، إنها ليست هي عائدة مع كلّ، بل هي عائدة لأشخاصها، أم بأشخاصها عن أصول الأبدان العائشة دوماً معها.

وبوجه ثالث كما قال رسول الله ﷺ: يحشر الناس حُفاة عُراة غُرلاً[٥]

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٣) سورة يونس، الآية: ٣٤.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ١٩.

(٥) مفتاح كنوز السنة عنه ﷺ نقلاً عن: بخ - ك ٨١ ب ٤٥، مس - ك ٥١ ح ٥٦ - ٥٨ قا، تر - ك ٣٥ ب ٣، ل ٤٤ سورة ١٧ ح ٧ وسورة ٢١ ح ٤ وسورة ٨٠ ح ٢، نس - ك ٢١ ب ١١٧ و١١٨، مج - ك ٣٧ ب ٣٣، مى - ك ٢٠ ب ٨٢، حم - أول ص ٢٢٠ و٢٢٣ و٢٢٩ و٢٣٥ و٢٥٣ و٣٩٨ قا، ثالث ص ٤٩٥، سادس ص ٥٣ و٨٩، ط - ح ٢٦٣٨.

وقال علي عليه السلام: فجاؤوها حُفاة عُراة قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة، والدار الباقية كما قال سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[1] [2].

ذلك، وقد تعني - فيما عنت - أن الآخرة هي مثال الدنيا، فكما بدأكم فريقين بما عملتم مهتدين وضالين، كذلك تعودون مهتدين وضالين دونما خلط ولا فوضى جزاف، ويؤيده:

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ بما اهتدوا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[3] ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ بما حققوها: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[4] فـ ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متورطين في اللجج بعد بهور الحجج، ثم ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ - ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[5].

أجل، فكما بدأوا الرحلة فريقين: آدم وزوجه، والشيطان وقبيله، كذلك يعودون كلٌّ مع إمامه الذي كان يأتم به، الصالحون مع أهل الله، والطالحون مع الشياطين.

ذلك، وترى كيف نقيم وجوهنا عند كلِّ مسجد؟ عراة كما خلقنا الله أم لابسين كما اختلقناه من ملابسنا؟:

---

(١) (الخطبة ١١٠).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٣) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٤) سورة الصف، الآية: ٥.

(٥) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

﴿۞ يَبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ٣١﴾:

. . . لما أمر بالقسط فرضاً وراجحاً، فإليكم منها مصاديق: أخذ الزينة عند كلِّ مسجد، والقسط في الأكل والشرب دون إسراف، فالتبذير فيها محرم بأحرى، والإسراف فيها محرم دونه، والشبع دون إسراف غير محبور ولا محظور، ودون الشبع محبور.

ثم من ﴿زِينَتَكُمْ﴾ هي الرياش: ملابس التجمل فوق ملابس الستر[١]، فكما من سوء الأدب أن نُصلّي عراة، كذلك أن نُصلي - فقط - مستوري العورات ومهما صحت الصلاة بذلك الستر القليل العليل في الفقه الأصغر، فهي ليست لتصح في الفقه الأكبر، وحين يجب أخذ لباس الزينة عند كلِّ مسجد فبأحرى لباس يُواري سوءاتكم، فالصلاة عارياً محرمة باطلة، وهي دون لباس الزينة - إن كانت صحيحة - عاطلة، ولأن ﴿خُذُواْ﴾ أمر يدل على فرض، فأخذ الزينة عند كلِّ مسجد فرض على فرض، إلّا أن يدل قاطع الدليل كتاباً أو سنة على عدم الفرض بعضاً مّا فتتقيد ﴿خُذُواْ﴾ به.

ذلك، ومن ﴿زِينَتَكُمْ﴾ أموالكم وأولادكم وأهليكم، فـ ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[٢] كما منها التمشط[٣] والتطيب.

---

(١) في الدر المنثور ٣: ٧٩ - أن رسول الله ﷺ قال: لا يصلّين أحدكم في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء وفيه نهى رسول الله ﷺ أن يُصلي الرجل في لحاف لا يتوشح به ونهى أن يُصلي الرجل في سراويل وليس عليه رداء.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

(٣) نور الثقلين ٢: ١٩ في من لا يحضره الفقيه سُئل أبو الحسن عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] قال: من ذلك التمشط عند كلّ صلاة.

وفيه عن الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: تمشطوا فإن التمشط يجلب الرزق =

ولأن ﴿زِينَتَكُمْ﴾ لم تلحق بشيء من «معكم» حتى تختص بمعيتها كيفما كانت، ولا «عنكم» حتى تختص بتركها كذلك، فهي بين آمرة باستصحاب زينة كالملابس الواجبة والمسموحة زينة، وكذلك الأموال لإنفاقها على المحاويج، والأولاد لمشاركتهم في الصلاة، وبأحرى الأئمة العدول فإنهم زينة المساجد(١)، وسائر الزينة الإيمانية حيث تناسب الصلاة والمصلين معك، فلتكن معك الزينة الباطنة إلى الظاهرة ما يناسب كلّ مسجد وهو محبور، دون ما لا يناسبه وهو محظور، وناهية عن استصحاب زينة كالتي يحرم استصحابها للرجال مثل الذهب والحرير، في صلاة وسواها، أو الملابس المغتصبة أماهيه من محظورة، وملابس الزينة للنساء، المحظورة أمام الجماهير.

فـ ﴿زِينَتَكُمْ﴾ التي تزينكم إنسانياً وإيمانياً، خذوها معكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ حيث المحضر ربانياً وبشرياً يتطلب أدب الزينة.

ثم ﴿زِينَتَكُمْ﴾ الملهية المحظورة خذوها عنكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فـ ﴿خُذُواْ﴾ تعم المحظور إلى المحبور، خذوا معكم محبوراً وخذوا عنكم محظوراً، فلا يظن ظان أن مساجد الله التي هي محاضرة، أنها محاظر عن أخذ ﴿زِينَتَكُمْ﴾ ملابس وأموالاً وأولاداً، ولا أنها معارض لرعونات الزين الملهية.

وترى النعلين - وهما زينة الرجلين - هل هما من زينة الصلاة المعنية

= ويحسن الشعر وينجز الحاجة ويزيد في ماء الصلب ويقطع البلغم.
وفيه في تفسير العياشي عن الرضا عليه السلام قال: وهي الثياب، وفيه كان الحسن بن علي عليه السلام إذا قام إلى الصلاة يلبس أجود ثيابه فقيل له: يابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلبس أجود ثيابك؟ فقال: إن الله جميل يحب الجمال فأتجمل لربي وهو يقول: خذوا زينتكم عند كلّ مسجد. فأحب أن ألبس أجود ثيابي.

(١) نور الثقلين ٢: ١٩ عن تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية يعني الأئمة.

ضمن ما عنته ﴿زِينَتَكُمْ﴾؟ إنهما زينة في غير الصلاة، ولكن أدب العبودية في الصلاة يقتضي تركهما حالها إما لكونهما خلاف زينة الصلاة، أم زينة محظورة فيها فخذوا عنكم - إذاً - نعليكم واخلعوهما وكما قال الله لموسى: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾(١) فالمروي عن رسول الله ﷺ أنه كان يلبسهما فيها ويأمر به، مفترى عليه فمضروب عرض الحائط.

وكما أن أخذ الزينة عند كلِّ مسجد محبور، كذلك في سائر الحالات ولا سيما في زيارة المؤمنين(٢) أم ورقابة أعين الفاسقين.

﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ مما يحلّ لكم، ولكن ليس فوضى جزاف أن تبذروا أو تسرفوا لأنها من أموالكم، بل ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ أكلاً ولا شرباً زائداً عن الحاجة المتعودة، إسرافاً في كمّهما وكيفهما: وإسرافاً في أصلهما كأن يكونا محرّمين، فالأكل والشرب المحرمان هما من الإسراف مهما كانا قليلين، ومنه المأكول والمشروب اللذان يضران بصحة الإنسان، فإن فيهما إسرافاً، فلا يختص الإسراف المحظور بحقل خاص في الأكل والشرب، بل

(١) سورة طه، الآية: ١٢.

(٢) في الدر المنثور ٣: ٧٩، أخرج أبو داود عن أبي الأحوص عن أبيه قال: «أتيت رسول الله ﷺ في ثوب درن فقال: ألك مال؟ قال: نعم، قال: من أي المال؟ قال: قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق، قال: فإذا آتاك الله فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته» وفيه أخرج أحمد ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: لا يدخل النار من كان في قلبه ذرة مثقال من إيمان ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر، قال رجل يا رسول الله ﷺ: إنه يعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً ورأسي دهيناً وشراك نعلي جديداً - وذكر أشياء حتى ذكر علاقة سوطه - فمن الكبر ذاك يا رسول الله ﷺ؟ قال: لا، ذاك الجمال إن الله عزّ وجلّ جميل يحب الجمال ولكن الكبر من سفه الحق وازدرى الناس، وفيه أخرج ابن سعد عن جندب بن مكيث قال: كان رسول الله ﷺ إذا قدم الوفد لبس أحسن ثيابه وأمر علية أصحابه بذلك.

هو فيهما بكلِّ الأبعاد مادة وكمًّا وكيفاً وصحياً وأي حظر آخر، وقد يفسره بهذه السعة: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾(١).

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ بل يبغضهم، فضلاً عن المبذرين، فـ ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾(٢).

إن التبذير والإسراف إضافة إلى محظورهما الجماعي حيث فيهم جياع معدمون، فيه أيضاً محظور صحي روحياً وبدنياً، لا فحسب الإسراف، بل والشبع فإن «من شبع عوقب في الحال ثلاث عقوبات: يُلقى الغطاء على قلبه، والنعاس في عينه، والكسل على بدنه»(٣)، و«كثرة الطعام تُميت القلب كما تُميت كثرة الماء الزرع»(٤)، فـ «لا تطلب الحياة لتأكل بل اطلب الأكل لتحيا»(٥)، و«لا تجلس على الطعام إلّا وأنت جائع، ولا تقم عنه إلّا وأنت تشتهيه، وجوّد المضغ، وأعرض نفسك على الخلاء فإذا استعملت هذه استغنيت عن الطب»(٦).

ذلك، و«إن من الإسراف أن تأكل كلّ ما اشتهيت»(٧) وهو إسراف في الكيف مهما لم يكن إسرافاً في الكمِّ، و﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ يعم الكيف إلى الكمِّ، وفي الناس من لا يجد كمّاً ولا كيفاً من الطعام.

---

(١) سورة عبس، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٧.
(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ٦٧٤.
(٤) المصدر ٨٢٤.
(٥) المصدر ٨٢٤.
(٦) مستدرك النهج ١٦٢.
(٧) الدر المنثور ٣: ٨٠ - أخرج ابن ماجة وابن مردويه والبيهقي عن أنس قال قال النبي ﷺ: ... وفيه عنه ﷺ قال: إن أكثر الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة.

وفيه عنه ﷺ قال: ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن =

وكما أن الأكل والشرب المسرف محرم على الآكل والشارب، كذلك الإيكال والإشراب المسرف ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أكلاً وإيكالاً أم وتصرفات أخرى.

فلقد جمع الطب كلّه بحق الأكل والشرب في نصف آية[1] وعلّه يعم إسراف السلب والإيجاب[2]، ولكن الإيجاب أضر أن تأكل مسرفاً، وأما ألا

= كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه.

وفيه عنه ﷺ قال: المعدة حوض البدن والعروق إليها واردة فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة وإذا فسدت المعدة صدرت العروق بالسقم.

وفي تفسير البرهان ٢: ١٠ عن الكافي عن إسحاق بن عبد العزيز من بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نكون بطريق مكة ونريد الإحرام فنطلي ولا يكون معنا نخالة فتتدلك بها من النورة فنتدلك بالدقيق وقد دخلني من ذلك ما شاء الله أعلم به؟

فقال: مخافة الإسراف؟ قلت: نعم، فقال: ليس فيما أصلح البدن إسراف إني ربما أمرت بالنقي فيلت بالزيت فأتدلّك به إنما الإسراف فيما أفسد المال وأضر البدن، قلت: وما الإقتار؟ قال: أكل الخبز والملح وأنت تقدر على غيره، قلت: فما القصد؟ قال: الخبز واللحم واللبن والخل والسمن مرة هذا ومرة هذا.

وفيه عن العياشي عن أبان بن تغلب قال قال أبو عبد الله عليه السلام: أترى الله أعطى من أعطى من كرامته عليه ومنع من منع من هوان به عليه؟ لا - ولكن المال مال الله يضعه عند الرجل ودائع وجوز لهم أن يأكلوا قصداً ويشربوا قصداً ويلبسوا قصداً وينكحوا قصداً ويركبوا قصداً ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين ويلموا به شعثهم فمن فعل ذلك كان ما يأكل حلالاً ويشرب حلالاً ويركب حلالاً وينكح حلالاً ومن عدا ذلك كان عليه حراماً ثم قال: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] أترى أئتمن رجلاً على ماله خول له أن يشتري فرساً بعشرة آلاف درهم ويجزيه فرس بعشرين درهماً ويشتري به جارية بألف دينار ويجزيه جارية بعشرين ديناراً وقال ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

(١) روي أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق فقال ذات يوم لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان فقال له علي عليه السلام قد جمع الله الطب كله في نصف آية وهو قوله: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ [الأعراف: ٣١] وجمع نبينا الطب في قوله: المعدة بيت الداء والحمية رأس كلّ دواء واعط كلّ بدن ما عودته، فقال الطبيب: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً.

(٢) تفسير البرهان ٢: ١٠ عن العياشي عن هارون بن خارجة قال قال أبو عبد الله عليه السلام: . . .

تأكل مسرفاً فضره أقل إلّا إذا كان مضرّاً كما الأكل، فكلا الأكل والشرب وتركهما إسرافاً أو تبذيراً محرم فإنهما محرمان كضابطة عامة في كافة الحقول.

إذاً فـ ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ تعم كلّ تجاوز كمّي أو كيفي في الأكل والشرب وما أشبه من مصروفات هي إسرافات، أم وأنحس منها تبذيرات.

فالمواد الدخانية كلها داخلة في حقل الإسراف، أو التبذير، فالجيگارة وما أشبه تنطبق عليها عناوين تالية:

١ - الإسراف، ٢ - أو التبذير، ٣ - ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[(١)] تنطبق عليها لو كان لها نفع بضمن الضرر الأكثر، وقد تعرف علم الطب إلى أضرار الدخان، مما يوحش الإنسان من عواقب السوء للمتعود به[(٢)].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) منذ سنين عدة وقد تزايد السرطان في المجتمع البشري، أخذ العلماء الأوروبيون والأمريكيون يحققون بحثاً عن عوامل تزايد السرطان.

ففي سنة ١٩٥٢ جماعة من الأطباء الأمريكيين فحصوا بصور موسعة عن السرطان، فابتدؤوا بمعتادي الدخان، وكانت من نتائج تحقيقاتهم ما فجر العالم من نبئه، أنهم حققوا في ولايات تسع أمريكية، وفحصوا عن أمزجة أناس بين خمسين وسبعين وحصلوا بعد سنة من فحصهم أن أكثرية المبتلين بالسرطان هم المعتادون بالدخان، وقد يقدر بـ ٤٠ / ١٠٠ أكثر من غيرهم، حيث يموتون إثر الحملة القلبية والسرطان الرئوي، وعلى إعلان هذه المزرأة ترك ٥ / ١ مليوناً الدخان عن بكرته. ثم أخذت هذه الغوغائية من أخطار الجيگارة السرطانية انجلترا، وهنا مقالة لجريدة انجليزية طبّية باسم «لانست»:

ليست اليوم من أيام المقالات الحدسية، إنه يوم الجدّ الواقع، فقد ابتلي بالسرطان واحد من (١١) شخصاً كانوا يشربون الجيگارة يومياً ٢٥ - ٥٠.

هذه الجريدة وسائر الجرائد الإنجليزية كانت تستند إلى تحقيقات الدكتور هانري كوهن، فقد أثبت هذا الطبيب أنه يموت في انجلترا سنوياً/ ٠٠٠، ٢٠ شخصاً على أثر السرطان الرئوي، والشخص المتعود على الجيگارة بعدد (٢٥) يومياً يبتلى بالسرطان الرئوي أكثر من غيره ٥ / ١٠٠ - ٦ / ١٠٠ إلى ٣٠ / ١٠٠.

والجريدة الطبية الإنجليزية طلبت من جميع الأطباء أن يحرموا التتن والتنباك، وأخيراً قدم=

فلأن الإسراف في كلٍّ حقوله محرم فـ «من سأل الناس شيئاً وعنده ما يقوته يومه فهو من المسرفين»[1].

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ هي التي خلقها الله لعباده لكي ينتفعوا بها وفق شرعة الله، والضابطة العامة - إذاً - فيها هي الحلّ، إلّا ما أخرجه قاطع النص، فـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[2]، كضابطةِ الحل العامة، وهنا ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ استنكار شديد على من حرم زينة الله كأصل تقشفاً ورهبانية جاهلة قاحلة كما حصل من جمع من المسلمين، فنزلت الآية تنديداً بهم[3]،

= اقتراح إلى المجلس النيابي البريطاني في أن يمنع بيع الجيگارة للشباب الأقل عمراً من (١٨) سنة.

ومثل هذه التحقيقات أخذت دورها الفعال في فرنسا وسائر البلاد الأوروبية وفي اليابان مثل ذلك، فقد حقّق طبيب ياباني باسم «الدكتور بنجويم ووج» أن في تتن الجيگارة مادة سامة باسم (دايبنزن) إن زرقت جرذ ابتلي بالسرطان، ويضيف الدكتور (ووج) أن هذه المادة هي حصيلة احتراق التتن.

وقد جرّب ذلك الزرق في/ ٤٠٠٠ جرذاً وبعد ٤٢ يوماً ابتليت كلها بالسرطان. وعلى أثر هذه التجربات الغوغائية ترك جمع كثير من الناس المعتادين بالدخان في كلّ أنحاء العالم ولا سيما في أمريكا وانجلترا، تركوا الجيگارة لحدًّ سبّب خسارة على سوق الجيگارة، لحدّ بعث أصحاب معامل الجيگارة مبعوثاً باسم (الكساندر ماكسويل) إلى المقامات المعنية دفاعاً عن منافعهم.

(١) راجع إلى ص ٨٥ حاشية (٢).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٣) في تفسير الفخر الرازي ١٤ : ٦٣ روي عن عثمان بن مظعون أنه أتى رسول الله ﷺ وقال: غلبني حديث النفس، عزمت على أن أختصي فقال: مهلاً يا عثمان إن خصاء أمتي الصيام، قال: فإن نفسي تحدثني بالترهب، قال: إن ترهب أمتي القعود في المساجد لانتظار الصلاة، فقال: تحدثني نفسي بالسياحة، فقال:

سياحة أمتي الغزو والحج والعمرة، فقال: إن نفسي تحدثني أن أخرج مما أملك، فقال:=

وعلى حدّ تعبير الرسول ﷺ توبيخاً لهم: «لكني أصوم وأفطر وأصلّي وأرقد وأتزوج النساء»[(١)].

ذلك، والأصل في ﴿زِينَةَ ٱللَّهِ... وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ أنها ﴿هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مهما كانت خليطة غير خليصة في الحياة الدنيا، فـ ﴿هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في الحياة الدنيا كأصل مرضي حال كونها ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[(٢)].

فالحياة الدنيا برمتها الزينة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[(٣)] إنها كما يروى عن إمام المتقين علي ؏: «من أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته» فالتذرع بزينة الحياة الدنيا لزينة الحياة الأخرى محبور، والإقبال عليها والإخلاد إليها محظور.

= الأولى أن تكفي نفسك وعيالك وأن ترحم اليتيم والمسكين فتعطيه أفضل من ذلك، فقال: إن نفسي تحدثني أن أطلّق خولة، فقال: إن الهجرة في أمتي هجرة ما حرم الله، قال: فإن نفسي تحدثني أن لا أغشاها، قال: إن المسلم إذ أغشى أهله أو ما ملكت يمينه فإن لم يصب من وقعته تلك ولداً كان له وصيفاً في الجنة وإذا كان له ولد ومات قبله أو بعده كان له قرة عين وفرح يوم القيامة وإن مات قبل أن يبلغ الخنث كان له شفيعاً ورحمة يوم القيامة، قال: فإن نفسي تحدثني أن لا آكل اللحم، قال: مهلاً إني آكل اللحم إذا وجدته ولو سألت الله أن يطعمنيه كلّ يوم فعله، قال: فإن نفسي تحدثني أن لا أمس الطيب، قال: مهلاً فإن جبرئيل أمرني بالطيب غباً وقال: لا تتركه يوم الجمعة، ثم قال: يا عثمان! لا ترغب عن سنتي فإن من رغب عن سنتي ومات قبل أن يتوب صرفت الملائكة وجهه عن حوضي.

(١) مفتاح كنوز السنة نقلاً عن بخ - ك ٦٧ ب ١ و٨٩، ك ٧٨ ب ٨٤، مس - ك ١٦ ح ٥ - ٨ تر - ك ٩ ب ٢، نس - ك ٢٦ ب ٤ مج - ك ٩ ب ٢، مى - ك ١١ ب ٣ عد - ج ١ ق ٢ ص ٩٥ ج ٣ ق ١ ص ٢٨٧ ج ٤ ق ٢ ص ٨ حم - أول ص ١٧٥ و١٧٦ و١٨٣ ثان ص ١٥٨ و٣ ١٨٧ و١٩٤ و١٩٥ و١٩٧ و١٩٨ و١٩٩ و٣ ٢٠٠ و٢١٦ و٢٤٥ و٢٨٩، ثالث ص ١٥٨ و٢٤١ و٢٨٥ خامس ص ١٧ و٢٨ و٤٠ و٢ ٤٨ و٥٢ و٤٠٩ سادس ص ٩١ و٩٧ و٢ ١٠٦ و١١٢ و١٢٥ و١٥٧ و٢٢٦ و٢٥٢ و٢ ٢٦٨ وط - ح ٣٢ و٢١٩.

(٢) فهنا ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٣٢] كما هي ظرف لـ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأعراف: ٣٢] كذلك خبر لـ ﴿هِيَ﴾.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٧.

ذلك ولقد وبخ مجاهيل من المتقشفين البعض من أئمة الدين على جميل الثياب فانعكس عليهم الأمر بتوبيخ الله في هذه الآية(١) مما يدل على أن الانتفاع من زينة الله في غير محظور محبور، مأكلاً ومشرباً وملبساً ومسكناً ومنكحاً.

فـ «اعلموا يا عباد الله أن المتقين جازوا عاجل الخير وآجله، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، أباحهم الله في الدنيا ما كفاهم به وأغناهم... سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم فأكلوا معهم طيبات ما يأكلون وشربوا من طيبات ما يشربون، ولبسوا أفضل ما يلبسون، وسكنوا من أفضل ما يسكنون، وتزوجوا من أفضل ما يتزوجون، وركبوا من أفضل ما يركبون، وأصابوا اللذة مع أهل الدنيا وهم غداً جيران الله، يتمنون عليه فيعطيهم ما يتمنون، لا ترد لهم دعوة، ولا ينقص لهم نصيب من اللذة، فإلى هذا يا عباد الله يشتاق إليه من كان له عقل»(٢).

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٢١ عن الكافي علي بن محمد بن بندار عن أحمد بن أبي عبد الله عن محمد بن علي رفعه قال: مر سفيان الثوري في المسجد الحرام فرأى أبا عبد الله عليه السلام وعليه ثياب كثيرة القيمة حسان، فقال: والله لآتينه ولأوبخنّه فدنا منه فقال: يابن رسول الله صلى الله عليه وآله ما لبس رسول الله مثل هذا اللباس ولا علي عليه السلام ولا أحد من آبائك، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: كان رسول الله صلى الله عليه وآله في زمان قتر مقتر وكان يأخذ لقتره وقتاره وإن الدنيا بعد ذلك أرخت عزاليها فأحق أهلها بها أبرارها ثم تلا ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] فنحن أحق من أخذ منها ما أعطاه الله، غير أني يا ثوري على ما ترى عليّ من ثياب إنما لبسته للناس، ثم اجتذب يد سفيان فجرها ثم رفع الثوب الأعلى وأخرج ثوباً تحت ذلك على جلده غليظاً فقال: هذا لبسته لنفسي غليظاً وما أريته للناس، ثم اجتذب ثوباً على سفيان أعلاه غليظ خشن وداخل الثوب لين فقال: لبست هذا الأعلى للناس ولبست هذا لنفسك تسترها.

(٢) نور الثقلين ٢ : ٢٣ في أمالي الشيخ الطوسي بإسناده إلى أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه: ..

ذلك، ولما يُسأل الإمام علي عليه السلام: فعلى مَ اقتصرت في مطعمك على الجشوبة، وفي ملبسك على الخشونة؟ يقول: ويحك إن الله عزوجل فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره..(١).

ويقول عن نفسه: ألا وإن لكلِّ مأموم إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياكم بطهريه - ثوبيه الباليين - ومن طُعمه بقرصيه، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد، فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادّخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طِهراً، ولا حُزت من أرضها شبراً، ولا أخذت منه إلّا كقوت أتانٍ دَبِرَة، ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصة مَقِرة... ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولُباب هذا القمح، ونسائج هذا القزِّ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخيُّر الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى، وأكباد حرّى، أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داء أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحنُّ إلى القِدِّ

أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر،

---

(١) المصدر ٢٤ عن الكافي في احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على عاصم بن زياد حين لبس العبا وترك الملا وشكاه أخوه الربيع بن زياد إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنه قد غمّ أهله وأحزن ولده بذلك، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: عليّ بعاصم بن زياد فجيء به فلما رآه عبس في وجهه فقال له: أما استحييت من أهلك، أما رحمت ولدك، أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أخذك منها؟ أنت أهون على الله من ذلك، أو ليس الله يقول: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ (١١)﴾ [الرحمن: ١٠-١١] أوليس يقول: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ - إلى قوله: - يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرّحمن: ١٩-٢٢] فبالله لابتذال نعم الله بالفعال أحب إليه من ابتذالها بالمقال وقد قال عزوجل: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] فقال عاصم:... وفي نهج البلاغة مثله بزيادة: يا عديّ نفسه لقد استهان بك الخبيث...

أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش، فما خُلقت ليشغلني أكل الطيبات، كالبهيمة المربوطة همها عَلَفها، أو المرسلة شغلها تقمُّمها، تكترش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها، أو أترك سُدىً وأهمل عابثاً، أو أجُرَّ حبل الضلالة، أو أعتسف طريق المتاهة...» (٢٨٤) -.

ذلك، وفيما يُروى عن رسول الهدى ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» حيث شبه الدنيا بالسجن للمؤمن إذ قصر فيها خطوة عن اللذات المرسلة، وكبح لجامه عن الشهوات المقبلة، وحصر نفسه عن التسرع إلى ما تدعو إليه الدواعي، والأهواء المردية، وكان زمام نفسه وخطامها وهاويها وإمامها خائفاً خوف الجاني المرعوب، والطريد المطلوب، في عصبته عملوا للمعاد، وقطفوا للزاد، تحسبهم من طول سجودهم أمواتاً، ومن طول قيامهم نباتاً.

وشبهها ﷺ بالجنة للكافر من حيث استوعب فيها شهواته، واستفرغ لذاته، وقضى فيها الأوطار، وتعجَّل المسارَّ، واستهواه عاجل حطامها، وريق جماعها، فنسي العاقبة، واستهان بالمغبة، فكان ميِّت الأحياء، كما كان المؤمن حي الأموات[1].

وإليكم من زهادة المرسلين عليهم السلام برواية علي أمير المؤمنين عليه السلام: «وإن شئت ثنيت بموسى كليم الله ﷺ حيث يقول: رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير» والله ما سأله إلّا خبزاً يأكله لأنه كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل تُرى من شفيف صفاق بطنه لهُزاله وتشذُّب لحمه[2] -

---

(١) يقول السيد الشريف الرضي في المجازات النبوية (٣٦) بعد هذا التفسير للحديث: من أحسن ما سمعته في هذا المعنى أن بعض الزهاد المنقطعين طلب القوت من بعض الراغبين المفتونين، فقيل له في ذلك، فقال: أنا مسجون وهو مطلق، وهل يأكل المسجون إلّا من يد المطلق.

(٢) (الخطبة ١٥٨).

«ولقد دخل موسى بن عمران - ومعه أخوه هارون عليهما السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصيُّ، فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزه فقال: ألا تعجبون من هذين يشرِطان لي دوام العزِّ وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل؟ فهلا ألقي عليهما أساور من ذهب، إعظاماً للذهب وجمعه واحتقاراً للصوف ولبسه» (١٩٠) -.

«وإن شئت ثلثت بداود - صلى الله عليه وسلم - صاحب المزامير وقارئ أهل الجنة، فلقد كان يعمل سفاسف الخوص بيده ويقول لجلسائه: أيكم يكفيني بيعها؟ ويأكل قرص الشعير من ثمنها» (١٥٨) -.

«وإن شئت قلت في عيسى بن مريم عليهما السلام، فلقد كان يتوسد الحجر، ويلبس الخَشِن ويأكل الجَشِب، وكان إدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وظِلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربَها، وفاكهته وريحانته ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يُذله، دابته رجلاه، وخادمه يداه» (١٥٨) -.

ومن ثم نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فـ «قد حقَّر الدنيا وصغَّرها، وأهون بها وهوَّنها، وعلم أن الله زواها عنه اختياراً، وبسطها لغيره احتقاراً، فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها عن نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشاً، أدير جوفيها مقاماً بلغ عن ربه معذراً، ونصح لأمته منذراً، ودعا إلى الجنة مبشراً، وخوف من النار محذرا» (١٠٧) -.

«... خرج من الدنيا خميصاً، وورد الآخرة سليماً، لم يضع حجراً على حجر حتى مضى لسبيله وأجاب داعي ربه...» (١٥٨).

«ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كافٍ لك في الأسوة، ودليل لك على ذم الدنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قبضت عنه أطرافها، ووطئت لغيره أكنافها، وفطم عن رضاعها، وزوي عن زخارفها» (١٥٨) -.

«قضم الدنيا قضماً، ولم يعيرها طرفاً، أهضم أهل الدنيا كشحاً، وأخمصهم من الدنيا بطناً، عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها، وعلم أن الله سبحانه أبغض شيئاً فأبغضه، وحقَّر شيئاً فحقَّره، وصغَّر شيئاً فصغَّره. . ولقد كان ﷺ يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرفع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري ويُردف خَلفه، ويكون الستر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول يا فلانة - لإحدى أزواجه - غيبيه عني فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها، فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه. . .» (٨٨ ح) -.

ذلك، وهذه سنة الأنبياء مصلحية صالح الدعوة المستقيمة «ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذُّهبان، ومعادن العيقان، ومغارس الجِنان، وأن يحشر معهم طيور السماء ووحوش الأرض لفعل، ولو فعل لسقط البلاء، وبطل الجزاء، واضمحلت الأنباء، ولما وجب للقابلين أجور المبتلين، ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين، ولا لزمت الأسماء معانيها - ولكن الله سبحانه جعل رسله أولى قوة في عزائمهم، وضعفاً فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب والعيونَ غنىً، وخصاصةٍ تملأ الأبصار والأسماع أذىً - ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا تُرام، وعزة لا تُضام، ومُلْكٍ تمتد نحوه أعناق الرجال، وتُشدّ إليه عُقدُ الرحال، لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعدَ لهم من الاستكبار، ولأمنوا عن رهبةٍ قاهرةٍ لهم، أو رغبة مائلة بهم، فكانت النيات مشتركة، والحسنات مقتسمةً، ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الاتباع لرسله، والتصديق بكتبه، والخشوع لوجهه، والاستطانة لأمره، والاستسلام لطاعته، أموراً له خاصةً لا تشوبها من غيرها شائبة، وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم، كانت المثوبة والجزاء أجزل»[1].

---

(١) (الخطبة القاصعة ٢٣٤).

ذلك! وجمعاً بين الأمرين، انتفاعاً من زينة الله، وإنفاقاً منها على عباد الله «كان علي بن الحسين عليه السلام يلبس الثوب بخمسمائة دينار والمطرف بخمسين ديناراً يشتو فيه فإذا ذهب الشتاء باعه وتصدق بثمنه»(١).

إذاً فلا محظور في أصل الزينة ما لم يكن هناك محظور آخر، بل هي محبورة مشكورة اللّهم إلّا لطوارئ وملابسات محظورة وكما هي الضابطة في كافة النِّعم الربانية، بل هي لهم بأحرى ممن لا يؤمن بالله، فهم أولاء مغتصبون وهؤلاء الأكارم هم مغتصبون و﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

ذلك، وإخراج زينة الله يعم الزينة المحاوَلة بما يسعى لها الإنسان إلى سواها، حيث الإنسان هو نفسه مخرج من الأرض بمشيئة الله ومُنبَت منها، وكذلك كلّ طاقاته هي كمثله مخرجة الله.

فتلك حضارة إسلامية سامية أن يشجع القرآن على كلِّ زينة محبورة تزين

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٢٣ في تفسير العياشي عن أحمد بن محمد عن أبي الحسن عليه السلام قال: . .
وفيه عن يوسف بن إبراهيم قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام وعليّ جبة خز وطيلسان خز، ما تقول فيه؟ قال: ولا بأس بالخز، قلت: وسداه إبريسم فقال: لا بأس به فقد أصيب الحسين بن علي عليه السلام وعليه جبة خز.
وفيه عن الوشا عن الرضا عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يلبس الجبة والمطرف من الخز والقلنسوة ويبيع المطرف ويتصدق بثمنه ويقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ . . .﴾ [الأعراف: ٣٢].
وفيه عن الكافي عن ابن القداح قال: كان أبو عبد الله عليه السلام متكياً علي - أو قال: على أبي - فلقيه عباد بن كثير وعليه ثياب مرويّة حسان فقال: يا أبا عبد الله إنك من أهل بيت نبوة وكان أبوك وكان؟ فما هذه الثياب المزينة عليك فلو لبست دون هذه الثياب؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: ويلك يا عباد من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق وأن الله عز وجل إذا أنعم على عبده نعمة أحب أن يراها عليه، ليس به بأس ويلك يا عباد إنما أنا بضعة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا تؤذني وكان عباد يلبس ثوبين قطنين.
وفيه عن العياشي عن الحكم بن عيينة قال: رأيت أبا جعفر عليه السلام وعليه إزار أحمر، قال: فأحددت النظر إليه فقال: يا أبا محمد إن هذا ليست به بأس ثم تلا ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ . . .﴾.

حياة الإنسان وعيشته فردياً وجماعياً، وعلى ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ إنسانياً وإيمانياً، حياةٍ زيِّنة طيبةٍ تطيِّب الإنسان وتزينه في كافة الحقول الحيوية، دون رهبنة وتقشف مبتدَعين.

لا فحسب أن تلك الحضارة مسموحة ممنوحة للذين آمنوا، بل و﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ فهم أولاء أصول لهذه الحضارة الراقية المباركة، وعلى هامشهم سائر الناس، خلاف ما يزعم أن هذه الحضارة خاصة بالذين كفروا وصالحوا العباد عنه بعادا!.

وهنا ﴿خَالِصَةٗ﴾ قد تعني مع الخلوص لهم عن شركاء، خلوصاً عن الأوشاب والغصص التي تشوب كلَّ زينة وطيبة من الرزق، فلا خليط لهم هناك من سواهم ولا من ملابسات النعم التي هي من قضايا الحياة الدنيا.

ترى في أغوار التاريخ الإنساني جاهليات مسخت الفطر والفكر والعقول، بل والحواس الإنسانية من الجاهلية العربية والإغريقية والرومانية والفارسية، وعلى طول خطوط الجاهليات وخيوطها في كلِّ زمان ومكان حتى الآن.

فهذه الجاهلية المتحضرة التي يعيشها الحضاريون! قد أعارتهم جماعاً من الجاهليات عبر التاريخ، فأَعْرَتْهُم من ملابسهم كما أَعْرَتْهُم من كلِّ تقوى، وأدخلتهم في جموع الطغوى، وهي تعيِّر الكاسيات من الحرائر العفيفات المسلمات بأنهن «رجعيات» - «تقليديات» - «ريفيات».

فالمسخ هو المسخ، والانتكاسة هي نفس الانتكاسة، مهما عربدت وأرعدت وأبرقت ببريقات تبرز العورات أكثر ماهية شناعة وفضاحة.

وترى ما هو الفارق بين البهائم العارية بطبيعة الحال، وهؤلاء البهم في صورة الإنسان بسيرة الحيوان بل هم أضل سبيلاً؟.

إن بيوتات الأزياء الضياع ومصمميها، وأساتذة التجمل ودكّاتها، إنها هي التي تكمن وراء هذا الخبل العاهر الذي لا تفيق منه نساء الجاهلية المتحضرة ولا رجالها المتأنثون.

من ذا الذي يقبع وراء هذه الأزياء القاحلة، ووراء سعار التعري والتكشف، ووراء الأفلام والصور وما أشبه، التي تقود هذه الحملة المسعورة المسعرّة.

لقد مسخت الجاهلية المتحضرة التصورات والأذواق والفِطَر والعقول والقِيم والأخلاق الإنسانية، إذ جعلت العري الحيواني تقدماً ورقياً، والستر الإنساني تأخراً ورجعية!.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

ترى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ هنا تحصر المحرمات كلُّها بهذه الخمس؟ وهناك محرمات كثيرة خارجة عنها! أم هي المحرمات الوقتية في ردحٍ من العهد المكي، ثم تتلوها محرمات أخرى بعدها مكية ومدنية؟.

﴿إِنَّمَا﴾ ولا سيما نظراً إلى ﴿رَبِّيَ﴾ يؤكدان حصر المحرمات في هذه الخمس، لا سيما وأن محرمات غيرها كانت مبيّنة الحرمة قبل هذه الآية، ثم وكافة المحرمات في شرعة التوراة المفصلة فيها هي محرمة في شرعة القرآن ولم ينسخ منها حتى الآن ولا واحدة، فتظل هي محرمة في شرعتنا، إذاً فـ ﴿إِنَّمَا﴾ لا تختص بعديد من محرمات بآيات مكية فحسب.

إنها تشمل بوجه عام كافة المحرمات حالاً وقالاً وأعمالاً، متجاوزة وسواها، فـ ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هي المعاصي المتجاوزة حدَّها في الحرمة، والمتجاوزة إلى غير الفاعل، أو المتجاوزة فيهما، ثالوث من التجاوزات

الشاملة لأمهات المحرمات ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ظهوراً كأصل أم لغير الفاعل[١]، فمما ظهر، أن تخير غيرك بمعصية ارتكبتها خفية، فإنه معصية على معصية تجعلهما فاحشة، وبطوناً كأصل أم عن غير الفاعل، فهي تشمل الفواحش العقيدية والعملية أماهيه.

وهل الفاحشة تعم النية إلى العقيدة والعلمية الخاطئة إلى العملية؟ النية ما لم تصل إلى تحقيق المنوي ليست معصية فضلاً عن فاحشة، وإذا وصلت إليه فهي من الإثم حيث الفاحشة هي المعصية المجاوزة الحدّ في نفسها أم إلى غير العاصي، وليست نية الشر معصية حتى تصبح فاحشة، وإذا وصلت نية الشر إلى الشر فهي - إذاً - من الإثم.

فالفاحشة تعم الفاحشة حدّها في نفسها، أم المتعدية إلى غير فاعلها، أو الواصل خبرها إلى غيره وهي خفية.

ثم «الإثم» هو «المبطئ عن الثواب» إبطاء عن وقته أم كمه أو كيفه، أم إبطاء عن أصله، و«الثواب» هنا هو الواجب تحصيله لمكان ﴿حَرَّمَ﴾ ويعم الثواب المفروض فعلاً لمحبور وتركاً لمحظور، فكلُّ مقدمات ترك الواجب أو فعل الحرام أم نقص في الواجب وقتاً أو كماً أو كيفاً، هي من الإثم، وكما أن ترك الواجبات أو فعل المحرمات التي تستعقب شؤم الحياة أم محظورات أخرى هي كلها من الإثم، ومن كبير الإثم «الخمر والميسر»[٢].

---

(١) الدر المنثور ٣: ٨٠ - أخرج عبد الرحمن عن يحيى بن كثير أن رجلاً قال: يا رسول الله ﷺ إني أصبت حدّاً فأقمه عليّ فجلده ثم صعد المنبر والغضب يعرق في وجهه فقال: أيها الناس إن الله حرم عليكم الفواحش ما ظهر منها وما بطن فمن أصاب منها شيئاً فليستتر بستر الله فإنه من يرفع إلينا من ذلك شيئاً نعمة عليه.

(٢) نور الثقلين ٢: ٢٥ في الكافي عن علي بن يقطين قال سأل المهدي أبا الحسن عليه السلام عن الخمر هل هي محرمة في كتاب الله عزّ وجلّ فإن الناس إنما يعرفون النهي عنها ولا يعرفون التحريم لها؟ فقال له أبو الحسن عليه السلام: بل هي محرمة في كتاب الله جلّ اسمه يا أمير =

فمن الإثم - إذاً - نية المحرم الواصلة إلى تحقيقه كسائر مقدماته قريبة أو بعيدة، آفاقية وأنفسية التي هي مختارة للفاعل، وكذلك نية ترك الواجب الواصلة إلى تركه أو المبطئة عنه، فمقدمات الواجبات كلها واجبة ومقدمات المحرمات الموصلة إليها محرمة، وغير الموصلة غير داخلة في شيء من هذه العناوين الخمس ثم ولا دليل غيرها على حرمتها.

ولأن الإثم يعم القال والحال والفعال بالمآل، فمثلث الإثم - إذاً - معني منه على أيّة حال، اللّهم إلّا بقرينة معيّنة، فمن الحال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[1].

إذاً فالإثم يعم عمل الخطيئة - كشرب الخمر[2] وما أشبه - ومقدماتها وكما قوبلت به: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا...﴾[3].

والإثم المذكور في القرآن كله (٤٨) مرة، تعني معناها الخاص: ما يبطئ عن الواجب، إيجابياً ككل الواجبات، وسلبياً ككل المحرمات لمكان وجوب تركها.

= المؤمنين فقال له: في أي موضع محرمة في كتاب الله جلّ اسمه يا أبا الحسن؟ فقال: قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣] فأما قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ يعني الزنا المعلن ونصب الرايات التي كانت ترفعها الفواجر للفواحش في الجاهلية، وأما قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ يعني ما نكح من الآباء لأن الناس كانوا قبل أن يبعث النبي ﷺ إذا كان للرجل زوجة ومات تزوجها ابنه من بعده إذا لم تكن أمة فحرم الله عزّ وجلّ ذلك، وأما الإثم فإنها الخمر بعينها وقد قال الله عزّ وجلّ في موضع آخر ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فأما الإثم في كتاب الله فهي الخمر والميسر وإثمهما كبير كما قال الله، فقال المهدي يا علي بن يقطين هذه والله.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٣.

(٢) يسأل المهدي الخليفة العباسي موسى بن جعفر عليه السلام هل الخمر محرمة في كتاب الله؟ والناس إنما يعرفون النهي عنها! قال: محرمة، قال: أين هو؟ قال: ﴿...وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ...﴾ حيث حرم الإثم والخمر فيها إثم كبير.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١٢.

ثم ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هو طلب المحظور فطرياً أو عقلياً أو شرعياً، أم جمعاً منها فأبغى، وهنا ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قد تعني التأكيد المعني من أمثال ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾(١) توصيفاً بما هو لزام البغي، أم هو تقييد للبغي الشامل طلب الحق والباطل.

ذلك، لأن ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ غير متمحضة لغوياً في المحظور، فالواوي منها متعدية بـ«على» تعني التعدي، وهي متعدية بنفسها تعني النظر إلى المتعدى كيف هو؟ واليائي منها متعدية هي مطلق الطلب محظوراً أو محبوراً، وهي لازمة تعني العدول عن الحق.

فـ ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ طليقةٌ عن كلٍّ هذه تحتملها كلها، فلذلك قيدت هنا بـ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ إخراجاً للبغي غير المحظور، فهي - إذاً - هنا يائية لازمة، أو متعدية بعلى، حيث تعنيان الطلب الباطل.

ثم الباء في ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قد تعني كلا السببية والمعية، فالأولى تعني أي طلب بسبب غير الحق مهما كان طلباً للحق، والثاني تعني طلباً مصاحباً غير الحق، مهما كان طلب الباطل، أم وطلب الحق مصاحباً حالة الباطل، كالأمر بالمعروف للتارك له، والنهي عن المنكر للفاعل إياه، والدعوة إلى الخير دون معرفة صالحة للخير أو الدعوة إليه، وإلّا لكان بغياً بغير الحق مهما كان دركات حسب دركات غير الحق.

﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ وهي تعم كافة دركات الإشراك بالله، في ألوهيته وربوبيته وقضائه وحاكميته الطليقة الربانية وكلّ ما يختص بساحة قدسه تعالى دون سواه، وهنا ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ مما يزيد الإشراك بالله نحوسة ونكوصة عن الحق المُرام.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦١.

فلئن كان في الكون سلطان للإشراك، مهما كان قاصراً نحيفاً، ولن يكن، لم يكن بذلك البعيد عن العقليات، ولكن الإشراك الذي لم ينزّل به أي سلطان فطري أو عقلي وما أشبه، بل وكل سلطان أيّاً كان يستنكره، فهو - إذاً - أنكر المنكرات على الإطلاق!.

فهنا «سلطان» المنكر في سياق النفي، المستغرق بـ«من» الجنسية، كلّ سلطان، تسلب أي سلطان فطري أو عقلي - أنفسياً - وأي سلطان من وحي وسواه آفاقياً، مهما أفاد احتمالاً أو شكاً أو ظناً أم علماً.

فحتى احتمال حق الإشراك بالله غير وارد بين أي سلطان، فضلاً عن العلم، وذلك مما يعظم عُظم الجريمة العقيدية النكراء، وليس للإشراك بالله أي مثيل في النحوسة والنكوسة عن الحق المرام!.

وقد تعني «من سلطان» هنا ما تنزله الآلهة من براهين ألوهيتها ومنها أن تأتيهم رسلهم، فلو كان هناك آلهة من دون الله لأتتك رسلها، إذاً فتخيلة الإشراك المختلق فاقده لأي سلطان من هذه الأربع الآفاقية والأنفسية من الله أن نزلها، أو من شركائه المزعومة أن تنزلها، ثم وكل سلطان قاطع دليل لا مرد له على بطلان الإشراك!.

إذاً فالإشراك بالله هو قمة المحرمات على الإطلاق إذ لا يملك أي سلطان يحتمله أو يشكك فيه أو يرجحه فضلاً عما يثبته علماً أو يقيناً، ثم وكل سلطان آفاقي وأنفسي وفي أنفس الشركاء مكرسة معسكرة لسلبية الإشراك على الإطلاق ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾[١].

لذلك نسمع الله يُكرِّر القول ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ كما هنا وفي غيرها من آيات تعني معناها!.

(١) سورة الروم، الآية: ٣٥.

﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ حيث تحصر القول - كما الفعل والحال - بما يعلم أنه من الله حصراً لكلٍّ الأقوال والأحوال والأعمال فيما قال الله، وحسراً عما لا يعلم أنه من الله.

فقد شملت هذه الخمس المحرمات بأسرها دون إبقاء، مهما لم تسم كلّ واحدة باسمها، إذ سُميت برسمها، ما يحلّق على كلٍّ المحرمات في شرعة الله.

لا فحسب أنها تعم كلَّ المحرمات الرسمية، بل وترك الواجبات فإنه أيضاً من المحرمات، فلم يبق حكم إلزامي فعلاً أو تركاً إلّا وهو مشمول لهذه الخمس.

فالآيات المبينات لتفاصيل المحرمات - كما الروايات - هي شارحة لما أجمل في هذه الخمس، وما أجمله إجمالاً ينبع منه كل تفصيل.

فمن المحرمات ما هي مقدمات لمحرمات وهي كافة المقدمات الموصلة إلى محرمات فهي ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ومنها ما هي محرمات غير فاحشة، وثالثة هي فاحشة في نفسها، ورابعة ما هي فاحشة إلى غيرها، سواء أكانت محرمة أخرى كالخمر التي تفتح أبواب محرمات أخرى، أم أشخاصاً آخرين كالقتل والسرقة، وهذه كلها مشمولة للفاحشة، اللّهم إلّا الأولى المشمولة للإثم والثانية المشمولة للبغي، كما المستتبعة لغيرها للإثم مهما كانت - أيضاً - من الفواحش، ثم المحرمات العقيدية والقولية مشمولة للأخيرين.

وهنا ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تعم الفتاوى غير المسنودة إلى علم أو إثارة من علم(١).

---

(١) المصدر ٢٦ في الفقيه قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصية لابنه محمد بن الحنفية: يا بني لا تقل ما لا تعلم بل لا تقل كل ما تعلم، وفي نهج البلاغة قال عليه السلام: علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك، وألا يكون في حديثك فضل عن عملك، =

فلا يحق القول على الله، أنه قول الله، إلّا سناداً إلى كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ بحجة بينة، وطريقة قيمة صالحة حاصلة على حق القول والقول الحق بحق الله، ثم لا يسند ما وراء ذلك إلى الله، وإنما يقال: هكذا أفهم والله أعلم، دون تأكيدة لحجية قوله فضلاً عن سناده إلى الله.

وهنا ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تشمل العلم أو القطع الحاصل من غير الطرق الصالحة إلى الوحي، والوحي لا يُعلم إلّا بنفسه، بعلم هو نفسه، أو إثارة من علم هي نقل رجالات الوحي، وهو السنة القطعية الصادرة عن مصادر الوحي.

ثم ما وراء ذلك يعبّر عنه في القرآن بالظن، فـ ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[1] تحصر الحجة بهما، ثم ما وراءهما ظن و﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[2].

والقول: إن القطع حجة ذاتية فلا يزول إلّا بحجة تُماثله أم هي أقوى؟ إنه غَول من القول: حيث المقطوع كتاباً وسنة ألا حجة إلّا فيما يقطع به أو يعلم من الكتاب أو السنة.

ثم القاطع بغيرهما - على فرضه - هل يقطع بانحصار الحق فيه، انحساراً له عما سواه؟ طبعاً لا، وإلّا كان مكابراً يفضل غير الوحي على الوحي للحصول على أصل الوحي!.

= وأن تتقي الله في حديث غيرك، وفي عيون أخبار الرضا عليه السلام عن علي عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماوات والأرض، وفي الخصال قال عبد الله عليه السلام: أنهاك عن خصلتين فيهما هلك الرجال، أن تدين الله بالباطل وتفتي الناس بما لا تعلم، وفي كتاب التوحيد عن زرارة قال سألت أبا جعفر عليه السلام ما حجة الله على العباد؟ قال: أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا عندما لا يعلمون.

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٤.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣٦.

ثم ولا يحصل القطع الخالي عن أية ريبة بالطرق غير القطعية كالرؤيا ودليل العقل في الأحكام الفرعية، والإجماع والشهرة وحتى الإطباق، اللّهم إلّا لمن هو قطّاع يقطع بأقل لمحة، فهو - إذاً - من قطاع طريق الحق، والقرآن يعبر عن كلٍّ علم أو قطع وما دونهما من غير طريق الوحي القاطع، يعبر عن كلّ ذلك بالظن، إذاً فأين الحجية الذاتية للقطع شرعياً، مهما كانت حجة عرفية أماهيه؟.

ثم الذاتي لا يتخلف ولا يختلف عن الواقع أبداً، ونحن نرى تخلفات في قطعيات - حتى الحاصلة من الكتاب والسنة - فضلاً عما سواها، والفارق بين القطعين حجية الحاصل من دليل الوحي بدليل الوحي، وعدم حجية ما سواه.

ذلك، وقد لا نجد آية تعم كافة المحرمات كهذه، حيث شملت الصغائر إلى الكبائر، والمتعديات إلى سواها، في مثلث القال والحال والفعال، وثالوث ١ - المقدمات، ٢ - والأصول، متعدية إلى محرمات أخرى، ٣ - وسواها، فواجب التقوى يشملها كلّها مهما اختلفت درجاتها حسب اختلاف دركات المحرمات.

وبتقسيم آخر للمحرمات نقول الجنايات خمس حسب النواميس الخمسة، فمنها الجناية على العقول كشرب الخمر وما أشبه من مطعوم أم دعايات تُزيل العقل أو تُخفِّفه، وهي مشمولة لـ «الفواحش والإثم والبغي بغير الحق».

ومنها الجناية على النفوس كقتل النفس وهي مشمولة لهذه الثلاثة، أو على الأعراض كالزنا وكذلك الأمر، أو على الأموال وهكذا الأمر، أو على الأديان وهي الإشراك بالله والقول بغير علم على الله.

ولأن النواميس الخمسة محرمة الضياع ومفروضة الحفاظ في كافة

شرائع الله، فهذه الخمسة المسرودة هنا وهي عبارة أخرى عن هذه النواميس، هي المحرمات الأصلية التي حرمت في كافة شرائع دون أي نسخ أو تحوير.

فقد شملت هذه الآية كافة صنوف المحرمات صغيرة وكبيرة، ما ظهر منها وما بطن، بنوعياتها وآثارها، بأصولها ومقدماتها وغاياتها، فلم تبق أية محرمة مفصلة في شرعة الله وغير مفصلة إلّا وهي داخلة في هذه الآية الضابطة لها كلها!.

ذلك، وجملة القول أن طاعة الله الصالحة هي أن يطاع كما يريد، لا كما تريد وهو يريد أن تحصل على علم الطاعة من وحيه فقط، وأما غيره فهو من دخول الدار من غير بابها، فحتى أن حصلت على علم واقع من غير طريق الوحي المقرر له طريقاً خاصة، فذلك مرفوض.

وترى إن أمرك المولى أن تدخل داره من مدخل خاص وحذّرك أن تدخله من سائر المداخل، فهل لك أن تدخلها من سائرها.

وهكذا الله أمرنا بما أمرنا، ثم أمرنا أن نحصل على معرفة أوامره من طريق وحيه لا سواه، إذاً فلا حجة في هذه السبيل إلّا وحيه لا سواه.

فكما أن من فسر القرآن برأيه أخطأ أو أصاب، ومن أفتى بغير علم أخطأ أو أصاب، ومن حكم بحكم له هو ليس بأهله أخطأ أو أصاب، كان طريقه إلى النار.

كذلك من حكم بحكم أنه من الله وهو ليس من أهله، أم هو من أهله ولكنه يحكم بغير الوحي، فهو أخطأ أو أصاب كان طريقه إلى النار.

فليس فقط على المكلفين أن يطبقوا ما يعلمون من أحكام الله، بل وعليهم أن يعلموها مما قرره الله، وهو علم أو إثارة من علم، فالعلم هو

كتاب الوحي، وإثارة من علم هو السنة القطعية الرسالية على هامشه، ثم لا علم صالحاً من غير هذين الطريقين الصالحين.

ذلك، وحين يختص علم النبي بطريق الوحي دون عقليته البارعة أم سواها، فكيف يعم علم من سواه في حقل الشرعة طريق الوحي إلى سواه.

فقد والله قال الله ما يحتاجه المكلفون إلى يوم الدين في إذاعتي الكتاب والسنة.

فالضوابط العامة وقسم من الفروع الهامة مذكور - ولا بدّ - في الإذاعة القرآنية المستمرة مع الأبد، وسائر الأحكام الهامشية تتكفلها السنة القطعية، ولو أن حكماً من الأحكام أصلية أو فرعية كان في علم الله أنه لا يصل صالح الوصول إلى الأمة من طريق السنة لكان يذكره في كتابه لكيلا يفلت بأسره، حفاظاً على تمام الدين وكمال النعمة، ولأنها الشريعة الأخيرة التي لا بديل عنها إلى يوم القيامة، فلتكن مبينة بين الكتاب والسنة.

وأما أن يحول الله بعض الأحكام إلى اجتهادات المجتهدين فلا يبينها أم يعلم أنها تخفى عن السنة، فذلك نقص في الشرعة ونقض للغاية المشرعة لها الشرعة.

فالعلم والعلم فقط من طريق الوحي هو الحجة الشرعية في الأحكام وما أشبه من أمور الدين، ولا يحصل القطع من غير طريق الوحي حيث الطرق كلّها دون الوحي جائزة الخطأ، فكيف يحصل القطع من طريقة جائزة الخطأ؟.

ف «ذمتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم، إن من صرحت له العِبر عما بين يديه من المَثُلات حجزته التقوى عن تقحم الشبهات... ألا وأن الخطايا خيلٌ شُمُس، حمل عليها أهلها وخُلِعت لُجُمها فتقحمت بهم في النار، ألا

وإن التقوى مطايا ذُلُل حُمل عليها أهلها وأعطوا أزمَّتها فأوردتهم الجنة»[1] و«لا يهلك على التقوى سنخُ أصلٍ، ولا يظمأ عليها زرع قوم، فاستتروا في بيوتكم وأصلحوا ذات بينكم والتوبة من ورائكم، ولا يحمد حامد إلّا ربه، ولا يلم لائم إلّا نفسه» (خ ١٦).

و«إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً، وصدقاً وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعاماً وخاصاً، ومحكماً ومتشابهاً، وحفظاً ووهماً، ولقد كذب على رسول الله ﷺ على عهده حتى قام خطيباً فقال: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار -

وإنما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس:

رجل منافق مُظهر للإيمان، متصنِّع بالإسلام، ولا يتأثَّم ولا يتحرَّج، يكذب على رسول الله ﷺ متعمداً، فلو علم الناس أنه منافق كاذب لم يقبلوا منه ولم يصدقوا قوله، ولكنهم قالوا: صاحبُ رسول الله ﷺ رآه وسمع منه ويقصُّ عنه فيأخذون بقوله، وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك، ووصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده فتقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولّوهم الأعمال، وجعلوهم حكاماً على رقاب الناس، فأكلوا بهم الدنيا، وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلّا من عصم الله، فهذا أحد الأربعة -.

ورجل سمع من رسول الله ﷺ شيئاً لم يحفظه على وجهه، فوهم فيه ولم يتعمد كذباً، فهو في يديه ويرويه ويعمل به ويقول: أنا سمعته من رسول الله ﷺ فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوا منه، ولو علم هو أنه كذلك لرفضه -.

ورجل ثالث سمع من رسول الله ﷺ شيئاً يأمر به ثم إنه نهى وهو لا

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٦/ ٥٥.

يعلم، أو سمعه ينهى عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ، فلو علم أنه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه -.

وآخر رابع لم يكذب على الله وعلى رسوله، مبغضٌ للكذب خوفاً من الله، وتعظيماً لرسول الله ﷺ ولم يَهِمْ، بل حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به على ما سمعه، لم يزد فيه ولم ينقص منه، فحفِظ الناسخ فعمل به، وحفظ المنسوخ فجنب عنه، وعرف الخاص والعام، فوضع كلّ شيء موضعه، وعرف المتشابه ومحكمه -.

وقد كان يكون من رسول الله ﷺ الكلام له وجهان: فكلام خاص وكلام عام، فيسمعه من لا يعرف ما عنى الله سبحانه به، ولا ما عنى رسول الله ﷺ فيحمله السامع ويوجهه على غير معرفة بمعناه، وما قصد به وما خرج من أجله، وليس كلُّ أصحاب رسول الله ﷺ من كان يسأله ويستفهمه حتى أن كانوا ليحبون أن يجيء الأعرابي والطارئ فيسأله عليه السلام حتى يسمعوا، وكان لا يمر بي من ذلك شيء إلّا سألته عنه وحفظته، فهذه وجوه ما عليه الناس في اختلافهم وعللهم في رواياتهم»[1].

ذلك، فكيف نثق بحديث المعروف بالثقة وعلّه: ١ - منافق أو فاسق، ٢ - أم إن كان في الحق ثقة علّه تقبّله ممن عرفه بالوثوق وليس ثقة، ٣ - أم إنه وارد مورد التقية وهو لا يعرف، ٤ - أم هو منقول بالمعنى الذي لم يعن منه، ٥ - أو تقطّع أن سقط عنه ما يدل على صالح معناه، ٦ - أو منسوخ بحديث آخر أم آية، وما أشبه من كوارث الحوادث في الحديث.

فماذا تفيد صحة السند حين يحتمل الحديث مختلف الاحتمالات، وإنما تسد صحة السند ثغر التعمد على الكذب بواقع الثقة.

(١) (الخطبة ٢٠١).

وإنما الوثوق مرتكن على سلامة المتن من التهافت والتبعثر، وموافقة الكتاب والسنة، أو عدم مخالفتهما، وعدم المعارض الذي يجعله غير معلوم الصدور، وكون أحد السندين أوثق من الآخر لا يجعله معلوم الصدور، فهو داخل في النهي: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾(١)!.

إذاً فلا دور لصحة السند إلّا ضماناً لعدم تعمد الكذب، دون ضمان لصدوره دون تقية ولا نسخ ولا سلامة عن النقل بالمعنى ولا تقطع وما أشبه.

ذلك، ولأن العلم ثلاثة، علم يحلّق على الواقع كله وهو مختص بالله سبحانه أو ومن علّمه بوحيه ما علّمه، وهذا لا يقبل الخطأ، وعلم هو أضيق من الواقع وهو الحاصل من غير الوحي، وهذان قسمان اثنان: علم يحصل من طريق الكتاب والسنة بشروطه، وآخر يحصل من غيرهما أو منهما دون شروطه، فالعلم الأول غير مفروض علينا ولا ميسور، والثالث مرفوض محظور، والثاني محبور، فإذا صادف الواقع - وقليلاً ما يخطأ لمكان عدم العصمة - ففيه أجران، وإذا لم يصادف الواقع ففيه أجر واحد لمكان القصور الذاتي لغير المعصومين عليهم السلام، ولا حجة في العلم الحاصل بالأحكام الشرعية من غير الطرق المقررة الشرعية، لقصور سائر الطرق ذاتياً إضافة إلى قصورين يعلم بها، وأما الحاصل من الطرق المقررة الشرعية فهو حجة شرعية لمكان عدم التقصير في الحصول عليه وانه لا تكلف نفس إلّا وسعها.

وما دغدغة ذاتية الحجية للقطع إلّا خرافة، فإن كان القصد حجيته العقلية بمعنى الانطباق على الواقع مائة بالمائة فهذا زلل من القول وزور، وإن كان بمعنى الانطباق الأحياني الذي جعل الشارع حجة فكذلك الأمر،

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

حيث الحجة المنحصرة في الكتاب والسنة بدليل الكتاب والسنة تسلب أية حجية لأي دليل أو علم!.

وفيما يلي - على ضوء الآيات البينات التي تحصر الاتباع بالعلم في الكتاب والسنة - روايات نموذجية عن الرسول والأئمة من عترته عليهم السلام:

١ - في حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم. حين أتاه عمر فقال: «إنا نسمع أحاديث من اليهود تُعجبنا، فترى أن نكتب بعضها؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أفتهوّكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟ لقد جئتكم بها نقية، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلّا اتباعي»[(١)]!

٢ - في حديث علي عليه السلام: «... أيها الناس عليكم بالطاعة والمعرفة بمن لا تعذرون بجهالته، فإن العلم الذي هبط به آدم وجميع ما فضلت به النبيون إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين، في عترة نبيكم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فأين يتّاه بكم؟ بل أين تذهبون؟ يا من نجى من أصلاب أصحاب السفينة فهذه مثلها فيكم فاركبوها، فكما نجا في هاتيك من نجا فكذلك ينجو في هذي من دخلها، أنا رهين بذلك قسماً حقاً وما أنا من المتكلفين، الويل لمن تخلف ثم الويل لمن تخلف..[(٢)].

٣ - في حديث الباقر لسلمة بن كهيل والحكم بن عتيبة: شرقاً أو غرباً لن تجدا علماً صحيحاً إلّا شيئاً خرج من عندنا أهل البيت»[(٣)].

٤ - في حديث الصادق عليه السلام: من دخل في هذا الدين بالرجال أخرجه منه الرجال كما أدخلوه فيه، ومن دخل فيه بالكتاب والسنة زالت الجبال قبل أن يزول[(٤)].

---

(١) عوالم العلوم (٢ - ٣): ٣٨٦.
(٢) المصدر.
(٣) المصدر ٣٩٣.
(٤) المصدر ٤٠٠ عن غيبة النعماني.

٥ - في حديثه الآخر «لا تحل الفتيا لمن لا يستفتي من الله عزّ وجلّ بصفاء سرِّه، وإخلاص عمله وعلانيته وبرهان من ربه في كلِّ حال، لأن من أفتى فقد حكم، والحكم لا يصح إلّا بإذن من الله عزّ وجلّ وبرهانه، ومن حكم بالخبر بلا مُعاينة فهو جاهل مأخوذ بجهله، مأثوم بحكمه، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أجرؤكم بالفتيا أجرؤكم على الله عزّ وجلّ، أو لا يعلم المفتي أنه هو الذي يدخل بين الله تعالى وبين عباده وهو الحاجز بين الجنة والنار»[١].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: اتّقوا تكذيب الله، قيل: يا رسول الله وكيف ذاك؟ قال: يقول أحدكم: قال الله، فيقول الله عزّ وجلّ: كذبت لم أقله، ويقول: لَمْ يقل الله، فيقول الله عزّ وجلّ: كذبت قد قلته[٢] وفي وصية أمير المؤمنين عليه السلام: .. وأن أبتدئك بتعليم كتاب الله عزّ وجلّ وتأويله وشرائع الإسلام وأحكامه وحلاله وحرامه، لا أُجاوز ذلك بك إلى غيره[٣].

---

(١) المصدر ٤٢٣ عن مصباح الشريعة.
(٢) المصدر ٤٢٧ عن معاني الأخبار.
(٣) العوالم (٢ - ٣): ٢٣٦ نهج البلاغة.

فهرس الجزء العاشر

الموضوع	الصفحة

تتمة سورة الأنعام

سورة الأنعام، الآيات: ٧٤ - ٩٠ .... ٧

سورة الأنعام، الآيات: ٩١ - ٩٤ .... ٤٣

سورة الأنعام، الآيات: ٩٥ - ١٠٨ .... ٦٧

سورة الأنعام، الآيات: ١٠٩ - ١٢٢ .... ١٢٨

سورة الأنعام، الآيات: ١٢٣ - ١٣٥ .... ١٧٠

سورة الأنعام، الآيات: ١٣٦ - ١٤٥ .... ٢٠٣

تلحيقة ٢٣٠

سورة الأنعام، الآيات: ١٤٦ - ١٥٧ .... ٢٣٢

سورة الأنعام، الآيات: ١٥٨ - ١٦٥ .... ٢٦١

سورة الأعراف

مكيّة وآياتها ٢٠٦

سورة الأعراف، الآيات: ١ - ٧ .... ٢٨٩

سورة الأعراف، الآيات: ٨ - ٢٥ .... ٣١٣

سورة الأعراف، الآيات: ٢٦ - ٣٣ .... ٣٥٥